عصام عبد الحميد

لدغة

رواية

مُتلازمةُ القلبِ المُنْكَسِر

دار البشير

عزّة

(متلازمةُ القلب المنكسر)

الطبعة الأولى
1440 هـ
2018 م

اسم الكتاب: عزة متلازمةُ القلب المنكسر
التأليف: عصام عبد الحميد
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 376 صفحات
عدد الملازم: 23.5 ملزمة
مقاس الكتاب: 14x20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2018/22630
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 278 - 719 - 7

محفوظة جميع الحقوق

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

دار البشير للثقافة والعلوم

elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

عـزّة

(متلازمةُ القلب المنكسر)

رواية

عصام عبد الحميد

دار البشير للثقافة والعلوم

تمهيد..

كلّ الشخصيات الموجودة بالرّواية، حقيقية.

وكلّ أحداثها واقعة، وواقعية.

حدثتْ في مكانٍ ما، أعذروني، لا أعرف كيف أحدّده؛

فكلّ الأماكن أصبحت عندي متشابهة..

مثل الحزنِ المنقوش على وجوهنا..

مثل الأمل الغائب الذي نتوارثُ انتظاره.

إهداء

إلى عزّة..

وكلّ عزّة..

إلى نورِ الحياة التي تتوهّج روحي بحضورها..

فتنسالُ الحروف مثلَ جدول الماءِ العذب؛

ليرويني في هجير الرّحلة الطويل.

صباح ٢٥ يناير ٢٠١١

ما الذي يجعلُني أُحبّ هذا الوطن على قسوته؟!

ما الذي يجعلُ رائحةَ عشقه تراودني دائمًا؟!

لماذا في كلّ مرّةٍ يَكبرُ فيها ساقُ الأملِ سامقًا يُطاول السحاب، وتطيب عليه ثمارُ الجني، ويتدلّى لي بها دانية، قريبة حلوة متلألئة بالنّدى، وتهتزّ متهيأة للقطاف...يخذلني، يقهرني، يسْحقني، ويذبحني، ويُلقيني إلى سواقي الحزن بلا رحمة؟!

كان الحاج محمود غارقًا في طنينِ أسئلته الأزليّة، المتكرّرة على رأسه كالمطارق، لا يستطيعُ أن يوقِفها بإجابةٍ واحدة شافية، شاردًا في اللاشيء بعيون غائمة، جالسًا على المصطبة بانكسار، والشّمس تُقبِلُ على وجهه شاحبةً، والصّبح يفرشُ الأرضَ بيتم ذابل، تُطلق بعض العصافير المتناثرة أصواتَها على استحياء، لا أحد يعرف هل هي تغرّد كعادتها كلّ صباح، أم تشارك العجوز حزنَهُ الرّاعفُ؟! أمّا النسماتُ في هذا البكور فمرتجفةٌ حزينة.

بلغتُ الثّمانينَ عامًا، آمنت بك يا ربّ، وأستغفرك، ولن أكفرَ بمشيئتك وأنا على أعتاب لقائك، ولكنّ شيطاني يسألني دائمًا، لماذا يضعكَ اللهُ منذ زهرةِ شبابك- وحتى الآن- في محنة هذا الوطن، التي لا تريد أن تنتهي!؟ أخرجه يا ربّ من رأسي، واقطعْ عنّي وسوسته بحقّ جاه حبيبك النبي؛

فقد سحقتني الأسئلة، واقبضني إليكَ يا الله؛ فقد تعبت، وأنت حسبي وجاهي.

مسح العجوز دموعًا تتدفّق على خدّيه، وهو يكرّر الاستغفار.

أحسّ بيدها الحانية، تُربتُ على ظهرهِ، فأدار رأسَه إلى صدرها كطفلٍ لجأ إلى واحة أمانه، فضمّته قائلةً:

- كُنتَ تقول لي دائمًا: لا تنتظري الراحةَ في الدّنيا وإلّا تعبتِ أكثر، ولكنّها هناك، عنده وحدَه، رحمان الدّنيا والآخرة.

يتنهْنه العجوزُ في حِضْنها، ويهزّ رأسه أنْ.. نعم، فتُقَبّلُها وتُكملُ:

- تدري يا حاجّ محمود؟ على غير العادة في كلّ مصيبة تَحِلّ علينا، لا أعرف من أين رفّت على روحي هذه السّكينة وهذه الرّحمات؟! ثقةٌ موصولة بأنَّ الله سَيُفرّجُ همّنا وسَيُفْرحُ قلوبَنا قريبًا جدًّا، أقرب ممّا نتصوّر ونرتجي.

اسْتكان لحديثها، واطمأنّ وواصلت:

- كُنتَ على مدى عمرك كريمًا، شهمًا، تُغيثُ الملهوف، وتمشي في مصالح الناس وحوائجِهم، كمْ من بيوت أوشكت على الخراب لولا صبْرك وحكمتك فأصلحتها، كمْ من فقير معدوم أعطيته وكفيتَه ذُلَّ السؤال، هل تظنّ أنّ الله يختم حياتنا بسوءٍ؟ لا والله لن يحدث أبدًا، قمْ يا سيّدي، وانفضْ عنك الحزن، واستعذْ بالله من الشيطان الرجيم، لقد أعددتُ قهوتَنا الصباحية، ولن أشربها وحْدي.

استجاب لها، وقف يمسحُ دموعه، دارت بكفّها على صدْره، كأنّها تزيح الهُموم الجاثمة عليه، ليستعيدَ بعض قوّته:

- لا يصحّ أن تراك حفيدتُك هكذا! المسكينة لم تزلْ تبكي من وقتِ أن وقعتْ عيناها على المشاهد المُفجعة التي عشناها منذ أيام، انْهيار عزّة وسقوطُها ميتة، ومشهدُ أبيها المفجع، وقد جرَّتهُ قواتُ الأمن للخارج معتقَلًا، كان الله في عوْننا جميعًا، سأناديها، حبيبة قلبك، ونَدَى حياتك؛ لتضمّها وتطيّب خاطرها.

مساء نفس اليوم

ماتت عزّة، في حضني، وبين ذراعيّ، ذبحوها بلا رحمةٍ في ليلة عرسنا، في تلك اللحظة التي اسْتعدنا فيها كيانَنا الروحي والإنساني كاملًا، وتهيّأنا لبناء حياةٍ جديدة، هكذا.. هكذا ينتهي الأمر بهذه السّهولة!!؟ تفجعُنا الحوادثُ بكلّ هذه اللامبلاة من حيث لا ندري؟!

آهٍ ياحسام، ماتت المرأةُ الوحيدة التي عَثُرتْ عليّ، فعثرتُ على نفسي، لماذا تقابلنا إذًا إن كانت نهايةُ الحكاية بهذه السّرعة؟! ما هذه الحكمة المُرَّةُ فينا؟!

مكتوبٌ عليّ أن تنتهي رحلتي في كلّ مرّة، مستندًا إلى ذلك الجدار البارد في زنزانةٍ موحشة، وتطرقُ الأسئلة المستحيلة رأسي بلا رحمة، بلا إجابة شافية.

هل مكتوبٌ عليَّ لعنةٌ ما، تجعلني أعيش ميتًا، فإذا ما اقتربت من ماء الحياة تنزلقُ قدمي وأتدَحْرج للموتِ مرّةً أخرى؟! رحمَكِ الله يا حبيبتي، ورحمني.

ثلاثة أيّام، ودموعُ حسام تنهمل بلا توقّف، ومشهد عزّة الأخير لا يريد أن يفارقه؛ وهي تصرخ، تهتفُ باسْمه، تستغيث به؛ ماثلٌ أمام عينيه، وشهقةُ النهاية قبل أن تسقط إلى الأرض، وليس عليها شيء يسترُها، ثمّ الأيدي الغليظة التي تسابقت إلي الإمساك به وتقيّده، النساء يهرولنَ صارخات فيهم، وأمّ عزّة ترتمي فوق ابنتها صارخةً مُنتحبة، وهو عاجزٌ عن نجْدتها.

منذ أنْ أوْدعوه الزنزانة، استندَ- كعادته القديمة- إلى الجدار البارد، وعقله هذه المرّة لا يدور في الفراغ؛ ولكنّه يدور في الرّحى، ثلاثة أيّام بلا تحقيق، ولا أسئلة، ولا وجوه كئيبة، يبدو أنّ الجميع مشغولٌ في أمرٍ جَللٍ لا يعرفه، حاول أن يسأل المجنّد الذي يضعُ له الطعام في الصباح، ليس لديه إجابة شافية، طلب منه أن يبلغ أيًّا من الضبّاط بطلبه للحديثِ معه، ولكنّه لم يزدْ على أنْ قال:

- لا أحدٌ هنا.

جلس في خشوع، يختمُ صلاة العشاء، حين انتبه على أصواتٍ في الخارج كثيرةٍ متداخلة، وسُباب متبادَل وصفعاتٍ وركَلات، ثمّ انْفتح بابُ الزنزانة، ليدخلها مجموعة كبيرة من الشباب، امْتلأت بهم في ثوانٍ معدودة، أصغرُهم ربّما كان في الثانية عشرة، وأكبرهم تجاوز العشرينَ بقليل، يضحكون باستهزاءٍ ويتحدّثون بأصواتٍ عالية، كأنّهم في نزهة، حماسٌ وقوّةٌ ووعيٌ ظاهرٌ للحظةٍ يحيونها بكلّ كيانهم، تبادلوا الأحاديث عن مظاهرات حاشدة تملأ أرجاءَ مصر، عاد حسام للتمسك بذبالة الأمل المُتهاوية، حين يُقبل عليه الوطنُ بتناقضاته، ومفاجآته.

يجلس صامتًا بين الجميع، تدور عيناه، تتفحّص وجوههم، وعقلُه يعمل بسرعة في محاولة استيعاب ما يسْمعه، هل حقًّا البلد في ثورةٍ كما يقول الشباب؟ ماذا سيسفرُ عن الغبار الكثيف الذي ستُحْدثه؟ يمسح رأسه، ويعود لتأمّل الوجوه التي لا تُعيره انتباهًا، كأنّه من زمانٍ ولّى وانتهى ومات.

بالتّأكيد رأوه حين دخلوا، لم يلتفتوا أو يهتمّوا لوجوده في البداية، ثمّ ما لبث أن اقتربَ منه أحدهم وكان أكبرَهم فيما يبدو، نظرَ إليه قليلًا، وقال بدهشة:

- حضرتك الأستاذ حسام عبد اللطيف؟

غزاه فرحٌ طارئ:

- نعم، أتعرفني؟

- نعم، أنا جارك.

ثمّ التفتَ لبقيّة الشباب وقال:

- الأستاذ حسام من عباقرة الزّراعة في مصر والعالم، هكذا حدّثني أبي عنه كثيرًا.

غزتْ قشعريرةٌ جسدَه، ودمعت عيناه، لم يتصوّر أن يعرفه أحدٌ في مصر، فضلًا عن كوْنه حديث السّن.

اقتربَ شابّ آخر منه:

- حضرتك فعلًا الدكتور حسام عبد اللطيف؟!

بسعادةٍ مغموسة بالحزن:

- نعم.. نعم، أنا هو.

- أنا طالب في كلية الزراعة، وقد حدّثنا عنك أكثرُ من دكتور في الكلية أثناء المحاضرات، هل فعلًا ما قالوه عنك؟!

- ماذا قالوا؟!

- لقد درّسوا لنا أوراقًا بحثية كثيرة مُدهشة، وكان اسمك يَرِدُ كثيرًا في مقالات عالمية عن فضلِ علْمك في تطوير الزّراعة في مناطق كثيرة بالعالم.

قطع أحدُهم الاسترسال في الحديث بسؤاله:

- هل تمَّ أيّ تحقيق معك؟

- لا، لم يتمّ، ولم أرَ أحدًا منذ ثلاثة أيام.

فقال الشابّ وقد واجه البقية:

- يبدو أنّ الدعوة للمظاهرات أربكتِ الأجهزة الأمنية، جعلتْها تغفل التّحقيق معك أو تؤجّله.

- ربّما، ولكن ماذا يحدث بالخارج؟

قال أحدُ الشباب:

- هل سمعت عن الدّعوة للمظاهرات يومَ عيد الشرطة؟

- نعم سمعتُ عنها، وكان هناك شبابٌ كُثُر متحمّسين لها بالفعل، ولكن لم أتصوّر أن تحدثَ مظاهراتٌ فعلًا لهذه الدرجة التي تحكون عنها.

- تحوّلت هذه الدعوة اليوم إلى مظاهرات غيرِ مسْبوقة، ولم يتخيّلها أحدٌ، مهما ذهب خياله، أن تكون بهذا الحجم وهذه الجرأة، ممّا دفع الشرطة للتصدّي لها بعنف، وكلّما ازْدادَ ردّ فعلها عنفًا؛ ازدادَ إصرارُ المتظاهرين، وتضاعف عددُهم.

- في تصوّركم، إلى أين ستنتهي تلك المظاهرات؟

- إلى أن يستجيبوا لمطالب الشعب.

قال أحدُهم:

- لا أظنّ أنّ هذه المظاهرات ستنتهي بسرعة، فالذي شاهدناه اليوم يقول إنّ النظام لن يتراجَع، وكذلك الشّعب الموجود في التّظاهرات لن يتزحزح.

عاد حسام لسؤاله:

- إلى متى؟

بإصرار:

- إلى أن يستجيبوا لمطالب الشعب.

ساد صمتٌ بينهم، ثمّ التفتَ حسام إلى طالب الزراعة متسائلًا:

- لم يحدّثكم أحدٌ من الأساتذة بالكلية عمّا حدث معي؟

- البعض حدّثنا، وعرفنا أنّ لك حكايةً طويلة، وبما أنّك معنا فيجب أن نسمع منْك.

بتلقائيّة التفَّ الشبابُ وتحلّقوا حوله، ووجد نفسَه مرْكَزًا للدهشة والتساؤلات على وجوه شبابٍ صغار، في عيونهم بريقٌ متحفّزٌ قويّ أخّاذ، ما هذا القدَرُ العجيب الذي قضى نحبَ عزّة، ثمّ يرميه هنا في زنزانةٍ مظلمة ليجد نفسَه وسط هؤلاء الصغار، وفي وجههم البريئة نورٌ ونار، وفي أرْواحهم توثّبٌ يستصرخه، وهو لا يدري مِن أين يبدأ؛ مِن شهقة الموت التي اغْتالت وجه عزّة، أم مِن حلمه الذي بدأ مِن همْس عزيزة ويونس؟!! وجد نفسه يبتسم بأسًى ويقول:

- كان يا ما كان، يا سادة يا كرام، ولا يحْلو الكلام إلّا بذكر النّبيّ عليه الصّلاة والسلام.

ردّدوا بأصوات مختلفة:

- عليه الصلاة والسلام.

أوائل العام ٢٠١٠

عزّة..

إنّها السّابعة والثلاثون، رقمٌ لا يميّزه شيء سوى أنّه غير مُميّز، لا يتوقّف أمامه أحد، رقمٌ جافّ كالهشيم، تذْروه الرياحُ فوق أرض بور، كمشاعري.

سيمرّ عليّ كما تمرّ الأشجارُ، والبيوتُ، والوجوهُ، متسارعة في قطارِ العمر الجامح، مسافرًا إلى نهاية لا نعلمها.

السّابعة والثلاثون، لا يعني لي شيئًا، مثل كلّ تفاصيل حياتي، فهو مثل السّادسة والثلاثين، أو الثامنة والثلاثين، أو أي رقم مَرّ، أو سَيَمُرّ، كلّها تمرّ بالمُرّ.

هو حتّى ليس حاصلَ أيّ عملية ضرب حسابية، رغم أنّه أحدُ أيادي الزّمن حين يضرب أيامي بقسوته المعهودة.

كانت عزّة تحدّث نفسها بلا مبالاة، وهي مستلقيةً على سريرها، وعيناها مصلوبتان على سقفِ الحجرة منذ أنِ استيقظت، فتحتْ عينيها ببطء بعد استيقاظِها بدقائق، فاستقبلت سقفَ حجرتها الشّاحب، الجاثم مثل مقبرةٍ فرعونية تأويها منذ آلاف السّنين وقد أغلق بابُها بإحكام، رمشت بعينيها منتبهةً لصوت أمّها الصّباحي المعتاد ليوقظَها، كم تكره صوتَها! سيتكرّر نداؤها، ويعلو ضجرُها، ولا تستطيع أن تُسكته إلّا إذا ردّت عليها لتُعلمها أنّها استيقظت.

جَلست في السّرير، دفنتْ رأسها في كفّيها، تحاول أن تتذكّر حُلمًا ما رأتْه في منامها، تجوّلت وهي تتثاءب بنُعاسها في حجرتها الواسعة المُهْملة بلا عنايةٍ، لا شيء في موضعه، تُلقي بكلّ شيءٍ في أيّ مكان، ولا تجتهد في البحثِ عنه، لا شيء ظلَّ في مكانه من يوم أنْ غَادرَ، إلّا المرآة ظلّت في موضعها صامدةً، ستمرّ أمامها إلى الحمّام الملحق بالغرفة دون أن تلتفت إليها.

تلبثُ عادةً في حمّامها وقتًا طويلًا يتجاوز السّاعة، تقضي أغلبَه واقفة تحت الماء البارد كما تعوّدت في أيّ مناخ تجودُ به الحياة، في الماضي كانت تخاف ويرتعدُ جسدُها لملمسِه، وتضيق روحُها كأنّما ستصعدُ إلى السّماء، الآن تُحبّه طازجًا مندفعًا كلهفة العاشق، تقف مغمضةً عينيها باستسلام، منتشيةً بزخّاته المُتتابعة لتتنفّس فيها الحياة، تتدحرج قطراته على تضاريس جسدها مُتسارعة كالدّموع حين تتدفق في مواسم الحزن.

هي تعرف تمامًا ذلك التّوقيت الذي تغيّر فيها مناخ جسدِها، وأصبح يستقبل الماءَ البارد حتّى في الشّتاء القارص.

كان ذلك ساعة عودتها من المقبرة، يومها مارست كلّ طقوسها المعتادة في البيت، كأنّها تنتظر عودتَه، إلّا طقس الاستحمام؛ فقد تبدّل تمامًا حين وقفت تتحمّم وحدَها للمرّة الأولى منذ أن تزوّجت.

ستمرّ على مرآتها في طريق عودتها دون أن تلتفت إليها، شيءٌ ما في دهاليز ذاكرتها المتشابكة أوْقفها هذا الصّباح أمامَها لحظة، تطلّعت لعينيها ثمّ مدّت يدها وفكّتِ حزام البرنس، وتركتْه ينزلق إلى الأرض لتتأمّل نفسها.

في أزمنةٍ قديمةٍ، موغلة في التّاريخ، لم تعدْ تتبيّنها إلّا بصعوبةٍ؛ تذكّرته اليوم، هاشم، وهما يتحمّمان معًا كلّ صباح، كان حمّام الصّباح اليومي مثل طبق الكشري الوصْلة أو الكمالة بعد الطّبق الكبير الحرّيف الذي كان يُطعمه لها كلّما نزلَا إلى القاهرة في وسط البلد، كان يعشق الشّطة ويأكلُها مستمتعًا كأنّما يتناول قطعَ البقلاوة، يقترب منها وعيناه ملأى بالمكر والرغبة، ويهمسُ لها وهو يطلب الطّبق الكمالة:

- هذا مثل حمّامنا الصّباحي.

فتتلفّت حولها باضطراب أن يسمعه أحدٌ وتقول:

- أخفض صوتَك يا مجْنون.

فيضحكُ متباهيًا كالطاووس بفُحولته، وهو يهزّ رأسه ويلتهمُ ملاعق الكشري الحرّيفة كما يلتهمها كلّ صباح لتشرق الحياة، وتتجدّد وتهتزّ لهما بالحبّ، ثمّ يمرّان أمام المرآة ليشاهدا ذلك الهمَجي وتلك البدائية كأنّهما يستعيدان أمجادَ الإنسانية الأولى من عصورها السّحيقة حيث كان الحبّ بلا تكلّف ولا عُقد، فيتضاحكان ويتذكّران لياليهما الأولى في الزّواج، ثمّ يتحسّس بطنَها وبلهجته الرّيفية:

- ربربتِ يا وزّة.

فتردّ عليه بغُنج:

- اسم الله على مقامِك، تزوّجتك وأنت مثل النّخلة الطويلة، والآن صرتَ كالجميزة.

فيمدّ يده ليجذبها من شَعْرها وقد أكله الغيظُ من تطاول الأنثى على سيّد الذكور، فتنفلتُ منه هاربة في دَهاليز الغابة، مختبئةً وراءَ الأغصان الكثيفة المتدلّية، فيلاحقها حتى يدركَها، فيُمسكَها من جيدها، ويرفعها بسهولة، فتفتح فمَها على آخره، تهدّده وتزمجر، فلا يأبَه لها، فتنهال على كتِفه الصّلب فتعضّه بقوّة، فلا يبالي، يلفّ بها ويدور لمرّاتٍ كثيرة، ليسقطا ويمتزجَا معًا على سرير الهوى، امتزاجًا بنكهة الزّبد الفلّاحي حين يسقط فجأةً في إناءٍ شديدِ السخونة، فيبدأ مباشرةً في الذوبانِ والاستسلام للتلاشي، تُفْلِتُ نفسها منْه، وتهمس له برغبةٍ متناقضة وقد ذبلت عيناها:

- سنتأخّر يا هاشم.

تتدَحْرج دمعةٌ من طرف عينها على قوس خدّها، إنّها السّابعة والثلاثون يا هاشم، أنيابُ الزّمن القاسية تنهشُ بشراهة وقسوة، تفترسني كلّ لحظة بلا رحمة، أكثر من عشْر سنوات مضتْ حين اختفيتَ فجأةً من حياتي، دونَ كلمة واحدة، ولا حتى نظرة وداع، أو عناق، انْتظرتُك كثيرًا بيقين العودة، فكنت أمارسُ كلّ طقوس وجودك كأنّ الحياة ليس فيها إلّا أنا وأنت، هربت من كلّ العيون المُشفقة عليّ، ومرّت أيامُ الانتظار بطيئةً قاتلة تلتهمني بلا هوادة، حتى يئست وأيقنت في لحظة أنّ المركبَ التي حملتك إلى الضفّة الأخرى من نهرِ الحياة لن تعودَ بك أبدًا، فشقّ صراخي جوفَ الليل، وظللت أصرخُ وأَصرخُ حتى غبت عن الوعي، ولم أفتحْ عيني إلّا في المستشفى فكأنّما فتح سدّ الدّموع التي اختزنتُها خلف شهور الانتظار، فتدفّقت نهرًا يجرف أمامه كلّ ما تبقّى لدي، وانْهار وتهدّم، ولم يبقَ سوى أطلال الذكريات.

تعالَ قفْ بجانبي، تأمّلني، لقد عدت كما تزوّجتني، بكرًا لا تعرف عن الرجال شيئًا، نسيتُ كلّ شيء، ماتت فيّ كلّ مشاعر الأنثى، أنتظرُك لتعلّمني من جديد كلَّ أبجديات الحبّ كما علمتني صغيرة وأنا لم أبلغ السّادسة عشر من عمري، فتفتّحت على يديكَ كلّ ينابيع الحياة، وتدفّقت لك بلا حسابٍ لترتوي منها دون اكتفاء، عادت الينابيعُ إلى الجفاف كأنّها خُلقت لك وحدك، فلم أعدْ آبَهُ لرجلٍ، ولا تهفو روحي لأحد، ولا تستجيبُ مشاعري لأيّ نداء، حتى قال لي أحدُهم ذاتَ مرّة وقد أضناهُ المسيرُ والتوسّل إليّ: لو أنّني أسعى وراء حجر لذابَ بين يديّ، ولكنّك امرأة بلا مشاعر، الموت أرجى لكِ منَ الحياة.. كان يتلو كلماتِه ببطء ضاغطًا على حروفها بغيظٍ ظاهرٍ ليشقّ قلبي بسكّين قاسٍ؛ لعلّ الجرح يوقظُ فيّ شيئًا، لا أنكرُ أنّني توقّفت عند كلماته، وبِتُّ أُفكّرُ فيها.. وفيك، أفكّر في الخوف الذي عشتُ فيه بعدك، الخوفِ الذي حاصرتني فيه أمّي وضربته حوْلي.

إنّها تطرق البابَ مرّةً أخرى، يقتحم صوتُها العجوز خلوتي:

– إنّها السّاعة السابعة والثلاثون دقيقة يا عزّة.

جَفلتْ، ثمّ ابتسمتْ، وقالت قبل أن تواصل أمُّها النّداء:

– نعم يا أمّي، أعرف أنّها السابعة والثلاثين، وأوشكتُ على الانتهاء.

ارتدتْ ملابسها بسرعة لتدركَ الوقت، لملمت شعْرَها دون أن تمشّطه تحت طرحتها لتطالع وجهًا في المرآة غير الذي تركتْه منذ قليل، ملامحُ خشبية بلا

أيّ تعبير أو معنى، ثمّ خرجت لتجد ابنتَها الصّبية جالسةً تنتظرها، احْتضنتها بعمق، وأمسكت وجهَها بين كفّيها مبتسمة وقبّلتها:

- صباح الخير يا حبيبتي.

- تأخّرنا يا أمّي.

قالتْها وقد أفلتت نفسَها من حضنها وجذبتْها إلى الخارج، فانساقت وراءها باستسلام، وهي تسألها:

- تناولتِ فطورِك؟

ضحكتْ سلوى:

- وهل ستتركني جدّتي دون أنْ أُفطر! الحاكم بأمر الله لا يعْصَى له أمر.

ضغطتُ على يدها:

- عيب، جدّتك تسمعك.

قالت سلوى وهي مازالت تجذبُها:

- جدّتي صعدتْ للنوم، الآن أسرعي؛ الباص ينتظرنا.

١٠ أكتوبر ١٩٧٣

لا يعرف أحدٌ على وجه التحديد، هل صرخَتْ عزّة أولى صرخاتها في وجه الحياة في تلك اللّحظة التي انتفضَ فيها جسدُ أبيها وهو يسلمُ روحَه للسّماء إثْرَ تلقّيه رصاصات غادرة أثناء إحدى العمليات في الحرب، أم لا؟

تُجزم جدّتها لأبيها، تيتة سعدية، بأنّ ذلك حدث يقينًا وفْقَ رواية أحد الجنود العائدين من الحرب بعدَ ذلك، ورغم اختلاف الرّوايات وتداخلها إلّا أنّها انتقتْ تلك الرواية وصدّقتها، وآمنت بها لتلطّف قلبَها بحكمة الله في أن تخرج روحُ حَسَن ابنِها ذاتَ الساعة التي يعوّضها الله بتلك المَوْلودة، ورغم أنّ ذلكَ لم يمنعْ حزنها على فقيدها إلّا أنّها تمسّكت بالمولودة كأنّ روح ابنها حلّت فيها، فظلّت تحتضنها، وتتشمّم فيها لتسلي حنينها، وتملأ بها هذا الفراغ الهائل الذي ملأ قلبها لغياب ابنها.

إمتلأ البيتُ بالفرحِ لصراخ المَوْلودة، وتناثرت الدّعوات والتّبريكات كعقود الياسمين المتناثرة، ابتسمت فاطمة الأمّ أخيرًا في وهنٍ ابتسامةً نابعةً من قلبها، ودّت لو كان حَسَن بجوارها هذه المرّة كما وعَدها، ففي المرّتين السابقتين كان غائبًا كذلك؛ مرّة في سفر تجارته، ومرّة في الحرب السّابقة، غيّبته الحربُ هذه المرّة كذلك، كأنّها على وعدٍ دائم بأنْ يعود ليجدَها قد جهّزت له هديته كما تعوّد أن يأتيها بهداياه.

الخال رأفت

في مساءِ موْلد عزّة، سرى همسٌ بين الناسِ أنّ بعض شباب القرية قد أصيبوا في الحرب ولا يعرف أحدٌ هل استُشهِدَ أحدٌ منهم أم لا؟ وجزع النّاس وانطلقَ أهالي مَن تردّدت أسماؤهم إلى المستشفى العسكري بالقاهرة ليطمئنّوا على أبنائهم، كان في مقدّمة مَن سافر رأفت خالُ عزّة الذي سارعَ ليطمئنّ على صديق عمرة وزوج أخته حَسَن.

لم يستطعِ الزّحامُ والضوضاء المعتادة في محطّة القطار ونعيقُ صافرته الطويلة؛ أن يزيحوا ذلك الهاجسَ الذي حَطَّ على قلبه حين ذُكرَ اسم حَسَن من بين أسماء المُصابين، شيء ما يصيبه كالطّعنة في صحراء الحزن الشّاسعة بلونها الأصفر الشاحب، برغم أنّ الشوارع تتزيّن وترقص فرحةً بالانتصار، وأخبارُ العبور وتحطيم خطّ بارليف تملأ الأفواه بالأحاديث، والقلوب بالسعادة، الوجوهُ يعلوها نشوةٌ عارمة وحبورٌ واسع، لأوّل مرّة منذ سنوات طويلة تأتي لمصر فرحةٌ عامّة، لتدخلَ كلّ البيوت بلا استثناء، سعادة امتلكها الناسُ جميعًا في لحظةٍ واحدة، إلّا رأفت؛ فقد أخذَ يُحدّثُ نفسه: لماذا يُصدّقُ الناسُ الأنباء السّعيدةَ بهذه السرعة المخيفة؟ ألم يتّعظوا من كارثة الهزيمة؟ أم أنّ نُدرة الفرح في حياتهم جعلتهم يصدّقون أي كلام قد يجلب لهم السّعادة، ولو كانت مزيفة؟!

أخذَ يتلفّتُ حوله متأملًا الوجوهَ الفَرِحة بعمق، وقد اتّسعت حدقتاه في محاولةٍ لأن يصدّق، خائفًا ترتعش أوصالُه؛ أنْ تكون تلك السعادةُ وهمًا كتلك

التي مرّت بالبلد منذ ستّ سنوات، وقتها كان النّاس يعيشون الفرحةَ نفسها، وعلّقوا نفس الزينات، ورقصوا بالطريقة ذاتها، ووزّعوا الشربات بلوْنه الأحْمر القاني، والبيانات العسكرية تتوالى قويّة صاعدة، وصوتُ الزعيم يهدِرُ كالسيلِ الجارف لا يوقفه شيء، والأغاني الوطنية تملأ النّفوسَ بالقوّة، حتى صدّقَ الناسُ أنّ الجيش يدكّ أبواب تلّ أبيب استعدادًا لأن يلقي بإسرائيل في البحر، الأخبارُ في كلّ الدنيا تتحدّث عن هزيمتنا، إلّا نحن!! كُنّا نتحدّثُ عن الانتصار، واختارَ النّاس تصديق الوهْم، حتى أفاقوا بعد أيّام قليلة من الحرب في صباحٍ كئيبٍ على صوت الانكسار؛ يعلن الهزيمةَ والتنحّي.

ارتعشَ قلبُ رأفت وهو يتساءل: هل كان يدري بنا أحدٌ ونحنُ هائمون في تيه سيناء اللانهائي؟ لا أظنّ أحدًا يستطيع أن يفكّر وهو يطوف راقصًا، يطالب الزعيم بالبقاء بعد خطاب التنحّي.

تسيل دموعُ رأفت منهملةً وهو يسير وسطَ الحشود ليُدركَ القطار، يحاول أن يصرخ، أن يبدّد الصّور التي تتوالى في رأسِه بلا رحمة.

استسلمَ رأفت في مقعده هاربًا لصوت القضبان الرّتيب الذي أثقل جفنيه ورأسَه التي مالت، غاصت وخرجتْ من زمانها إلى زمان آخر كئيب مهْزوم، لتتوالى الصّور والذكريات كأنّها وسواسٌ قهريٌ لعينٌ يأبى أن يفارقه، تلك الأصواتُ العالية في الزّحام المختلطة ببعضها، وصورته في نفس القطار منذ ستّ سنوات مع زملائه في الجيش وهُم متوجّهون إلى الجبهة في سيناء، هو نفسُه كان ممتلئًا بالزّهو ويقينِ الانتصار، بحالةٍ معنويّة عالية تطاول السماء،

هدير الزّعيم يمزّق الأعداء، لكلماتِه سحرٌ لا يُضاهى، يعشقه لحدّ العبادة، على عكس أبيه الذي كان يراه مجرّد بهلوان، يُزيّنُ الأشياءَ ويلوّنها على غير حقيقتها.

الأخبار كلّها تتحدّث عن حرب وشيكةٍ، الجميع يتكلّم عن نزهة الجيش المصري الظافر، كان القطار المتّجه للجبهة مزدحمًا بالجنود، وكتلةٌ هائلةٌ من البشر تشيّع القطار بالهتافات والزّغاريد والأماني، مكبّرات الصّوت تملأ المكان بالأغاني الوطنية.

لم يكنْ يتذكّر وهو في تيه سيناء الممتدّ بلا بصيص أملٍ سوى صوتِ أبيه، الصّوت الوحيد الذي تنبّأ بالهزيمة.

في مكانه المعتاد أمام الدّار يجلس على المصطبة، والشاي الأسود وسيجارته، يتوه بعينيه في حقول الذّرة الممتدّة بلا نهاية، يسحب إلى رئتيه كميّة كثيفة من دخان سيجارته الملفوفة بتأمّل، ثمّ ينفثُ كثافتها كأنّه قطارٌ جامحٌ وهو يرفع رأسَه لأعلى.

التفتَ إلى إبنه وقد أقبلَ عليه ليودّعه، ملأ عينيه الضّيقتين منه طولًا وعرضًا، أعجبه لباسُ الجندية النظيف، وجسد ولده المشوق، ابتسمَ له:

- يا ولدي، ليتني أستطيع أن أمنعك.

رأفت مندهشًا:

- أليس غريبًا أنْ تقول ذلك!! إنّه نداء الوطن، إنّها الحرب، إنّهم الأعداء على أبواب الوطن.

قهقَه أبوه بصوتٍ عالٍ حتى أخذه السّعال في وصلةٍ طويلة وقاسية، وعندما هدأ؛ رأى في عينيه دموعًا لا يعرفُ أهي من السّعال أم من الحزن؟ مسحها بظاهرِ كفّيه ثمّ نظر إليه، ابتسمت تجاعيدُ الزّمن على وجهه الأسمر وهو ينفثُ تنهيدةً كثيفة مع الدخان:

– يا ولدي، نحن ندور في السّاقية نفسها، منذ أكثر من خمسَ عشرة سنة، نتكلّم ونصرخ، مثل الكلب الذي ينبح، ولا يعضّ.

وجَمَ رأفت وتصلّب وجهه من تعبير أبيه القاسي، ولم يجرؤ أن يردّ عليه، فأكمل الأب تنهيدته الكثيفة المختلطة بالدخان:

– نحنُ يا ولدي لا ننتصر إلّا في الأغاني الوطنية والبيانات العسكرية فقط، وفرح البغل، الذي يحتفلون به في الجرائد.

تجرّأ رأفت برصيدِ محبّته للزعيم، وقال:

– الرّجل معذورٌ يا أبي، نحن نتعرّض لمؤامراتٍ كبرى من العالم كلّه، ويجب أن نواصل الكفاحَ ضدّ الاستعمار حتى ننتصر.

نظر أبوه إليه بعمقٍ، وبسخريةٍ مريرة:

– اذهبْ يا ولدي في أمان الله وحفظه، وأدعو الله أن تعود إليّ، وأراك قبل أن أموت.

بثقةٍ مُتناهية:

– سأعود يا أبي.

كان يتذكّر كلماته الأخيرة لأبيه قبل أن يعانقه ويقبّل يديْه ويمضي، ويتساءل، وهو يهيم في الصّحراء.. هل حقًّا سأعود إليك يا أبي؟

فتحَ رأفت عينيه ببطء على ضحكاتِ النّاس وأحاديثهم بأصواتٍ عالية، ثمّ سرعان ما جذبه ثقلُ رأسِه إلى عوالمه ليرى طائراتِ العدو وهي تفاجئ الجميع في السّادسة صباحًا على حين غفلة، تضربُ بكثافة رهيبة بلا توقّف، لم يكن لدينا شيء واضح، اختفى قائد اللواء وعددٌ كبير من الرّتب الكبيرة!! أين ذهبوا؟ الوقت لا يتّسع لانتظار الإجابة، ففي دقائق معدودة كان اللواء بكتائبه وأسلحتِه وذخيرتِه الخفيفة والثقيلة؛ أثرًا بعد عين، وتشتّت الجمع، وفرَّ مَن نجا في كلّ اتّجاه إلى الموت بصوَرٍ أخرى، امتلأت الأرض بالجثث المتناثرة وبقاياها، وتصاعدت النّار في جنون من أرْتالِ السّيارات والدبابات المحترقة، وتصاعد معها صراخُ المصابين.

لم يكنْ أمام رأفت سوى الهرب.. والهرب.. والهرب، فمدَّ ساقيه كالرّيح، ولكن إلى أين؟ ظلّ يعدو مع الجميع، وأزيزُ الطائرات فوق رؤوسهم يقهقهُ ملء فِيهِ بسخريةٍ قاتلة، حتى وجد خندقًا صغيرًا، قفز فيه بلا تردّد في اللحظة التي هوى صاروخ، لتتناثر الجثث، وأصواتُ الصراخ تملأ أذنيْه، انكمشَ في جسده، ووضَعَ يديْه على أذنيه وهو يصرخ باكيًا. انتفض جسدُ رأفت فاستيقظ، التفتَ إليه جاره في المقعد وابتسَمَ له، فأحنى رأسه، ثمّ سرعان ما عاد لعوالمه، فرأى البيوت شاحبةً، تقف في صمتٍ أسود، ترقبُ الفقراء والعرايا والجوْعى وهُم يجْرون في الطرقات يملؤهم الإحساس بهزيمة العدو حتى قبلَ أن تبدأ الحرب، فتياتُ القرية يرقبنَ رأفت وزملاءه في الحواري

الضيّقة، ومِن أسطح المنازل؛ بملابسهم العسكرية، بحياءٍ ظاهري وعيون مندهشة وابتساماتٍ ورغبات دفينة، العجائز بلا حياءٍ يجلسنَ كالعادة أمام بيوت الطّين حاسراتِ الشّعْر والصّدور المترهّلة والأقدام المتشقّقة ينظرنَ ويشيّعنهم بالدّعوات، وكلّ واحدة منهنّ تتمنّى لابنتها رجلًا منهم، الأطفالُ في ثيابهم المهلهلة كحقولٍ شراقي، يملأ وجوههم الذبابُ وأجسادهم القذارة والمرض، يشيعونَهم بالتّصفيق والصراخ.

الآن، أصبح وحدَه هائمًا في ليل الصحراء، وقُبيل النهار يحفرُ لنفسه خندقًا أو قبرًا- لا فرْق- يكمن فيه، ثمّ يعاود السّير ليلًا، حتى استيقظَ ذات صباح على أصواتِ عربات مدرّعة ومجنزرات كثيرة بجوار خندقِه المتخفّي، تقلّص في خندقه، حبس أنفاسه، وأغمض عينيه، توقّفت القافلة بالقرب منه، تناهى إلى سمعه أصواتٌ بشرية لم يعرفْ كيف يُميّزها، وصراخ عسكري يُصدر أوامر، ببطء حذرٍ تجرّأ ورفع رأسه ليرى، ويا لَهوْل ما رأى؛ طابور طويل من الجنود بملابسهم الداخلية ينامون على بطونهم يستعدّون للقتل تحت جنازير الدّبابات، مازال يصرخُ في رأسه صوتُ الجماجم تطقطق وتتهشّم، وتناثر الأشلاء، تحت حشرجة الجنازير وهي تسحقُهم ببرود.

عندما أفاق من إغمائه، كان النّهار قد جرَّ ذيولَ الخيبة استعدادًا للمغيب، وتضرّجت السماء بلوْنها الأحمر القاني كأنّ أرواح الجنود قد صعدتْ إليها مضرجةً بدمائهم، وسكون الموت قد غلّفَ المكان إلّا من أصوات عواءِ الذّئاب التي بدأت تعْلو وتقترب، خرج رأفت من خندقِه ووقف ينظرُ إلى بقايا وطنِه التي دُهست وتفتّت وتناثرت، ثمّ ولّى ظهره لطابور الموتِ وواصل سيره.

الشّهيد حسن سعد النّشار..

قرأ اسمَ زوج أخته حَسَن عشراتِ المرّات، تتحرّك شفتاه ببطءٍ وهمْس مسموع، حَسَن سعد النّشار، يحاول أن يجدَ شيئًا خطأً، ولكنّه هوَ هُوَ، نفسُ الحروف، بكى رأفت بكاءً مريرًا، أشفق النّاس مِن حوله فأخذوا يواسونه، ويصبّروه ويذكّروه بأجْرِ الشّهيد، وأنّ ذلك أدْعى للفخر لا البُكاء، دموعُ رأفت كانت تتدفّق كلّما تذكّرَ أخته ووليدتَها الجديدة، وكيف سيبلغ تيتة سعدية الخبرَ، كيف تختلط فرحتُها بعزّة بحُزْنها على ولدِها!! يا الله، مهمّة قاسية.

في قطارِ العودة كان منتبهًا جدًّا، واعيًا للحْظة الانتصار، برغم خبر اسْتشهاد حَسَن زوج أخته الذي يمثّل عبئًا كبيرًا عليه.

التفتَ إلى نافذة القطار، وغاصَ في قلبه ليجدَ وسط هذا الخبر المؤلم ثمّة فرحًا يريدُ أن يطلّ بعينيه ويحضنه، فقد تأكّد خبرُ العبور، وكلّ البيانات العسكرية التي تردّدت منذ الصباح كانت إذًا صادقة، أخيرًا فعَلَها الرجال، وحقَّ لهم أنْ يفعلوها، ودَّ لو كانَ معهم، لينالَ ثأرَهُ بيديه، وثأر كلّ الجنود الذين ذُبحوا أسرى، مظلومين مقْهورين، لولا الإصابة التي لحقت قدمَه فتركَتْ عرجًا فيها منعتْهُ من الاستمرار في الجيش.

في الدّار، اختلطَ الفرح بالحزن، فصرخت تيتة سعدية حين زُفَّ إليها الخبر، احتضنت المولودة وأطلقتْ زغرودة بصوتِ النّواح، وانطلق عويلُ النساء وزغاريدهم يشاركنَها بصدقٍ جارف.

وهكذا تَشاركَ الحزنُ والفرحُ في الأيّامِ التي تلت مولدَ عزّة، حتى حلَّ يومها السابع، فاجتمعت النّسوة، وقد طَبخت تيتة سعدية أرزًا باللّبن، ووزّعته في أطباقٍ صغيرة كاحتفال محدودٍ بسبوع عزّة.

فاطمة أمّ عزّة

تلقّت فاطمةُ خبرَ وفاة زوجها بصدمةٍ هائلةٍ أفقدتها وعيَها في الحال، أسرع رأفت باستدعاء الطّبيب لمتابعة حالتها، والسّيطرة على النزيف الذي كاد يُهلكُها، وتكالبت عليها آلامُ حمّى النفاس بأحزانِ الفقد الذي لم تستطعْ أن تستوعبه، فظنّت أنّها غارقة في كابوسٍ مُريع، فغابت عن الوعي عدّة مرّات، وأظلم رأسُها واختلطتْ عليها الأصواتُ فلم تعدْ تُميّز شيئًا، هل هي في فرح أمْ مأتم، هل تتلقّى التّهاني أمْ تعزية! تفيق قليلًا فتجد الجميع متحلّقًا حولها ما بين ضحكات ودموع فتغرق في غيبوبتها مرّةً أخرى.

مرّت الأيام وهدأت دوّامة التناقضات، وعادت أمواجُ بحر الحياة لهدوئها الرّتيب، وذهبت نشوة الفرح بالانتصار، مخلفةً وراءها الشّجن العام الذي لا يبرحُ الناس في مصر، وسكون عام يملأ البيت والحياة.

تجاوزتْ فاطمة معاناةَ فترة النّفاس بمرارتها، وبدأت تخرج من سريرها رويدًا رويدًا لتستعيد نشاطَها في الحياة، خارج الدار شعرتْ كأنّها خرجت مِن شرنقة الموتِ لدبيب الحياة الجديدة والتي لم تخطر لها على بال.

أسندتْ فاطمة ظهرَها للجمّيزة العجوز التي تسكن أمامَ دارهم منذ عقود طويلة، وتركت وجهها الشّاحبَ المرهق الذي مازالت صفرةُ المرض والحزن

تعلوه إلى نسمات العصر الرفيقة، وأغمضتْ عينيها لتستحضر زوجَها حَسَن قائمًا بين يديها بطولِه الفارع، وجسدِه القوي المتماسك، وهي تضمّه بعُمق قبل سفرِه الأخير للجبهة، وهو يضاحكها كعادته قائلًا لها المثلَ السائر على ألسنة الناس:

- عُمْر الشّقي بقي، لا تخافي سأعود كما كلّ مرّة.

تذكّرت عشاءهما الأخير معًا ليلةَ سفره، وهو يحدّثها بكلام جادّ لم تعهدْه فيه من قبل، فقد الْتمعت عيناه وهو يقول:

- يأتينا في الوحدة منذ فترةٍ مشايخُ من الأزهر الشريف، يطوفون على الوحدات والكتائب، يحدّثوننا عن الجهاد، وأنّ النّصر من عند الله، لا من عندِ أحدٍ من البشر مهما بلغت قوّتُه وجبروته، الجميلُ في الأمر أنّني بدأت أنتظمُ في الصلاة.

رجلُها وحبيبُها وكلّ حياتها، تزوّجها قبل عشر سنواتٍ، كان صديقَ أخيها رأفت منذ صغرهما، وأقربَ إنسانٍ له، تصاحبا يومًا بيوم من سنوات الطفولة البكْر، وتزاملَا في الدراسة الأولى، وحتّى الكلية التي التحقَا بها، نما إدراكُها على وجودِه الطبيعي والدّائم مع رأفت منذ تفتّحت عيناها على الحياة، وشيء ما في فطرتها يجذبُها إليه، بِطَلّته الوسيمة وجسده القوي المتناسق وعيونه الكحيلة المبتسمة دائمًا حتّى وهو صامت، فتى أحلامِها الذي يزورها كلّ ليلة محمّلًا بالحبّ، ظلّ هذا الإحساسُ يداعبها وينْمو مع مرور الأيّام، كشجرةِ لبلابٍ، بدأت برعمةً صغيرة لا يأبه لها أحدٌ، لكنّها نمَتْ مع الأيام

وتسلّقت على جدار الرّوح، والتفّت حول قلبها وأحاطته وغمرته بأوراقِها الخضراء، حتى صار مذاقُ الفرح دائمًا مرتبطًا بحضورهِ، وسعادة كبيرة تغمرها حين تسمعُ صوته ينادي على أخيها رأفت.

لم تدركِ المعنى الحقيقي لهذا الشّعور الغامر الذي نَبتَ في مشاعرها، إلّا حين وخزها غيابُه لأسبوعين دفعةً واحدةً، فقد اكتشفتْ أنّ قلبها تعلّق به فوق ما تحتمل، وارتبطت سعادتها الصباحية بصوتِه الذي غاب وهو ينادي على أخيها، ومرّت الأيّام وهي تستيقظ كلّ يوم تنتظر صوته ولا يأتي، فقد سافر حَسَن مع أبيه لأوّل مرّةٍ ليساعده في تجارته، بعد أنْ أصرّ أخوه الأكبر إبراهيم على السّفر للبنان، فقد أغواه أصدقاؤه وزيّنوا له السّفر والعملَ هناك، فاضطرّ أبوه لجذب حَسَن ابنه الثاني للعمل معه وهو لم يُكمل بعدُ عامَه العشرين، والذي أصبح يجمع بين العمل والدراسة.

كان أقصى قدرةٍ لفاطمة على احتمال غياب حَسَن يومين، أو ثلاثة، في دراسته بكلية الحقوق مع أخيها، أمّا أن يغيبَ كلّ هذه المدّة؛ فكان فوقَ احتمالها، فكانت تسهرُ الليالي الطويلة يجافيها النوم، ويصاحبُها الألم والدّموع حتى تشعر أنّها ستختنق وتوشكُ على الموت، وفي النهار تروح وتجيء صامتةً شاردة، ثمّ تبكي فجأةً بلا سببٍ ظاهر لِمَن حولها.

أمّا يوم عودته، فلنْ تنساه أبدًا، ذلك الصّباح الذي جاء ومعه صوتُ حَسَن بعد غيابٍ كأنّه الدهر، حتى ظنّت أنّه نادى عليها باسْمها هي لا رأفت، شعرتْ بوخزةٍ مؤلمة في قلبها من شدّة الخفقة التي خفقها لصوتِه

الجميل المفاجئ، قفزَ من صدرها كطائر مفزوع ضربَ الهواء بجناحية بقوّة، وارتجّ جسدها كلّه شوقًا ولهفة، تلك اللحظة التي شعرتْ فيها أنّها أنثى، ينادي عليها رجلها الذي كتبَه لها القدرُ في اللّوح المحفوظ، ودّت لو ارتمتْ في حضنه وضمّها إلى صدره وبكتْ تشكو إليه لوْعتَها في غيابه، أخيرًا جاء الفرح، أتت السّعادة التي ارْتبطت بحضوره، والتي تفتّحت مشاعرها عليها.

أهداها حَسَن حفنةً كبيرةً من العسليةِ التي تحبّها، ومال على الطّفلةِ فيها، وقال لها إنّه اشترى حلوى كثيرة من طنطا، ولكنّه اختصّها وحدَها بالعسلية، لم تسعْها الدّنيا وهي ترى كيف يمكن لرجل أن يمنحها هكذا فيضانًا متدفّقًا من السّعادة، اتّسعت ابتسامتُها ودون حتى أن تنظر إليه خطفتِ العسلية من يديه واحتضنتْها وهربت لغرفتها، وضحكاتُ حسن ورأفت تتبعُها.

في مساءِ ذلك اليوم أصابها مغصٌ حادّ، أسرعت إلى أمّها خائفة لتكتشف أنّ الطفلة خرجت من جسدِها بغيْر رجعة، وباتت تلك الليلة أنثى كاملة، ضمّتها أمّها برضا وفرح بادٍ، وقد أدمعت عيناها، ثمّ أخذتْها لتحمّمها وتمسح دماءها، وتبارك لها، وتدعو أنْ يرزقها الله بابنِ الحلال، ثمّ توصيها بكلماتٍ ربّما لم تستطعْ فاطمة أن تستسيغها في ذلك الوقت، ولكنّها أومأت لأمّها برأسها في طاعةٍ وخضوع:

- مِن الآن انْتبهي لروحك، حافظي على نفسك يا فاطمة، لا يلمسك رجلٌ أبدًا مهْما كان قريبًا منّا، ولا يختلي بك، الآن لمْ تعودي طفلة، تفهمين؟!

وتومئ فاطمةُ بالموافقة، ودموعُها تنزل بغزارةٍ من شدّة الألم، وتعاود أمّها تكرارَ كلامها:

- فطّوم، صرتِ فتاة كبيرة، ممنوع اللّعب مع الصبيان، انْتبهي لنفسك جيدًا.

تمتزجُ السّعادة بالألم مهْما كانت شدّته مرّتين في حياة المرأة، ولا تنسى هذا الإحساس أبدًا؛ مرّة حين تودّع طفولتها، والأخرى وهي تصرخ من شدّة الألم لتستقبل طفلها الأوّل.

برغم المغصِ الحادّ في بطنها تغمرها سعادةٌ خفيّة، كالأرض الخصبة التي تتهيّأ للحرث والبذر.

أوتْ إلى فراشها تقبضُ على فرحتها، تتساءل هل ما حدث لها مرتبطٌ بعودة حَسَن من السفر؟ هل استجابَ جسدُها له كما استجاب قلبها؟ وأجابها حَسَن بعد عدّة أيّام حين تقدّم لخطبتها.

لم تهنأ فاطمة بحَسَن طويلًا كالنّساء اللاتي يجاورن أزواجهنّ سنواتِ العمر، فقد اعتاد العمل مع أبيه، والسّفر الدّائم لتجارة المواشي والجِمال، تزوّجها بعد سنتين من خطبتها مع استمراره في العمل مع أبيه والدّراسة، ثمّ اختطفته الجنديّة بعد أنْ أنهى دراسته، ولم تفلح محاولاتُ أبيه لتأجيل دخوله الجيش أكثرَ من ذلك في صيفِ العام ١٩٦٦ حتى جاءت الحربُ وانتهت، وصدر قرارٌ ببقاء الجنود في الجيش إلّا مَن أصيب أو أسَرَه العدوّ، سنوات ما بين الحرْبين لم تكنْ تراه إلّا في الإجازات القصيرة المنتظمة.

وهكذا لم تحظَ فاطمة بلقائه والجلوسِ معه إلّا فترات بينيّة بين سفرٍ وسفر، ربّما كان لهذا الغياب الدّائم أثرٌ في تعلّقها به، واستمرار بريق حضوره وتذوّقها الدّائم لمتعة الاشتياق إليه، ولذّة لقاءاتهما التي لم يُمِتْها الاعتياد، والفرح المتجدّد لرؤيته.

تبتسمُ فاطمة وهي تسند رأسَها على الجمّيزة، وهي تتذكّر أنّه ظلّ يفاجئها دائمًا بالسّعادة بلا توقّف، أيّامها القليلة معه، كريمًا ودودًا، يغرقها بالهدايا والحنان، عاشَ معها كالنّسمة اللطيفة التي تفاجئ صهدَ الحياة فتبردُها، تتنفّسها بعمق واستمتاع قبل أن ترحل كما جاءت مسرعة، كان قلبها موعودًا بها دائمًا في أيّ وقتٍ من الليل أو النهار، فيأتي لها بالعسليّة المحبّبة بكمّياتٍ وافرةٍ، ثمّ لا يصبر عليها، فيحملُها بين ذراعيه المفتولتيْن ويدورُ بها، والسعادةُ تملؤه قبل أن يلتهمَها، لا ينتظر أن يتحمّم من أثر السفر، أو يتركها لتتهيّأ له، ربّما كانت تجلس أمام الفرنِ بغباره، أو كانت غارقة في بحْرِ النّوم، لا شيء يمنعُه من الارتواء من حبّها، ثمّ بعد وصلة نوم عميقة في حضنها يستسلمُ لها فتحمّمه بيديها وتحكّ جسدَه كاملًا بلوفَةٍ كبيرةٍ خشنة من شَعْر رأسه وحتى أصابع قدميْه، فيقضيان وقتًا طويلًا ملتصقيْن دافئين قبل أن يخرجَ للقاءِ أهله وأصدقائه.

اتّسعت ابتسامتُها وهي تتذكّر مرّة حين وصلَ إليها من سفرِه قبل مِدفع إفطار رمضان بدقائق، وحينما رأتْ في عينيه تلك اللّهفة المجنونة، جرتْ من أمامه مخافةَ أن يضيع صيامَها، كان يجري وراءها وهو يضحكُ ملء فِيهِ حتى غلبه الضّحك فوقعَ على الأرض، فعادت إليه ضاحكة فجذبَها بحنان

وحضَنَها، وانطلق مدفعُ الإفطار، فقبّلها قبلةً طويلة، ثمّ رفع رأسه للسّماء وقال بسعادةٍ هانئةٍ: اللهم لك صمت وعلى رزْقك أفطرت، فتقبّل صيامي يا ربّ، ثمّ الْتهم فطورَه كلّه دفعةً واحدة حتى انتشى، فرفع رأسَه للسّماء ثانيةً وقد ارتوى حتى الثّمالة قائلًا برضًا وسعادة: ابْتلّت العروق، وذهبَ الظّمأ، وثَبُتَ الأجرُ إن شاءَ الله.

التفتتْ فاطمة على صوتِ عماد وأسماء يأتياها مُسْرعين، ففتحتْ ذراعيها وضمّتهما بوهن، واسْتسلمت لدموعِ عينيها، ثمّ أتى رأفت مبتسمًا وهو يحمل عزّة، ووضعها بين يديها، نظرت إليها كأنّما تراها لأوّل مرّة، ضمّتها وقبّلتها وبداخلِها مشاعرُ متناقضة تتصارع، الأمّ بداخلها تحضنها حمايةً لها من فاطمة الزّوجة التي شعرت بأنّ المولودة هديةُ القدر لها عِوضًا عن زوجها، ولكنّها تريد حَسَن لا عزّة، فعندها ولدٌ وبنت، وليس لديها رجل.

فاطمة تصارعُ بداخلها انتظارَ الفرح بعودة حَسَن في مقابل الإيمان بمرارة الحقيقة، الجميع يريدُها أن تستسلمَ لغياب زوجها النّهائي، وهي لا تستطيع، شيء ما بداخلها يقول إنّه سيعود، وإنَّ عليها أنْ تستعدّ لتلقّي حفنة العسلية الكبيرة.

كلّما نظرت لوجْهِ عزّة كأنّها تطالع قهرَ الزّمن لها وانكسارَ قلبها، ولذلك تقبّلت بإحاطةِ رأفت لعزّة ورعايتِه لها، ومحبّة تيتة سعدية الغامرة، أمّا رضاعتها، فجاءت رغمًا عنها لمرضها، فالتقطتها جارتُهم أمّ أحمد لترضعَها مع وليدتِها أشجان، التي صارت بعدَ ذلك صديقتها المقرّبة في رحلة الحياة.

عزّة

لرؤيةِ الحياة من فوق كتفِ خالها رأفت إحساسٌ ملَكِيّ خاصّ، تعوّدت عزّة منذ أنْ بدأت تسند ظهرَها وتستطيع الجلوسَ أنْ ترى الحياة من عليائِها، يحملها خالُها على كتفِه أينما ذهب، وهكذا ترى أقرانَها مِن هذا البرج العاجي، كان وجهُ رأفت هو أكثرَ وجهٍ مألوف ومحبّبٍ لديها، ووجودُه معناه أنّه سيأخذها في نزهة علويّة ومزيدٍ من الحلوى والحبّ، كان الوحيد الذي يمكنه إسكاتها لو بكتْ بكاءها المتواصل الذي لا يفلحُ أيّ أحدٍ في إيقافه، وهو الذي يستطيع أن يطفئ غضبها، والويلُ إذا غضبتْ على أحد، كان- كذلك- الوحيد الذي يستطيع بتؤدةٍ وصبرٍ إقناع أحدٍ من الأولاد بالتّنازل عن شيء رغبتْ في أخذه، حتى لو بذل في مقابل ذلك أضعافَ قيمة هذا الشيء الذي تريده.

تمدّد سلطانُها على الجميع حتى تعوّدوا عليه، فهي ابنةُ الشّهيد، وهي اليتيمة التي لم ترَ أباها، وتعوّدت أمّها على عنادها وأنانيتها، وسرعة غضبها على أتفَه الأسباب، كان هذا لا يمنعُها من ضربها بقسوةٍ في بعض أوقات عنادها وتماديها في التسلط، وكانت عزّة تعرف أنّ بحضور خالها ستنتصرُ في النهاية.

وهكذا دخلت الحضانة محمولةً على كتفِ خالها جيئة وذهابًا، حتى أنّها كانت تشتهي أن تسير على قدميْها كسائر الأطفال فيرْفض، حتى ثقلت عليه فأنزلها مرغمًا إلى الأرض، ولكنّ رأسها ظلّت هناك.

لم تكنْ تأبه لأحدٍ في الحياة، ولا تعطي لخاطره شيئًا سوى لخالِها وأختِها في الرّضاعة أشجان، هُما فقط مَن كانت تهتمّ لهمَا، خالها هو سندُها وحاميها، وأشجان تفتّحت عيناها في الحياة على وجْهها، فلم تألفْ غيرَه، وتعوّدت على السّير في الحياة بجوارها.

إبراهيم عمّ عزّة

كانت شهرةُ عمّها إبراهيم في العائلة مرتبطةً بسفره الطّويل للبنان، وكثرةِ الحكايات المتناثرة المرويّة عنه، أتى بعد مولدِ عزّة بأيام ليشارك أباه في عزاء حَسَن، ومكث أيّامًا قليلة، ثمّ عاد وقد تجاوزتِ الرّابعةَ من عمرها في مرض والدِه الأخير الذي تُوفّيَ بعد أيام من وصوله، تحاول أن تتبيّن ملامحه، فلا تذكر إلّا شعرَه الطويل وسالفتيْه التي تغطّيان جزءًا كبيرًا من خدّيه، وشاربَه الكثّ الذي كانت تشعرُ به ينغرس في خدّيها وهو يحملها ويقبّلها، وقميصه البرتقالي الضيق المفتوح الصّدر، والسلسلة الذهبية الغليظة التي تتدلّى من رقبته، أمّا ما لا تنساه أبدًا صندوقُ التّفاح الأحمر الذي أتى به من لبنان ومذاقُه اللذيذ عندما تجمّعت العائلة، وقام بتوزيع التّفاح على الجميع واحدةً واحدةً بيده.

وكذلك تتذكّر جيدًا رجاءَ تيتة سعدية له بالبقاءِ معها عندما حان موعدُ عودته للبنان، وهو يُقبّل يديْها ويحتضنها ويعدُها بالحضور القريب، تحلّقت العائلة حولها يطيّبون خاطرها، وقفزت عزّة لحجْرها وضمّتها بقوّة، وأخذت تقبّلها بحنان، وتقول لها: لا تحْزني يا تيتة؛ سأجلسُ معك، ولن أتركَك أبدًا.

بطريقةٍ جعلتْ تيتة تجهشُ بالبكاء، ثمّ رفعت رأسها ونظرت للجميع بحيرة وأسى وقالت: الأمرُ لكَ يا صاحبَ الأمر، صدق مَن قال: قلبي على ولدي انْفطر، وقلب ولدي عليّ حجر! لقد تعوّد على البعد حتى أصبح قلبُه قاسيًا؛ فلا يرقّ لأمّه، أظنني لن أراه مرّة أخرى، ساعتها سيبكي ويقول يا ليتني!

تولّت فاطمة بعد وفاة الأبِ قراءةَ خطابات إبراهيم لأمّه، وكذلك الردّ عليها، وكانت عزّة وأخواها يعجبهم التحلّق حول تيتة سعدية وهي تمْلي كلماتِها على فاطمة، وفي كلّ مرّة تردّد نفس الكلمات عن اشْتياقها لوجودِه بجانبها، وخشية أن تموت دون أن تراه، وتذكّره بوعوده لها بالعودة والاسْتقرار بجوارها، ثمّ يصرُّ الأولاد على أن تكتب أسماءهم مع تبليغ سلامهم.

كان انتظار خطابِ عمّهم حدثًا جديدًا يُدخل البهجةَ على البيت، ويعجبهم ألوانُ الأوراق المعطّرة والورود المرسومة عليها، وأسماؤهم التي يحرص عمّهم على أنْ يكتبها لهم بخطوطٍ جميلة، مازال يردّد نفسَ الكلمات، فيعدها بالمجيء في أقربِ وقت، فقط هو يلملم أموالَه من التجّار، ويجهّز حاله للعودة القريبة، ما كان يدهشهم جدًّا تلك الصور الملوّنة لعمّهم التي كان يرسلها ضمْن خطاباته، فكانوا يتطلّعون إلى الناس والمباني والبحْر الملوّنة بشغف، أمّا تيتة سعدية فكانت تمسكُ صورَ ابنها فتقبّلها، وتضعها على صدرها، وتبكي.

وتحقّق ما قالته تيتة سعدية بعد أربع سنواتٍ كاملة، عاد مسرعًا عندما عرف أنّها مريضة، ولكنّه وصل متأخّرًا بيومٍ واحدٍ بعد جنازتها.

كانت ملامحُه بالنسبة لعزّة هذه المرّة واضحة، فلم يعدْ شعره طويلًا كما رأته سابقًا، وقد حلق كاملَ لحيته وشاربَه فأصبح وجهُه ناعمًا، وترك ملابسه الضّيقة الفاقعة الألوان، والتي كانت مثارَ أحاديث الناس في ذلك الوقت.

قبل عودتِه للبنان زارهم في البيت، لم يكنْ معه هذه المَرّة حلوى كعادته، ولكنْ جاء مع حزنٌ مرسوم على وجهه، لم تستطع ابتسامةُ اللقاء بأولاد أخيه أنْ تداريه، جلس إبراهيم في وسطهم منكسرًا حزينًا، وفجأة تجمّعت كلّ الدموع التي حبسها أمام الناس وأفرغها أمام فاطمة وأولادها، حتى أنّها بكتْ هي وأسماء لبكائه، بينما وقف عمادُ صامتًا حزينًا، تتردّد الدّموع في عينيه، أمّا عزّة فلم ترقّ لبكائه أو تتجاوبْ مع دموعه، بل شعرتْ بقدرٍ غريب من التشفّي والشماتة فيه، ورأتْ أنّ عدم إدراكه لتيتة سعدية قبل موتها جزاءٌ طبيعي نتيجة لعدم الاستجابة لتوسّلاتها بالعودة إليها والبقاء معها.

ليلتَها، أصرّت فاطمة على أن يبقى معهم للعشاء تطييبًا لخاطره، وبسرعةٍ قدّمت له عصير ليمون حتى تُجهّز الطعام، وجلس إليه عمادُ وأسماء يسألانه عن لبنان، بينما لحقت عزّة بأمّها في المطبخ.

في العام ١٩٨١، والذي توفّيت فيه تيتة سعدية، كان إبراهيم قد تجاوز الأربعين بسنتين، لا أحد يعرفُ عن حياته في لبنان الشيء الكثير، قالوا إنّه قد تزوّج أكثر من مرّة، ولكنّ اليقين الآن أنّه بلا زوجةٍ ولا أولاد؛ حسب ماقال لهم على مائدة العَشاء، وأنّه سيعود قريبًا إلى مصر ليستقرّ بها لأنّ الأحوال في المناطق التي يعملُ فيها قد طالتها الحربُ الأهلية وباتت مضطربةً ومخيفةً لكلّ مَن يعيش هناك.

اختفتْ أخبار إبراهيم بعدَ سفره لعدّة أشهر، فيما استمرّت الحرب الأهلية في لبنان تتصدّر واجهاتِ الأخبار مع صورٍ فظيعة عن الدّمار والقتلى، وظلّت العائلة كلّها في ترقّب وقلق حتى أتتْ رسالةٌ إلى أخيه الأصغر لتطمئنَ العائلة بشكلٍ عام على أحواله، ثمّ تَلَتْها خطاباتٌ لفاطمة والأولاد على فتراتٍ متباعدةٍ أرسلها باسْم عماد، الذي تولّى الردّ عليه بعد ذلك.

وفي صباح أحد الأيّام، وبينما الأولاد في المدرسة، تسلّمت فاطمة رسالةً من إبراهيم، همّت بوضْعها على الطاولة حتى يأتي عماد، لفتَ انتباهَها اسمُها المكتوب بخطّه الجميل على المظْروف، خفق قلبُها ربّما دهشةً أو قلقًا أو شيئًا آخر لا تدريه، أمسكت المظروفَ وعاودت القراءة.. خاصّ ليد/ فاطمة، جلست باسترخاءٍ في سريرها وفتحت الخطاب.

عزيزتي فاطمة..

(لا تتصوّري مدى السّعادة التي شعرت بها حين كُنّا نتناول العَشاء في زيارتي الأخيرة لمصر، اختليتُ وحيدًا بعدها، وقد شعرتُ بندمٍ كبير على سنوات عمري التي ضاعت، وأنّ الحياة الحقيقية تكمنُ عندكم.

سعيتُ وراء وهْم السّعادة المسمّى بالمال حتى حصلت على أكثر ممّا حلمت به، ولكنّه لم يسدّ سوى احتياجاتي المادية فقط، لم أفهمْ أو أدركْ هذا المعنى في حياتي كلّها إلّا بعد أن جمعتني بكم ليلةٌ من أجمل ليالي العمر، لأوّل مرّة أعيش هذا الكمّ من الرّاحة، ونحن نتحلّق جميعًا كعائلة حول المائدةِ نتناول الطّعام ونتجاذبُ أطراف الحديث باهتمامٍ ودفء.

فكّرتُ كثيرًا- بعد سفري- فيك وفي الأولاد، وقلتُ لو تقبلين أنْ نكمل حياتنا معًا، فأولاد أخي قطعةٌ منّي، وأنا وأنت، ربّما نحتاج إلى قدر كبير من الحبّ والوَنَس في حياتنا المقبلة، فإنْ وافقت أعدُك أنْ أكون لك بلسمًا وشفاءً من كلّ همّ وضيق، وإن رفضتِ فستظلّين أختي التي أرعاها هي وأولاد أخي ما حييت).

ملحوظة:

كنتُ سأتحدّث إلى رأفت بطلبي، ولكنّي آثرت أنْ أستأذنك أولًا، فأرجو أن تفكّري جيدًا، وألّا تهْملي الردّ عليّ سواء قبلتِ أو رفضت، سأنتظر رسالتك بلهفةٍ شديدة).

حالةٌ من الصدمة أصابتِ الحياة بداخل فاطمة، فلم تعدْ تسمع شيئًا حولها، رسالة إبراهيم كانت مفاجأةً كبيرة لم تخطرْ لها على بالٍ لدرجةِ أنّ عقلها توقّف عن التفكير.

وضعتِ الرسالة ذاتَ الألوان المبهجة بجوارها، وأسندت رأسَها على وسادتها، وأغمضت عينيها في محاولةٍ لتلمّس دليلٍ في طريق متشعّبٍ تاهت فيه سنواتُ عمرها التي تلَتْ وفاةَ حَسَن، ثمّ فتحتْ عينيها وقامت فجأة، وأعادت وضْعَ الرّسالة في المظروف وخبّأتها، وذهبت تمارس حياتها كأنّ شيئًا لم يكن، خرجتْ من الدار، وتسوّقت وعرجتْ على جارةٍ لهم، ثمّ عادت لتُعدّ الغداءَ لحين عودةِ الأولاد من المدرسة، ثمّ شغلت نفسَها بهم واحتياجاتهم، حتى حلّ المساءُ فجلست أمام المسلسل اليومي لتتابعه.

وفي الليل، تقلّبت في الفراش كثيرًا، تطارد النوم بكلّ تعبها وإرهاقها في الحياة فلم تستطعْ، شيء ما حاصرَها من بعيدٍ حتى أتى السّهر، وانفرد بها وحدَها وأحْكمَ الحصارَ حولها.

أخيرًا اضطرّت للجلوس في سريرها، وتناولتِ الرسالةَ وعاودت قراءتها مرّة ومرّات، وفي كلّ مرّة كانت تشعر أنّ أقفال أبوابِها التي يعلوها الصدأ والتّرابُ تُفتحٍ، الواحد تلو الآخر، تنهّدت كثيرًا، حتى غلبتها عيناها، وترقرقتْ خيوطُ الدموع على خدّيها.

فتحتْ رسالة إبرهيم أبوابَها المغلقة التي لم تتعمّد أن تغلقَها، ولكن تطوّع كلّ مَن حولها بإغلاقها، حتى وجدتْ نفسها مثل النّبي يوسف، وقد حوصر وغُلّقتُ الأبواب مِن حوله، فأتى إبراهيم، ففتحَها برسالته كلّها دفعة واحدة.

رفعتْ رأسها إلى صورة حَسَن الكبيرة المعلّقة بصدر الغرفة أمام سريرها، وجهُه الجميل يملأ الإطارَ الذّهبيّ بعينيْه المبتسمتيْن، لم تتصوّر بعد كلّ السّعادة التي عاشتها معه أن يتركَ لها كلّ هذا الميراث الكبير من الحزن، وتلك المساحات الخاطفة من الذكريات الجميلة التي باتت تقتاتُ عليها، الحبّ الذي كان بينهما أكبرُ بكثير من كلّ تصوّراتها، لم تشعرْ بقيمته وحجمه إلّا بعد غيابه الأخير في الحربً، الابتسامة المعلّقة على شفتيه منذ سنواتٍ كانت تراها بمعانٍ مختلفة على حسبِ حالتها المزاجية؛ فمرّة تراها بحيرة شوقٍ، ومرّة عتاب حبيبٍ، ومرّة نداءً ولهفة، اليوم كان هناك معنى في ابتسامته شعرتْ به للمرّة الأولى؛ ابتسامة رضا.

تقدّم إليها الكثيرُ للزواج منها، وكان أكثر ما يُضايقها كامرأةٍ أن يتحدّث أحدٌ عنها، أو أن يقرّر لها طريقَها في الحياة، حتى لو كان نفس الطريق الذي اختارته.

تتذكّر المرارة التي عاشتها حين رفضتْ تيتة سعدية رجلًا تقدّم للزواج منها دون أن تسألها أو تستشيرها، كانت سترفضُه بالتّأكيد لأنّها لم تكنْ لتتخيّل أنّ رجلًا في حياتها غير حَسَن، كانت تشعرُ أنَّ كلّ رجلٍ حرامٌ عليها دونَه، تريد فقط أنْ تقول لا، أن تشعر أنّ بإرادتها هي وحبّها لحَسَنٍ سترفض، ولكنْ لا أحد يثقُ في أرملة.

في مساء ذلك اليوم الذي عرفت مِن جارتها بشأن العريس، ذهبت إلى أمّها غاضبة وحكَتْ لها ولرأفت ما حدث، ففاجأتها أمّها - وبجفاء- بأسوأ سؤالٍ يمكن أن يسأله أحدٌ لأرملةٍ شابّة، والأسوأ أنْ يكون من امرأةٍ مثلها:

- لماذا تريدين الزّواج؟! ما الذي ينقصك؟! لقد أخذت نصيبَك من الدّنيا، يكفيك همّ أولادك، ماذا سيقول الناسُ عنك؟! حافظي على سمعتك وسمعةِ المرحوم.

بُهتتْ فاطمة، ولم تدرِ كيف تردّ! إلّا أنّ رأفت بطيبتِه المعهودة جذبَها من أمام أمّهما، وطيّب خاطرَها.

أدركتْ ساعتَها أنّ الموت هو الحقيقةُ الوحيدة المهيْمنة والمحيطة بها في الحياة، عرفت أنّهُ متسلّل إلى الجميع بصورٍ كثيرة، فالمرءُ يمكن أن يُولَد ويموت في اليوم عدّة مرّات، أو ميتًا وهو يسير بينَ الأحياء، أو غاب وتلاشى في التّراب وهو حيّ يَعيشُ في كلّ تفاصيلِ الحياة.

اختارتْ أن تَموتَ في كلّ لحظة تحياها، بلا تطلّعات ولا رغبات، اتّشحت بالسّواد فلم تخلعه، وتعلّقت على عينيها نظرة حيادية بلا معنى تنظر بها للحياة، بالتّأكيد ذلك سيرضي الجميع، وهي ستُرضيهم لأنّ حَسَن مازال يملأ حياتها، ولا تفكّر في أن تكون لرجلٍ آخر، ولأنّها أضعف بكثير من أن تواجههم.

يوم توفّيت أمّها، شعرت- وهي في قمّةِ الحزنِ والفقد- أنّ نسمة باردة تتسلّل إلى زنزانة جسدها، اقشعرّ بدنُها وارتعد رعدةً خفيفة، شعورٌ عارم بالخفّة كأنَّ ثِقلًا ما قد انْزاح عنها، نفس الشعور ذاته غمرَها أكثرَ يومَ توفّيت تيتة سعدية، حتى أنّ عينيها ظلّت هائمة في السماء ترقب العصافير وهي تطيرُ على غير هدى.

هل منحها هذا الشعورُ القدرةَ والجرأة على أن تمدّ يدها فتربتُ على كَتف إبراهيم وهي تطيّب خاطره عندما بكى في بيتها، ثمّ تتمسّك به ليتناول العَشاء معهم، هل كان لذلك الشعور دخلٌ في تلك السّعادة الداخلية التي غازلتها أثناءَ تناول الطعام، وهُمْ يتبادلون الأحاديث والضحكات.

هلْ رغبت في إبراهيمَ كرجل؟ أمْ كان تحدِّيًا لتلك القيودِ الصارمة التي فرضتها العائلة عليها وفقط؟!

وقفتْ فاطمة أمام المرآة وقد فردتْ شعْرَها على طولهِ، وضمّت قميصَ نومها على جسدِها حتى بدتْ تضاريسُه كاملة، والتفّت بكتفِها الأيسر، ثمّ استدارت بالأيمن لترى كيف هو جسدُها! ثمّ ابتسمتْ برضا، وقالت

لنفسها: لا تهمّ الإجابة عنْ كلّ تلك الأسئلة، وبماذا ستفيد؟ رحم الله الجميع.

في الأيّام التالية، فكّرت في استشارة رأفت أو إحدى أخواتها، ولكنّ رغبة قويّة تمدّدت بداخلها بأنْ يكون القرارُ لها وحدَها، لم تعانِ من التردّد أو الخوف، كانت الموافقة أو الرفض واضحة بداخلها، ولكنّ متعة اتّخاذ القرار جعلتها تعيش حالةً داخلية مُبهجة، ظلّت معها إلى أن أخرجت ورقةً وقلمًا ووضعت فنجانَ قهوتها الصّباحي أمامها، وراحت تتأمّل وجهَ الفُنجان، ثمّ رفعته إلى أنفِها واستنشقتْ بعمقٍ رائحتها، ثمّ ارتشفتْ رشفةً من الفنجان وأغمضت عينيها برضًا عن طعمها وقالتْ لنفسها: ما أحلى القهوة المُرّة!! ثمّ أمسكت القلم، وبتلقائيّة ودونَ أن تفكّر كتبتْ رسالة لإبراهيم من ثلاث كلمات..

(يمكنك التحدّث لرأفت).

عزّة

أكثر مِن ساعةٍ وهي تحاول جاهدةً أن تعرف فيما يتهامس خالُها وأمّها، فتتصنّع الدخول في محيط حديثِهما بتقديم الشّاي، فيسكتان لدخولها المفاجئ، ومرّة تدخل بصورةٍ مباغتة لتفاجئه بسؤال فيغيّران الموضوع، حاولت التلصّص لتسترقَ أيّ كلمات، ولكنّ صوتهما كان منخفضًا، اختلقتْ حُججًا كثيرة، ولكنّها لم تستطع الحصول على حرفٍ واحد يروي غليلَها، فقرّرت هدم المجلس فذهبتْ إلى أسماء، وفي ثوانٍ معدودة كان صراخُهما يملأ البيت.

منذ تفتّحت مدارك عزّة ولا يفوتُ عليها شيءٌ دون أن تلحظه، وتفكّر فيما وراءه بشكل يسيطر على عقلِها، لم يكنْ إذًا اهتمامُ أمّها الزّائد بنفسها ليمرّ عليها، فهي لم ترَ أمّها من قبل تفرد شعْرَها هكذا مُمشطًا أنيقًا، وبشكل يومي، فقد كان دائمًا معقودًا على رأسها، أصبحت تجلسُ أمام المرآة كثيرًا، حتّى الوقت الذي تتحمّم فيه بدأ يأخذُ وقتًا أطول، رأتْها لأوّل مرّة تدهن- بانتظام- يديْها وقدميْها بكريم مرطّب، قلّ تركيزها معهم، أمّا العجيبُ أنّها أصبحت تجهّز فنجان قهوتها المسائي، وتدير مؤشّر الراديو على إذاعة أمّ كلثوم في الخامسةِ مساءً، وتجلس لتستمع لوصْلتِها الغنائيّة كاملةً، بدلًا من الاستماع إلى المسلسل الإذاعي اليوميّ في الخامسة والرّبع، والذي كان من مقدّسات الحياة اليومية.

لم تتجاوزِ الثانية عشرة بعْد، ومع ذلك تبدو لَمن يراها أو يتعامل معها أكبرَ من سنّها الحقيقي، وكما زارها نضوجٌ عقلي مبكّر بسبب المكانة التي وضعتها الأيّام بها، زارها كذلك خرّاط البنات، فاستدارَ جسدُها ومال بشكلٍ ملحوظ نحو المرأة لا البنت.

كانت البداية ملاحظةً عامّة شاهدها الجميع حين حرّرت فاطمة شعرَها وصفّفته، وتركتْه حرًّا طولَ اليوم في البيت، كان هذا شيئًا نادرًا، علّقت عليه أسماء بمزاح، ولحقَها عماد فمدّ يدَه يمسح على شعْرِها الطويل الناعم:

- لماذا تخبئين كلّ هذا الجمال؟!

ولم تفوّت عزّة تعليقها كذلك بلمْزٍ اختباري:

- ربّما كان هناك عريس.

فعضّت فاطمة على شفتِها خجلًا، فقال عماد:

- يا بختُه إذًا بهذا الجَمال!

ضحكتْ أسماء:

- ستكون أحلى عروس.

عزّة متغاضبة قليلًا:

- لن يلمس رجلٌ شعرةً من أمّي بعد أبي.

ثمّ احتضنتْها وقالت:

- أليس كذلك يا أمّي؟!

ضمّتها فاطمة بعمق، وابتسامةٌ باهتة تعلّقت على وجهها، ولم تنطق ببنت شفة.

لم يكنْ بين رأفت وفاطمة حاجزًا كبيرًا تجعله يتردّدُ في الحديث إليها، بل كان يعتبرها قبلَ أن تكونَ أختَه ابنتَه، فقد نشأت في حجْره أكثر من أبيها، وظلّ أقربَ الناس إليها لا سيّما بعد استشهاد حَسَن، غير أنّ طلبَ إبراهيم يدَ فاطمة منه أصابَه بارتباكٍ خوفًا على الأولاد، فكّر عدّة أيامٍ في الأمرِ دونَ أن يصل لقرار، حتّى أنّه فكّر في الاعتذار لإبراهيم دون الرجوع لفاطمة، ثمّ تذكّر أنّ فاطمةً كان يؤلِمها أن يقرّر كلّ مَن حولها مصيرَ حياتها؛ فقرّر - إكرامًا لها - أن يكلمها.

تصوّر في البداية أنّها سترفض الفكرة، خاصّة وأنّه لا ينقصها شيء، فميراثُها الماليّ من حَسَن هي والأولاد كان وافرًا، كما أنّها قد اقتربتْ من الأربعين، ويمكن أن تصبح جدّة في غضون سنواتٍ قليلة، كذلك مرَّ وقتٌ طويل منذ أن تقدّم لها رجلٌ طالبًا يدَها للزواج، ولذلك كلّمها مطمئنًّا، ولكنّها فاجأته بموافقتها على الزواج.

صمتَ قليلًا من وقْع المفاجأة، شعورٌ غريب اجتاحه لأوّل مرّة نحوها لا يستطيع أن يفهمَه، فنكّس رأسَه إلى الأرض كأنّه يهرب بوجْهِه حتى لا ترى أثرَ كلامها عليه، وغلبه ضيقُه، فسألها:

- ما الذي ينقصك لتتزوجي؟!

تضرّج وجهها خجلًا، فلم تتصوّر أن يسألها رأفت هذا السؤال، وقبل أن يطول الصمت، شعر أنّه سيهزمُها ويوقفها عند حدّها، فعاود السؤال بشكل أطول:

- ما الذي ينقصك لتتزوجي وأنتِ في هذه السن؟!

اعتراها فجأةً شعورٌ جارف بالقوّة، أذهَبَ الخجلَ من وجهها، فنظرتْ إليه وابتسمت، وقالت بصيغةٍ آمرة:

- رأفت، أريدك أن تكلّم الأولاد، وتقنعهم، أنا أحتاجُ لهذا الزواج، هل يمكنك أن تساعدني في ذلك؟

عماد وأسماء كانا متردّدين قليلًا، وإنْ كانا يميلا للموافقة، فكان أمرُهما هينًا على رأفت، أمّا عزّة فقد كان واثقًا أنّها ستوافق طالما هذا رأيه، فأحضرَ لها حفنة الشيكولاتة المعتادة، وهمس في أذنها:

- أريدك في أمرٍ هامّ، وخالو يعرف أنّ وزّة لا يمكن أن ترفضه.

ابتسمت له وقالت:

- عَيني.

الرّسائل

الغالية فاطمة..

تلقّيت اليوم خبرَ موافقتك على الزّواج منّي، قارنتُ هذا الخبر بكلّ الأخبار الجميلة التي تلقّيتها في حياتي، فكان ذلك أجملَها على الإطلاق، شعرتُ بأنّ سفينة العمر التي تاهت في بحار الحياة، قد وجدتْ مرساها، أشكرك بشدّة، وأعدك أنْ أكون دائمًا مصدرَ سعادة وبهجةٍ لك وللأولاد.

إبراهيم..

هذه أوّل مرّة أخطّ رسالة شخصية في حياتي، فضلًا عن كوْنها لرجلٍ سيكون زوجي، فاعذرني إنْ لم أجد الكتابةَ مثلك، ولكنّي أتمنّى أن أكون عند حُسن ظنّك فيّ كزوجة، أعرف أنَّ في لُبنان نساءً لا يقارن بهنَّ أحدٌ في الجَمال، ولكنّي أعدك كذلك أن أكونَ أفضلَ من كلّ امرأةٍ عرفتها في حياتك.

الغالية فاطمة..

لا يمكنُ لرجل محبّ أن يقارن امرأته بنساءٍ أُخْريات، هذا ظلمٌ كبير لها، وتقليلٌ من شأنها لا يليق برجلٍ مثلي أنْ يفعله، حين اخترتُك لم يخطرْ ببالي أن أفعل ذلك.

إبراهيم..

كلّ حرف في كلامِك يحييني، كأنّي أُبعَثُ من جديد، متى ستأتي؟ وجودك سيحسم أمورًا كثيرة خاصّة مع الأولاد، وأنتهز الفرصةَ لأحدّثك عنهم قليلًا، عماد وأسماء متردّدان قليلًا، فقد تحدّث إليهما خالُهما، وحُسِمَ الأمر بموافقتهما، وقد جاءا إليّ في غرفتي وباركا لي وأسعداني جدًّا، ضمّني عماد بعمق، وقال: ما يُسعدك يُسعدنا يا أمّي، وأمّنت أختُه على كلامه.

أمّا عزّة فقد جلست مع خالها طويلًا ولم تكلّمني بعدها، بل شعرت أنّها تتجنّبني، تصوّر رأفت أنها طوعُ أمْره؛ فهو أقربُ إنسانٍ لها، استمعت له، ولكنّها لم تردّ بالإيجاب أو النفي، وتركته حائرًا، ويبدو من طريقة ردّ فعلها أنّها غيرُ موافقة، قال لي بعدها: مازالت صغيرة ولا تدركُ الحياة، ربما تشعرُ أنّك لو تزوّجت ستتركينها، اصْبري قليلًا عليها، حاولي الاقتراب منها وطمأنتها.

لمْ أُعِرِ الأمرَ اهتمامًا كبيراً طالما عماد موافق، وقلت لعلّها مع الأيام تتأثّر بموافقة أخويْها، ولكن ما حدث كان العكس، لا أعرف كيف استطاعتْ عزّة- وهي الصغيرة- أن تؤثّر بشكلٍ كبير على عماد وأسماء؛ فبدأت أختُها تطلب أنْ أعيد التفكيرَ في الأمر، وعماد أصبح يتجنّب الكلام في هذا الأمر،

ويبتعد ويصمت مُتعلّلًا بالمذاكرة، تحوّل الجوّ العام في البيت إلى صمتٍ متوتّر لا أحبّه ويرهقني كثيرًا، أرجوك أنا متعبةٌ جدًّا، وأريدك أن تحسمَ هذا الأمر، ولا تطِلْ أنتَ الآخر عنائي.

الغالية فاطمة..

اطمئنّي، سأصل مساءَ الغدِ، رتّبت كلّ أموري هنا، وأنهيتُ جميع أعمالي اسْتعدادًا للاستقرار معك.

أسعدتْها برقيةُ إبراهيم، وتلقّفتها كما يتلقّف الغريق طوقَ نجاة وسط أمواج عالية عمياء لا تدري بمَن سيغرقه غضبُها، منذ سنوات طويلة لم يتدفّقْ في روحها نهرُ الفرح، عاد الآن في وقته المناسب.

أسرعتْ فاطمة واتّصلت برأفت وأخبرته بقدوم إبراهيم، ورجَتْه ألّا يتخلّى عنها؛ فإنّها تشعر بقلق بالغ، وطلبت منه التّأكيد على موافقةِ عماد وأسماء واستيعابِ عزّة وتحْييدها علًى الأقلّ، طمأنها رأفتُ ودعا لها بالخير.

في موعدِ وصول إبراهيم، كان البيت كلّه قد استعدّ لاستقباله، أشرفت فاطمة على إعداد عَشاء يليقُ بضيفها، وارتدتْ عباءة رماديّة مشغولةً بزهور رقيقة ذات ألوان مُبهجة تتدلّى من غصن أخضر من أعلى الجانب الأيسر، وطرحة بيضاء لفّتها أسماء حول رأسها بعناية، تردّدت في وضعِ شيء خفيف على وجْهها، ولكنّها قرّرت أن تتركه على طبيعته.

وقفتْ قبالة ابنتها، ودمعت عيناها فاحتضنتها أسماءُ بمشاعر مُتضاربة تجاه أمّها، فقد تسلّمتها عزّة هي وأخوها، وصارت تضرب على أوتارٍ

صعبة، كان أسوأها حين قصّت عليهما حلمًا رأتْه، أنّ أمّهم ذبحتهم بسكّين، ووضعتهم على الأرض مُتجاورين، ثمّ وقفت تغسل يديْها من الدّماء لتلحق بعمّهم، وصارت تُقسِم لهمْ بأغلظ الأيْمان أنّ أحلامها صادقة، تأثّرًا، واهتزّت مشاعرهما واضطربت، ومع ذلك لم تملكْ أسماء وعماد إلّا أن يقفا بجوار أمّهما في يوم كهذا.

طرقَ عماد الباب، ودخل منبّهًا:

– خالي رأفت وعمّي إبراهيم وصلا.

تضرّج وجهُ فاطمة خجلًا، ودقّ قلبُها بعنف، ابتسمَ لها عماد بتردّد، ولكنّه حسَمَ أمرَه، فهو لا يملك ترفَ معاداة أمّه، حبيبته وصديقته المقرّبة في الحياة فناداها:

– هيّا.

وقبل أن تتحرّك فاطمة، سألت:

– أين عزّة؟!

تبادل عماد وأسماء نظراتٍ، ثمّ قال:

– في غرفتها سأنادي عليها، اذهبا أنتما ورَحّبَا بالضّيفين.

هلّت فاطمة على المجلس كالبدْر حين يفرش نورَه بحنان باذخ، وقف إبراهيم مبهوتًا، ثمّ ابتسم وتبادَلَا كلمات التّرحيب، دخلت أسماء وعماد إلى المجلس، وسعادةٌ لطيفة تظلّلهما، وتناثرت الكلماتُ بين إبراهيم ورأفت عن

الأحْداث والأحوال، فاطمة وإبراهيم يختلسان نظراتٍ قصيرة أثناءَ الحوارات الدّائرة، كزخّات من المطر أتتْ لتحيي بها مواتَ أرض الحياة بينهما. وفجأة، دخلت عزّة عليهم بوجْهٍ متجهّم متحفّز، باردٍ كسكين لا يأبَه لَمن سيذبحه.

هاشم

غادرَ إبراهيمُ حياةَ فاطمة بلا رجعة، التي تبدّل حالها كثيرًا؛ فقد عادت لارتداء السّواد، وغلّفت حياتَها بقدرٍ مُتّسع من الكآبة والصّمت، تمارس حياتها بنمطٍ مُعتاد كأنّها جالسة في محطّةً سفرٍ تنتظر وصولَ القطار الذي سيقلّها، لا تفعلْ شيئًا سوى أن تتأكّد كلّ فترةٍ من وجود حقيبتها بجوارها، وتعيدُ النّظر مرّات ومرّات لساعتها كفعلٍ تلقائي، حتى في فرح أسماء ارْتدت عباءة سوداءَ جديدةً وطرحةً سوداء كذلك، ولم تفلحْ محاولات أسماء معها لترتدي عباءة ملوّنة.

الألمُ الذي خلّفته عزّة بداخلها لم تستطعْ أن تبرأ منْه أبدًا، ولم يشفعْ لها صغر سنّها كما يردّد رأفت دائمًا؛ دفاعًا عنها، نعم.. كانت صغيرةً وكبرت، ومازالت على رأيها الذي يكبر معها، ومازال في عينيها نفسُ نظرة الانْتصار، مرّت سنوات ولم يرقّ قلبُها لأمّها فتعتذر، لعلّها تخفّف من وطأة ما فعلت، تمارس حياتَها بشكلٍ منطلق، لا يعْنيها أحد، كأنّ شيئًا لم يكنْ، يَحذرُ الجميع أن يدخل معها في جدالٍ أو حتى يغضبَها، فيا ويْلَه، فجوةٌ هائلة بداخل فاطمة بينها وبين عزّة، لا يجبرها سوى أمومتِها التي لا تستطيع منها فكاكًا؛ فكانت تمارسها معها بتلقائيّة، فتخاف عليها، وتهتمّ لاحْتياجاتها لا أكثر،

كان عمادُ الأقربَ لها نفسيًّا وعاطفيًّا، خاصّة بعد زواج أسماء وانتقالها إلى سكنِ زوجها البعيد، فلا تتكلّم تقريبًا إلّا حين يعود من كليّته، ولا تتناول طعامها إلّا معه في المساء مهْما تأخّر.

مع عزّة، كانا يعيشان تقريبًا كالأغراب، تعود من المدرسة فتضعُ لها طعامَها ثمّ تدخل غرفتها فتمكثُ فيها وقتًا طويلًا ما بين النّوم والمذاكرة وقراءة القصص ومُهاتفة أشجان المعتادة، تتبادل الكلامَ مع أمّها حين يكون لها احْتياجات، يمتلئ البيت بقليلٍ من البهجة حين يأتي رأفت، فيسري في البيت بعضُ السّعادة والضحكات لفترةٍ وجيزة، ثمّ يعود البيت إلى صمْتِه.

واستمرّت الحياة برَتابتها المملّة، حتى ظهر هاشم في حياتهم، الجار الجديد الذي انتقل عمله إلى هنا، في البيت المقابل حيث سكنَ مع والدته، لم يمرّ أسبوع حتى وقع نظرُه على عزّة، لا يدري ماذا أصابه مِن هذا الوجه الخمْريّ الرّقراق بعينيه العسليّتين حين طلّ عليه وهو خارج من البيت لعملِه، اتّسعت حدقتاه على آخرهما مبهوتًا مِن ذلك الجَمال الذي سقطت عليه أشعةُ شمس الصباح الحانية، فأضاءت وجنتيْها بحُمْرة الحُسْن، وبدتْ رموش عينيها كستنائيّة كثيفة وهي تضيق عينيها لتتحمّل وهجَ الشّمس الذي صافحها، فالتهب قلبُه ودقّ بسرعة مضطربًا مفتونًا، ما أصفاها تلك الابتسامة التي قابلت بها صديقتَها، وما أحلى القُبْلتان التي وضعتْها على خدّيها، تنهّد ووَدّ لو كانتا على خدّيْه، ظلّ يتبع قوام الغزال، وهو يسير بتؤدةٍ كأنّ الزّمن لا يشْغله، والحرب الضروس الدّائرة في قلبه لا تعني لها شيئًا.

تكرّر بالتالي وقوفُه الصباحي، حتى امتلأ كأسُ الرّوح وفاض على جسده، فلجأ إلى أمّه، التي رأتْها من خلف الشبّاك عدّة مرّات فأعْجبتها، ثمّ سألت عنها الجارات، ومن ثمّ سارعت بالزيارة للتّعارف، ثمّ أقدمتْ على الخطوة التالية بطلب عزّة لهاشم، رحّبت بطلبها فاطمة، ووعدتها بالردّ في أقْرب فرصة، واتّفقا- كعادة النساء- على صداقةٍ دائمة حتى ولو لمْ يحدثْ نصيب.

لم تكنْ ثمّة مشكلة في قبول هاشم زوجًا لعزّة سوى أنّه يكبرها بخمسة عشَرَ عامًا، شابّ تجاوز الثّلاثين بعامٍ واحد، شغل هذا العائقُ تفكيرَ فاطمة حين أمدّتها أمّ هاشم بمجموعةٍ من المعلومات عنْهم، وكانت كلّها مناسبة حتى ذكرت سنّ هاشم، فسادَ الصّمت قليلًا حتى قطعته الأمّ بالجُملة المعتادة:

- الرّجل لا يعيبُه إلّا جيبه.

فابتسمتْ فاطمة، وردّت كذلك بجُملةٍ معتادة في هذه المواقف:

- ربّنا يقدّم ما فيه الخير إنْ شاء الله.

عاد عمادُ في المساء ليجد رسالةً من أمّه باللّحوق بها عند خاله رأفت لأمرٍ هام، فسارع إليهما، سردتْ لهما فاطمة تفاصيلَ عرض الزواج.

رانَ صمتٌ عامّ على المجلس حتى كسرَه رأفت بسؤاله لعماد:

- ما رأيك؟

عماد (بتردّد):

- فرق السنّ كبيرٌ جدًّا.

نظرَ رأفت لأخته التي كانت تمورُ بداخلها مشاعرُ غارقةٌ في التّناقض، فاطمة تتمنّى في أعماقها أن تتخلّص من صداع عزّة، وثقل وجودِها على نفسها، وزواجها فرصة لأن يتحمّلها شخصٌ آخر غيرها، وفاطمة الأمّ تشفقُ عليها من فارق السنّ الكبير، لاحتْ فجأة صورةُ إبراهيم مرّةً أخرى، وتمنّت فاطمة أن تذهبَ العقبة بعيدًا، ثمّ قالت الأمّ بداخلها: هذا موضوع مات، لا تفكّري فيه، إبراهيم تبخّر في الهواء ولم نعدْ نعرف عنه شيئًا، ولم يكلّف خاطرَه حتّى بالسؤال، وقبل أن تبرّر فاطمة غيابَ إبراهيم بسبب ما فعلتْه عزّة؛ انتبهتْ على صوت رأفت:

- فاطمة، أين ذهبتِ؟

- هه، آه.. اسألوا عزّة.

- نسأل عزّة؟!

- نعم اسألوها، فرأيُها هو الذي سيمرّ على رقابنا كالسيف.

- لماذا جمعتنا إذًا؟

- هذا أمرٌ طبيعي أن تعرفوه من الآن.

سكتَ رأفت وعماد مستسلمان لإجابتها الحاسمة.

عزّة وهاشم

التقطتْ عزّة أوّل نظرةٍ من عيني هاشم ذلك اليوم الذي سقط فيه حريرُ أشعة الشّمس على وجْهها وهي خارجة لتوّها من باب البيت، فانعكس بهاءُ القمر وتوهّج في قلبه، فوقف حائرًا لا يدْري من أين أو إلى أين يمضي! ولم يفتْها هذا الإعجابُ المندهش الذي طلّ من عيني الجار الجديد محدقًا فيها، لم تهتزّ، ولم تلتفت، تعرف بغريزتِها أنّ مسًّا أصاب كيانَه لمرءاها، وأنّه سيتبعها بعينيه، هكذا تعوّدت منذ أنِ استدارت أنثى، ترى نفسَها جميلةً وجذّابة، وهكذا قالت لها عيونُ الرجال الذين يصادفونها عادةً في الحياة، ووقرَ في نفسها أنّ للرجل مصايدَ كثيرة أخطرها أنْ تمنحيه طلّةً أو اقترابًا ما، ثمّ تذبحيه بالإهمال، فلم تلتفتْ لرجل أو تتطلّع إليه، ربّما تهفو نفسها لشيء منْه، أو يكون نديمَ أحلامها، ولكنْ مستحيلٌ أن يظهر ذلك عليها.

صدقَ إحساسها فيه، ففي الأيام التالية صار من المعتاد خروجُه من البيت في وقتِ خروجها، يحاول المسكينُ أن يبدو الأمرُ طبيعيًّا، وهي تبتسم في داخلها، ولكنّها لا تلتفتُ ولا تبدي ذرةَ اهتمامٍ كأنّه لا شيء، توقّعت أن يبادر بردّ فعلٍ ما كعادة الشّباب، فيرسل لها رسالةً عن طريق إحدى زميلاتها أو ينتظرها في مفترق طرقٍ، بعيدًا عن البيت ليكلّمها، أو يأتي بفعلٍ جنوني يكون حديثها مع الصديقات، ولكنّه فعلَ ما هو أغرب مِن ذلك بكثيرٍ إذْ فاجأها بطلبها للزّواج مباشرةً، ضايقها ذلك جدًّا فعزمتْ في قرارةِ نفسها على رفضه.

تمنّت أنْ تحيا قصّة حبّ مُلتهبة كالتي تقرؤها في الرّوايات، والتي تعيشها بكلّ كيانها، حبيب يتبادلُ معها رسائلَ سريّة، يقف تحت نافذتها يناجيها ليلًا، تتفاجأ به في غرفتها فيضمّها ويقبّلها بقوّةٍ وعنفٍ فيدوخها، يأخذها على حصانِه الأبيض، إلى مكانٍ بعيدٍ وناءٍ وجميلٍ كأنّه الجنّة، يمسك يديْها بحنانٍ راكعًا، ويقبّلْها وهو يتلو عليها أشعارَ الحبِّ والغزل، تتناجى عيناهما دونَ كلام، عائلتُها ترفضُ فيقف الحبيبان في وجْه العالم ليخضع في النهاية لرغْبتها، الشّوق والسّهر والألمُ واللّذة والحزن والفرح، واختلاط المَواسم في قلبها، النّسيان والهُيام، وكلّ مقتضيات الحبّ التي عاشتها في الرّوايات والأغاني أفسدَها هذا الغبيّ بطلب الزّواج بهذه السّرعة.

أوشكتْ على الرّفض حين فاجأتها أمّها بطلب هاشم، ولكنّ شيئًا ما عقدَ لسانَها فسكتت، واستمعت بإنصات على غير العادة، أوصتْها فاطمة بالتروّي في التّفكير، فالرجلُ صحيحٌ لا يعيبه شيء، ولكنْ عليها أن تفكّر في فارق السنّ الكبير.

حرصتْ في حديثها أن تكون حياديّة حتى لا تأخذ ابنتُها موقفًا عكسيًّا كعادتها، بل قامت إليها وعانقتْها وقبّلتها، فبادلتها عزّة- لأوّل مرّة منذ زمن طويل- حضنًا أعمقَ حتى شعرت فاطمة أنّ ابنتها تودّ لو بقيت في حضنِها فترةً طويلة، فضمّتها بحنان أكثر.

في الأيام التالية لمعرفتها بطلب جارهم هاشم ليدِها، أخذتها الأحلامُ مرّة أخرى بأن يُقدم على شيء جريء وغيرِ معتاد في رؤيتها الصّباحية، وتوقّعت ذلك بكلّ قوّة، ولكنّها فوجئت باختفائه عن موعدِه الصّباحي المعتاد.

هاشم لم يحاولْ- قطّ- أن يقتربَ من عزّة بعد طلبها للزّواج من باب الأدب والأعراف العامّة، لا بكلمةٍ أو حتّى إشارة، بل تعمّد في بعض الأيام أن يخرج مبكّرًا، أو يرقبها من خلف الشباك حتى تخرجَ وتسير مع صديقتها، كان ذلك أوّلَ ما جذبَ انتباهَها بقوّة له، جعلها تلتفتُ لتبحث عنه، بعد غيابٍ صباحيّ لمدّة يومين متتاليين، تقابلا في اليوم الثالث، ولكنّه لم يرفع وجهَه ناحيتها.

تناقضتْ مشاعرها بين الحبّ في الرّوايات والواقع الذي فرضه هاشم من بداية العلاقة بينهما، صحيحٌ أنّه خذلَ مشاعرها المتلهّفَة لأنْ تعيش قصّة حبّ إلّا أن طريقته أعجبتْها وجذبتْها إليه أكثر، ومِن ثمّ فاجأتِ الجميع بموافقتِها على الزواج.

هاشم موظفٌ، ولديه أرضٌ زراعية ورثَها عن أبيه، يجني منها أموالًا طيّبة، فارعُ الطول على نحافةٍ بادية، تميل بشرتُه لسمرةٍ ملحوظة، متناسقُ الوجْه والقَوام، لم يكن وسيمًا على الوجْه الذي تحبّه الفتيات، غير أنّ ذلك لم يشغلْها كثيرًا؛ فهي جَميلة، وهذا يكفي لأنْ يحسده النّاس عليها لا أن تحسدَها الفتياتُ عليه.

ابتهجَ البيت ورفّت سعادةٌ عامّة على الجميع، وبدتْ من عزّة سكينة عامّة على غير عادتها، واستسلمتْ لأختها وصديقتِها أشجان وهُما يعْتنيان بها، وتزيّن البيت وتمّت الخطبة في محيطٍ ضيّق، ضمَّ- فقط- الأسرتيْن وبعضَ الأفراد المحيطة بهما.

أبدى هاشم كرمًا ملحوظًا في الهدايا الذّهبية التي أحضرها، كذلك ذوقه كان راقيًا في اختيارها، أكثر ما أعجبها في هداياه علبة الشيكولاتة الفاخرة التي خبّأتها لنفسها، ولم تطعم منها أحدًا.

بدأتْ عزّة وهي تستقبل عامَها السّابع عشر حياةً جديدة، استطاع هاشم في وقتٍ قصير أن يكسب قلبَها بطيبةٍ أصيلة في طبعِه، فقد كان ودودًا، صبورًا، متفهّمًا لاندفاعاتها، وأحاطها باهتمام وحنان جعلَها تنجذب إليه بشدّة، فتعلّقت بوجوده في حياتها بشكل كبير، وفي خلال أشهر قليلة كان قد أسّس لها بيت الزوجية اختارت هي كلّ ما فيه دون أدنى اعْتراض منْه، ثمّ حملها إليه كما يحمل الإنسانُ كنزًا عاش عمرَه يبحث عنه.

عزّة أرضٌ بِكْر، كلّ ما فيها عفيّ وطازج، طيّب الرائحة، شهيّ، سلّمت له كيانَها كلّه من أوّل ليلة، فانفتح لها عالمٌ جديد على مصْراعيه، كان الإحساسُ به يصلها عبْرَ القراءة عنه، أو مشاهدته عبْرَ اللّقطات الحميمةِ في الأفلام، معايشته عيانًا أروع بكثير من كلّ تلك الهواجس الخدرة اللّذيذة التي كانت تراود أحلامَها بعضَ الأحيان، بدأ بألم لذيذ ليلةَ الزفاف، ثمّ نما كنبتةٍ صغيرةٍ في كيانها، حتى صار مع هاشم عالمٌ متكاملٌ، كان أجمل ما فيه ذلك الإحساس الأوّل الطّاغي بأنوثتِها الكاملة، حين غشيَها هاشم بكلّ شبابه ومحبّته ورغبته، وجنونه بها.

ومع نموّ مشاعرها الحسية تمكّن هاشم من قلبها كلّه، فقد كان نهرًا متدفقًا يفيض دائمًا بالعطاء، فهي طفلتُه التي يطوف حولَها طول الوقت، إنْ غضبت أو خاصمته أو طلبتْ منه شيئًا، وهي أنثاه البكْر التي تأتيه كلّ ليلة بوجهٍ

مختلف عن سابقتِها، يتساءل وهو بين يديْها.. هل هناك أروع من هذا في الوجود! فتأتيه في الليلة التالية بما هو أروعُ وأحْلى.

غرقتْ في بحرٍ من السعادة تُوِّجت خلالَ عشر سنوات بولدٍ وبنت، ولم يتغيّر عليها هاشم أبدًا، بل كان يزدادُ منها قربًا وعطاءً، أصرّ على أنْ تكمل تعليمَها، ساعدها وساندَها بكلّ طاقته، وتوسّط لها عند معارف كبارٍ، حتى توظّفت كإخصائية اجتماعية في إحدى مدارس البنات.

عمرٌ من السّعادة وراحة البال مرّت كالريح، عاشت عزّة في دولتها ملكةً متوّجة حتى جفّ نهرُ السّعادة فجأةً ودونَ مقدّمات.

عادَ هاشم هذه الليلة من سفرٍ بعيد، كانت تنتظرُه بلهفتها المعتادة، ولم تهدأ حتى سمعت صوتَ المفتاح في الباب، جذبَها إليه وأمطَرها بغيمةٍ مُكتنزة بالقُبُلات، ثمّ مازحها:

- لم أعدْ أستطيع حملَك، ربربت يا وزّة.

ضحكتْ وهي تحوطه بذراعيها:

- هاشم العجوز لم يعدْ يستطيع حملَ أميرته.

ابتسمَ لها هامسًا:

- أين الأولاد؟

قالتْ وهي تضغطُ على حروفها، وتجذبُه إليها برغبةٍ مثيرة:

- عند أمّي يا هاشم، الليلة الخميس يقضونها هناك كالعادة، نسيت؟

تلك الليلة توهّج الحبّ على أقصى ما يستطيع بينهما، وفردَ جناحيْه وطارَ بهما في المدى، تلاشَيَا، وتذبذبَ معهما المكانُ والزّمان، فلا زمان يشعران بمروره، ولا مكان يمكنه أن يحوي هذا التّدفق، حتى انتهى بهما المطافُ وحطّ طائر الارْتواء على قلبيهما، وعادا للزّمان والمكان، وألقت رأسَها على صدره برضًا غامرٍ، وأخذتها سنةٌ لذيذة مُعتادة من النوم بعد كلّ وصلةِ عشق، ثمّ استيقظتْ فرفعتْ رأسَه إليها فوجدتْه ساهمًا في الفضاء، فداعبت بأصبعِها أنفه فانتبَهَ مبتسمًا، وقال:

– اليوم قابلتُ المحامي، ووثّقنا أخيرًا كلّ أوراق تقسيم الميراث بيني وبين إخوتي، وحدّدنا نصيبَ كلّ منّا في الأرضِ برضا ومحبّة، والحمد لله.

ابتسمتْ له كأنّ الأمر لا يعْنيها، فواصل حديثَه:

– شعورٌ داخلي طاغ كان يدفعني منذ مدّة لأنْ أفصل مع إخوتي نصيبي من الميراث، واليوم اطمأننت عليكم.

ضحكتْ هذه المرّة، وقالت:

– أبقاك الله لنا يا سيّدي دومًا.

قبّل جبينها، وبادلها الابتسام:

– لن نتعشّى؟

– العَشاء عليك الليلة، أعددتُ كلّ شيء، ما عليك سوى وضعِه على المائدة.

باستسلام:

- حاضر.

همَّ بالقيام، فوجد ثقلًا في جسده ورأسِه، فقال لها:

- يبدو أنّني عجّزت كما تقولين، جهّزي أنت العَشاء وأنا سأغتسل لأستعيدَ نشاطي.

قالت مستسلمة:

- من عيني، لكن لا تنَمْ.

استغرقت ربعَ السّاعة تقريبًا في وضْع العَشاء، وهي لا تسمعُ لزوجها صوتًا، تنادي عليه بين الفيْنة والأخرى لتذكّره ألّا ينام، ثمّ دخلتْ عليه الغرفة مُتغاضبة، وضعتْ يدَها في وسطها:

- قلتُ لك لا تنَمْ، ترسلني لتجهيز العَشاء فتنام كالعادة.

وقفتْ على مسافة منه، متوقّعة أن يفاجئها فيجذبها إليها كعادتِه ليمطرَها بقُبُلاته المجنونة، ولكنّه لم يحرّك ساكنًا، اقتربتْ أكثر فبدا وجهُه غارقًا في النّوم، حتى لو ذهبَ به النّوم فإنّه عادةً ما يستيقظُ بسرعة، نادتْه مرّة تلوَ المرّة.. لم يردّ، اقتربتْ منه بذاتِ الغضب، هزّته فلم يردّ، وخزةٌ حادّة أصابت قلبَها، وهلعٌ مفاجئ، أخذت تحاول إيقاظَه بيدٍ مُرتعشة، اختنقتْ بالدموع من الخوف، وهي تنادي عليه دونَ جدوى، أسرعت إلى الهاتف، وبجسدٍ ينتفضُ وأصابعَ مرتعشة، اتّصلت بأمّها صارخة.

حملتْه عربةُ الإسعاف، وأسرعت به إلى المستشفى، دخل العنايةَ الفائقة، وامتدّت الخراطيم إلى جسدِه وأوردتِه دون أن يدري أحدٌ ماذا أصابه.

وفي الصباح، لم تجدْ عزّة تفسيرًا واضحًا لدى أيّ طبيب مِن الذين راجعوا حالته، أسبوع كامل يراه استشاريّ تلوَ الآخر، تُجْرى له أشعّات وتحاليل دون الوصول لسببٍ واضح لهذه الغيبوبة، وبعدَ مرور أسبوع كامل توقّفت أجهزة مراقبةِ أعضائه الحيوية، وأطلقت نواحَ صافرتِها المتّصلَ مُعلنةً وفاة هاشم، هكذا أسلم روحَه إلى بارئها لموعْدٍ كتبه الله منذ الأزل، دون أيّ مقدمات، أو استئذان.

تلقّت عزّة الخبرَ حين كانت عائدةً من البيت إلى المستشفى؛ حيث أصرّت أمّها هذا الصباح على ذهابها إلى البيت لتتحمّم وتبدّل ثيابها وترتاح قليلًا، فقد مكثتْ بجواره أسبوعًا كاملًا، وطمأنتْها أنّها ستكون بجوار هاشم مع الجميع، واستجابتْ عزّة بعد إلحاحٍ منهم.

كان الجميعُ قد علمَ بالخبر قبل مقْدِمها بدقائق، وظللتْ سحابةُ حزن كثيفةٍ على رؤوسهم، وبدأت الدّموع تنسالُ من العيون، ثمّ هطلتْ ثخينة حينما دخلتْ عزّة من الباب، وقفت مشدوهةً تنظر للجميع فردًا كأنّها تعدّهم، يمكن أن يكون أحدٌ منهم مات، يمكنُ للبشرِ كلّهم أنْ يموتوا إلّا واحد لن يغادر أبدًا، أسرعتْ إلى هاشم وجدتِ الممرّضات وقد نزعنَ الخراطيم الموصولة بجسدِه، وقد انطفأتِ الأجهزة المُحيطة به، نظرتْ إليه وابْتسمت، اقتربت ومالتْ عليه وأمطرت وجهَه بوابلٍ من القُبَل، ثمّ تمدّدت

في السرير بجواره، ومدّت ذراعَها من تحت رأسه ووضعتْ وجهَه على صدرها وضمّته وأخذت تقبّلُه وتكلّمه بهمسٍ وابتسام، والجميع ينظرُ في اندهاش وهَلَع.

أخذَ رأفت وقتًا طويلًا حتى استطاع إقناعَها بالابتعاد عن جسد هاشم، ولم تتحرّك إلّا عندما قال لها:

- دعيه يرتاح.

هكذا تعاملتْ عزّة مع خبرِ وفاة هاشم ببساطةٍ مُخيفة، لم تبدِ أيّ ردّ فعلٍ يكافئ الوقْعَ المزلزل، كأنّه تركَ لها رسالةً بأنّه اضطرّ للسّفر لحاجة، وسيعود سريعًا.

كانوا ينظرون إليها بتوجّس وهي تتعاملُ مع المصيبة بهذا الإحساس المُفْرط في اللامبالاة، ورغم ذلك فقد وقفتْ على الغُسل وحضرت الجنازةَ ووقفت وسطَ الرجال على باب القبر، بل إنّها مدّت يديْها وحملتْ مع الرّجال جثمانَ زوجها وهو ملفوفٌ في الكفن ليدخلوه القبر، حتى أنّ رأفت أقسم لأمّها بعد ذلك أنّه سمعها بأذنيْه وهي تهمسُ للجثمان، قائلة: لا تتأخّر يا حبيبي، سأنتظرك.

اتّشحت الأجواءُ بحزنٍ فاجع شملَ الأسرة والشّارع والمحيطَ الكبير الذي يعرف هاشم، كان رحيلُه مفاجئًا وسريعًا لم يتوقّعه أحد، وبكى الجميع إلّا عزّة، كان معلّقًا على وجهِها تعبيرٌ غريب يراه البعضُ ابتسامة، ويراه البعضُ الآخر مسَّ جنونٍ أصابها.

عادتْ بعد الجنازة إلى بيتها، وبدأت في ممارسة حياتها بشكلها المُعتاد حتى مع الأولاد كأنَّ شيئًا لم يكنْ، بقي رأفت معها في البيت عدّةَ أيّام، رأسه يكاد يجنّ من تصرّفاتها وتعاملِها مع الحَدَث، اقتربَ منها واحتواها بذراعيْه، استسلمتْ لضمّته، رفع وجهَها وقبّل جبينها، ونظر إليها بحنانِه المعْهود، ولكنّ قلبَه خفقَ بشدّة، فقد كانت تتطلّع إلى وجهه ولكنّ نظرتها كانت غائمة، ذاهبة إلى عوالمَ أخرى.

جاءت فاطمة لتمكث مع عزّة هذه الفترة، وأحزانُ غياب هاشم راعفة، والحياة متّشحة بالسواد، جاءت لأنّها أحسّت مع تصرّفات ابنتِها أنّها ستدخلُ في أزمةٍ كبيرة عاجلًا أم آجلًا، كانت تصلّي وتدْعو الله أن يخفّف حملَ الحزن عنها، وتتمنّى في قرارة نفسها أن تنزل الدّموع من عيني عزّة ولو مرّةً واحدة.. أن تبكي أو حتّى تصرخ، تشعر فاطمة أنّ ابنتها تنحدر إلى هاويةٍ لا يعلم أحدٌ نهايتها.

تقبّلت عزّة وجودَ أمّها بجوارها، واستسلمت لها، شيءٌ ما بداخلها مضطرب، وغيرُ مستقرّ برغم الهدوء البادي على سطح تصرفاتها، فرض عليها قبول أمّها كحصنٍ يمكن الالتجاء إليه.

لم تتّشح عزّة بالسّواد كسائر النساء في مصائب الموت بصورةٍ أدهشت الجيران، وكلّ المجتمع المُحيط بها، خالفت كلّ الأعراف المسيْطرة، وارتدت ما كانت ترتديه، وتصرّفت بنفس طبيعتها المرحَةِ وهي تشتري حاجياتها أو تتعامل مع أحد.

الرّجال صامتون، لا يعنيهم ما ترتديه الأرملة، هُم يفكّرون في أمرٍ آخر، إلى متى ستصبر هذه المرأةُ الشابة على غياب رجلِها عنها؟ ثمّ يتخيّلونَ تلك المرأة وهي وحيدة وجائعة، فتحترق صدورهم بأمنيات خبيثة.

النّساء يفسّرن ويحلّلنَ ولا يسْكتن أبدًا، أقلّ ما قيل عن عزّة أنّ مسًّا أصاب عقلها، فلم تتحمّل الصّدمة، مسكينة ومعذورة، كان هاشم رجلًا ولا كلّ الرجال، رجلٌ تتمنّاه أي امرأة، ومنهنّ من أسرّت الحديث لتجعل منه حقيقة، أنّها اكتشفت أنّ هاشمًا قد تزوّج في السر، ولذلك هي غير حزينةٍ عليه، النساء لن تسكت، وإلّا ستصير مجالسهنّ بلا روح.

أربعةُ أشهر مضت كالقطار القشّاش البليد، يمرّ على محطات متقاربة فلا يفوّت واحدة إلّا ويقف فيها، وعزّة مازالت- فيما يبدو أمامَ النّاس- كما هي، تمارس الحياة المعتادة، ولكن قرارة نفسها كانت كالشمس تجري لحتْفها.

كان هاشم حصنًا شاهقًا أمام أحزان ومصاعب كثيرة، إنْهار فجأة ودونَ مقدّمات، في أول ليلة رأتْ في منامها أنّها تسير في شارعٍ مزدحم كثيفٍ برجال ونساء، نظرات النساء فيها حقدٌ غريب، ونظراتٌ الرجال كلّها شهوة حيوانية، كانت تمشي متعجّبة من هذا الحشد حولها بالذات، وفجأة اكتشفتْ أنّها تسيرُ عارية، فصرخت صرخةً مدوّية وهي تحاول أن تداري بيديها جسدَها، استيقظت على صوتِ صرختها فجلستْ في السرير، وهي تتحسّس نفسها لتتأكّد أنّ هذا كابوسًا لا حقيقة، جاءتها أمّها مسرعة ملْهوفة فضمّتها ومسحَت وجهها وقبّلتها، استكانت لحضن أمّها ولكنّها لم تتجاوبْ مع ضمّتها، ثمّ تركت نفسها لتتهاوى على وسادتها لتكمل نومها.

استدعتْ عزّة كلّ قوتها وجبروتها التى كانت تسيطر بها على كلّ مَن حولها لتتمكّن من نفسها، ووضعت حاجزًا صلبًا أمام كلّ لحظة ضعفٍ يمكن أن تجعلها تقبلُ بغياب هاشم للأبد.

صارت تستدعيه كلّ ليلة وهي تغمض عينيها للنوم، وتستدعي تفاصيل حياتهما معًا حتى تنعس.

دون أن تدري ظلّ رصيد قوّتها وجبروتها ينفدُ أمام الحياة الجديدة التي أصبحت تعيشها رغمًا عنها، وتقاومها ولا تعترفُ بحقيقتها، ولكن قرارة نفسها تشعر وتعيش هذا التغيير.

كما كانت تصرفات عزّة مفاجئة، كان تغيّر المجتمع المحيط بها مفاجئًا لها كذلك وسريعًا وطاحنًا، تغيّرت معاملة صديقاتها، أحسّت أنّها غيرُ مرغوب في وجودِها أو مرحّب بها بكلّ البيوت التي كانت تدخلها، ألسنةُ النساء عادة منفلتةٌ ولا تقدّر حجم الخراب الذي يمكن أن تخلّفه كلمة لم تسيطر عليها إحداهنّ، فتحدّ لسانها كالخنجر وتقولها، فبدأت أذنها تلتقطُ كلمات، ومصمصة شفاهٍ ونظرات مختلفة.

زميلةٌ كبيرة في السّن يعتبرونها في المدرسة كأمّهم، اختَلَت بها وكلّمتها بهدوءٍ ناصح عن ملابسها الملوّنة في الحداد على زوجها، وأنّها يجب أن تنتبه لتصرّفاتها، وكذلك الحديث مع الزملاء يجبُ أن يكون بحسابٍ، عزّة اكتفت بالصّمت المحايد المحير.

ثمّ بدأ الليل يختلف، وبدلًا من أن تسيطر هيَ على حضور هاشم أصبح عقلُها يستدعي المواقف النّهارية مع زملائها في العمل والجيران، وتفكّر

بكلّ كلمة قالها الرّجال أو لَمّحت بها نظراتهم، كلماتُ زميلاتها وهمساتهنّ، وصمتهنّ اللعين الذي يظهر فجأة حين تدخل حجرة المدرّسين، كان هذا التفكير يستنفدُ جزءًا كبيرًا من الليل مع تقلّب جسدها المستمرّ في الفراش، والصداع وأصوات كثيرة ومتداخلة، حتى انْهارت فجأة.

كان ذلك اليوم الذي انتهت فيه عدّتها، أربعة أشهر وعشرة أيّام، حاولت ليلتها أن تستدعي هاشم فلم يأت، ولكنْ تيارُ النوم سحبها، فرأتْ كأنّها عائدةٌ إلى بيتها وأطلّت من أوّل الشارع فإذا بسرادق عزاءٍ كبير، وأُلقيَ في روعها أنّه أقيم لوفاةِ هاشم، فأسرعت تركض جَزِعَة ملهوفة وتطلق صراخَها في الفضاء بكلّ ما أوتيت من قوّة.

تردّد الصّراخ في أنحاء البيت ففُزِعت أمّها ووَلَدَاها إليها، وظلّت تصرخ وتتقلّب في الفراش، لم تستطعْ أمّها السّيطرة عليها حين خرجت من سريرها تجري خارج غرفتها، وأخذت تبحث في أرجاءِ البيت وتنادي صارخةً على هاشم، ثمّ سكتت فجأةً وجحظت عيناها، ثمّ وضعت يدَها على قلبها وتلاحقت أنفاسُها بسرعةٍ مخيفةٍ، ثمّ صرخت بكلّ قوّتها من شدّة الألَم، وانْهار كيانها كلّه على الأرض.

في مستشفى الدّكتور وسام الباشا الخاصّة، استشاري الباطنة والقلب، بينما كانت عزّة خاضعة للمتابعة الدقيقة، وجسدُها موصولًا بعددٍ من الأجهزة حولها، تقرأ حالة أعضائها الحيوية على مدار الساعة، وقف الطبيب الشابّ أمام صورة الأشعة ينظر بتمعّنٍ حائر، ثمّ نادى الممرضة ليتأكّد أنّ

هذه الأشعة للمريضة التي دخلت أمس، فأكّدت له ذلك، فعاد ليراجع اسمها: عزّة؟ فردّت أنّها الحالة الوحيدة التي جاءت أمس تعاني جلطةً في القلب، والتي ترقد في غرفة العناية الفائقة، دخل عليه زميله ووقفَ بجواره ينظر إلى الأشعة معه، ثمّ التفت إليه:

- أراك حائرًا!!

- هل تستطيع أن تشخّص حالة القلب التي تراها في الأشعة؟

نظر زميلُه باهتمام:

- هذه صورة قلبٍ طبيعي لا يعاني من أيّ جلطات.

- هناك شيء لا أفهمُه.

حجرة الدكتور وسام واسعةٌ رحيبة، ونظيفة جدًّا ومعطّرة، الأبيض هو اللّون السائد فيها، كلّ شيء فيها مرتّب بدقّة، الجدران تتزيّن بحفنة من الشّهادات المصفوفة بعناية، الهدوءُ يسيطر على المكان بدرجةٍ ما متوترة، الجميع ينتظر بقلقٍ بالغ لما سيقوله الطّبيب الذي يعكفُ على مكتبه يقرأ التّحاليل والتقارير بعناية.

الدّكتور وسام الباشا من أمْهر أطبّاء القلب في مصر، وشهرته تعدّت الحدود، ومرضاه من جميع الطّبقات والجنسيات العربية المختلفة، لكنْ لماذا يبدو الرّجل حائرًا هكذا؟!

كان رأفت يتساءل وهو ينظرُ إلى الطبيب الذي استغرق وقتًا طويلًا في قراءة الأوراق أمامه، بل وأعادَ قراءتها وسجّل ملاحظاتٍ كثيرةٍ في دفترٍ كبير، ثمّ تطلّع إليهم من تحت نظّارته الذّهبية، ثمّ رجعَ بظهره للخلف ليستندَ على كرسيّه ملقيًا بقلمِه فوق الأوراق المتناثرة، وقال:

- ستمكث عزّة شهرًا كاملًا في المستشفى تحت رعايتي الشّخصية المباشرة.

تبادلتِ العائلة النظرات، ثمّ سأله رأفت:

- حالتُها خطيرة إلى هذا الحدّ!؟

بنفسِ الهدوء الواثق ردّ الطبيب:

- كلّ مشكلة متعلّقة بالقلب هي خطيرةٌ مهْما صغرت، القلب الجهازُ الوحيد الذي لا يتحمّل الإهمال.

قال عماد وقد بلغ منه القلقُ مبلغه:

- نريد أن نفهم المشكلة بالضبط.

- نعم سأشرحُ لكم، ولكن أريد أولًا أن تحكوا لي عن عزّة، هي في وضع صعب ومختلف، وأحتاجُ لتفاصيل كثيرة عن حياتها حتى اللّحظة الأخيرة التي أتت بعدها إلى المستشفى.

اعتدل الدكتور وسام في جلسته، وأمسك قلمَه وأخذ يُنصت باهتمام، ويدوّن الملاحظات التي يراها هامّة، يوقف سيلَ الكلام ليطرح بعضَ الأسئلة، أو يعيد التأكّد من تصرّفها في مواقف معينة، حتى سردت فاطمة

كلّ التفاصيل التي عاشتها مع عزّة في الشّهور الأخيرة بعد وفاة هاشم، حتى قالت:

- ليلة مرضها، كُنّا نجلس معًا نتحدّث في بعض الأمور حتى قلت لها إنّها أتمّت عدّتها من هاشم، وكنت الحقيقة أقصدُ أنْ تستوعب الحياة من حولها أكثر.

انتبه الدّكتور وسام إلى هذه الملاحظة أكثرَ، وأعاد التأكّد من صحّة كلام فاطمة بعدد الشهور منذ وفاةِ هاشم، ثمّ سألها بعد فترة صمت قصيرة:

- وكيف كان ردّ فعلها؟

- كأنّها تفاجأت، اضطربت بشدّة، وشعرت أنّ جسدها تسري به رعشةٌ، وتوتّرٌ بدا في نظراتها لي، ظلّت صامتة لدقائق، حاولت أن أسرّي عنها أو أخْرِجها من هذه الحالة بالحديث في موضوعٍ آخر، ولكنّها قامت عنّي فجأة وهُرِعت إلى حجرتها، ولم أرها إلّا حين استيقظتُ في الليل على صراخها.

رانَ الصمت على المجلس، ثمّ قام الدكتور وسام إلى لوحةٍ كبيرة على الحائط، مرسومٌ عليها قلبُ إنسان بشكلٍ تشريحي، ثمّ بدأ يشرح مجتهدًا أن يبسّط المعلومات للأسرة:

- جاءت عزّة إلى المستشفى أمس تعاني من خلال التّشخيص الظاهري للحالة، أنّ لديها جلطة في القلب، وأعراضها معروفة لدى أيّ طبيب حتى المبتدئ، يصاب القلب بألم يعتصرُه بقوّة، وينتشر هذا الألم ويمتدّ الى الرقبة والذّراعين مع صعوبة التنفس، وارتفاع إنزيمات القلب، وبسرعةٍ نجري

رسمًا للقلب؛ فنلاحظ تغيّرات في تخطيط القلب كما في حالات جلطة القلب الحادّة، ثمّ نجري أشعّة بالصبغة على القلب لنتعرّف على مستوى الجلطة، ونحدّد مكانها لنبدأ في التعامل معها، المفاجأة الكبرى.. أنّنا حين أجرينا الأشعة على قلبِ عزّة لم نجدْ أيّ جلطة في شرايينها!!

كان الجميع يُنصت باهتمام، وقد بلغ منهم الاندهاش مبلغَه، فيما واصل الطبيب كلامه:

- يأتي جسد الإنسان دائمًا بما يحيّر العلماء، بل ويقفوا عاجزين برغم التقدّم العلمي المذهل والسّريع أمام أسرار هذا الجسد التي لا تنتهي.

صمتَ قليلًا ثمّ واصل حديثه:

- حضرتُ منذ عدّة سنوات مؤتمرًا طبيًّا في أوروبا، وقد عرضت فيه ورقة بحثية هامّة كان صاحبُها طبيبًا يابانيًّا، اكتشَفَ ما رأيته اليوم في تقارير قلب عزّة.

أشار الدكتور وسام بقلمه إلى صورةِ القلب في اللوحة:

- إنسان يحمل درجةً عالية من الإحساس، وقدرًا كبيرًا من العاطفة المتدفّقة تجاه شخص أو أملٍ في شيء معين، ولكنّ عاطفته هنا مختلفة، ولها خصوصية، تجنح للتطرّف في ردود أفعالها، فإذا واجه حدثًا في حياته على درجةٍ عالية من القسوة والمفاجأة، ووجد نفسه عاجزًا عن اتّخاذ ردّ فعل يوازي هذا القدر من القسوة والمفاجأة، يحدث له ردُّ فعل جسدي، مثلما حدَثَ مع عزّة، ولكي نرى الأمرَ بصورةٍ أوضح فنقول.. قلبٌ يتعرض لزلزالٍ عاطفي

أو ألمٍ بدني شديد، أو يصاب بمرض يبدو بسيطًا، فيفاجأ عند الكشف أنّهُ مرضٌ خطيرٌ ومُميت، أو أن يتعلّق بشخصٍ ما لدرجةٍ كبيرة ومتطرفة، ثمّ يفقده فجأة أو يتخلّى عنه ودون مقدّمات، أو أيّ كارثة أو مصيبة من أيّ نوع تمثل لصاحبها فجيعة، تحدث زيادة مفاجئة في هرمونات التوتّر بشكل سريع ومتدفّق فيؤدي إلى صعق القلب بشدّة، كأن مسًّا كهربيًّا أصابه، بنفس المعنى الذي أقوله، فتحدث تغيّرات مباشرة في خلايا عضلاتِ القلب أو الأوعية الدموية التّاجية أو في الاثنين معًا، فيمنع البطين الأيسر المسئول عن ضخّ الدم من تنفيذه لعملية انْقباضه بشكلٍ فعّال، فتؤدي ظاهريًّا إلى كلّ أعراضِ جلطة القلب، من آلام حادّة تبدأ في القلب ثمّ تنتشر مع صعوبة التنفس، ولكنّها في الحقيقة حالةٌ انْكسار نفسي شديدة تصيبُ الروح، فيتألم لها القلب، فينبّهنا بطريقته الخاصة لما أصابه من وجعٍ وألمٍ فوق طاقته، ولذلك أطلق عليه العلماء اسم، متلازمة القلب المنكسر.

رانَ الصّمتُ على الجميع، فيما عاد الطبيبُ إلى الجلوس على مكتبه، وتبادلوا نظرات حيرى، حتى قطع رأفتُ الصمتَ بسؤال:

- وهذا المرض له علاج؟

- بالتّأكيد له علاج، وستشفى عزّة في غضونِ ثلاثة أو أربعة أسابيع، من الناحية العضوية هو أخفّ بكثيرٍ من جلطة القلب الحقيقية، وسيعود القلب إلى سابق عهده، ولكن على المستوى النفسي فهو خطيرٌ جدًّا، ويجبُ الاحتراز منه لأنّه إن تكرّر قد يؤدّي إلى الوفاة، الغريبُ في حالة عزّة أنّ المتعارف عليه

والمسجّل عالميًّا حتى الآن أنّه يصيب النساءَ فقط، وفي سنوات متأخّرة تتراوح بين السّتين والخامسة والسبعين، أمّا أن تُصاب امرأة في السّابعة والعشرين فهذه حالةٌ نادرة، وربما تكون أوّلَ حالة من نوعها على مستوى العالم على حدّ علمي، فضلًا عن كوْنها أوّل حالة ألقاها في مصر، عزّة تمثّل لي حالةً استثنائية، وسأظلّ أتابعها بشكلٍ دوري على مدار السّنوات القادمة كحالةٍ بحثيّة أقدّمها في المؤتمرات الطبيّة العالمية، وعليكم أن تنتبهوا لأيّ أعراض تحدثُ لها مفاجئة، يجب أن أعلم بها فورًا.

عزّة

أيقنتْ عزّة- وهي في المستشفى- أنّ هاشم قد غادرَ ولن يعود، فعادت أخيرًا من سفرها البعيد، خرجتْ من دوّامة السّراب الذي سعت وراءه بكلّ قوّتها، حتّى أنهكها العطش والقهر، وأوشكت على الموت، عادت إلى كلّ شيء أرادته أمّها وخالها وأولادها والمجتمع كلّه، فاتّشحت بالسواد، ومشتْ في الشارع خفيضةَ الرأس، تتجنّب الحديث مع الرجال إلّا في أضيق الحدود، تتحاشى حتى الحديث مع صديقاتها المتزوّجات، صارت تبتعدُ عن المجتمع الذي تعيش بداخله كأنّها كيان منبوذٌ حُكم عليه بعقوبة السامري.

وأمامَ قبر زوجها تسابقت الدّموع طبيعيّةً وغزيرة، دموع امرأة اكتسحَها الترّمل، وستمضي بقية حياتها وحيدةً، وقفت أمام الحقيقة الناصعة التي هربت منها كثيرًا حتى أنهكها الهروب، وكاد يقضي عليها، عاد كلّ شيء إلى حجمِه الطبيعي، هدأ الغبار الذي أثارته بكثافةٍ رياحٌ عاصفة هبّت بقوّة

من الموت المفاجئ، انكسر كلّ شيء، حتى الجبروت الذي عاشت على قمّته تعامل البشر، وعليها أن تلملمَ الشّظايا المتناثرة التي خلّفها الانفجار الكوني بداخلها.

عادتْ وهي في السّابعة والعشرين من عمرها، مستسلمةً كطفلة صغيرة إلى حضن أمّها، وكتف خالها، تحبو في الحياة، تضع قدمَها مُضطربة خائفة من الوقوع، في محاولة لاستعادة الثّقة في الحياة من جديد.

بجوار عمّ عيد سائق الباص، مكانهما المعتاد تجلس سلوى بينهما، هذه تعليمات الجدّة بالرّغم أنّ عمّ عيد في ضِعْف عمرها تقريبًا، ولكنّه رجلٌ والرّجالُ كالأشجار الفارعة تموتُ واقفة لا تشيخ أبدًا، الرّجال صواعق ودواهي تأتي النّساء على حين غفلة، فتجد الواحدةُ نفسَها وقد وقعت في الشّرَك المنصوب لها؛ فلا فرار لها إلّا بالذبحً.

تنهّدت وشفتاها تتلو تعاويذَ الصّباح التي لقّنتها لها أمّها بعد رحيل هاشم، مرخية بشجنِ عينيها العسليّتين على المساحات الخضراء الشاسعة التي تغطّي الطريق إلى المدرسة، لم تعدْ ترقب الأشجارَ وهي تمرّ متسارعةً كما العمر، تتطلّع فقط إلى الأرض الساكنة بخضرتها، تصاحبها كأنّها تسير معها من البيت إلى المدرسة، كم تحبّ هذه الأرض حين تخضرّ، وتطيل النّظر إليها بعمق، كما تحبّ البحر الذي تسافر له خصيصًا، وتختلق الحجج لتذهب إليه.

انتبهتْ على صوت عمّ عيد وهو يتحدّث إليها، فالتفتت إليه بابتسامةٍ فاترةٍ متجاوبة مع حديثه وأسئلته المعتادة يوميًّا عن صحّتها وأحوالها، ثمّ يعرّج بالحديث عن هاشم فيعيد ويزيد في حكايات مكرّرة، ولكنّها في كلّ مرّةٍ تمنحه مساحةً من الاستماع والابتسام والاندهاش كأنّما يقصّها عليها لأوّل مرّة، حتى وقف الباص أمام بابِ المدرسة.

حسام

ثَمّةَ حزنٌ لا يريد أن يبرحَه، ودمعة متصلّبة على جدار العين تستعدّ لأن تتحوّل من الحالة الصلبة إلى السائلة، حين يتردّد جفنه للاستيقاظ، والصّداع المعتاد، مطرقةٌ تضرب عينيه بانتظام مع النّبض القادم من صدره، الثلاثية المقدّسة التي يستيقظُ عليها كلّ صباح.

يجلسُ في سريره يضغط عينيه بباطن كفّيه، ثمّ يلتفتُ إلى شريطِ المُسكّن الذي نسي أن يأخذه قبل النّوم تحسبًا لنوْبات الصّداع التي تصيبه من آنٍ لآخر، من يوم أن خرج من المعتقل منذ أكثر من عقْدين، سنواتٌ عجافٌ قضاها رهنَ الاعتقال، لا يعرف كيف يمحوها من ذاكرته، لم تمُتْ آثارها، ولا نسي لياليها أبدًا، ولا الوجوه الكالحة ولا مكاتب التّحقيق، مازالت أصوات السلاسل، وصرير الأبواب الغليظة تتردّد في رأسه، وآهاتُ الدّموع المنسابة على خدودِ الحزن، عليه الآن أن يضع في معدتِه أيّ شيء يواجِهُ به المسكّن الذي سيتناوله.

لا يعرف حتى الآن لماذا هو في الدّنيا، ودائما يتساءل.. لماذا يبقيه الله في الحياة كلّ هذا الوقت؟! سؤالٌ عقيمٌ بلا إجابة، سوى صمت الحياة الميتة بداخله.

عادةً يستيقظُ قبل أن يفتحَ عينيه، يتنبه عقلُه قبل جسده، فاتحًا سيل الأسئلة بشكل لا إرادي، تبدأ عادةً بالسّؤال المُعتاد، مازلت في الدنيا؟!

يفتح عينيه ببطء لتتحوّل الدّمعة المتصلّبة إلى سائلة على خدّه لترسم سؤاله اليومي، متى أموت؟ حرّك حدقتيه إلى ساعة الحائط كانت تشير للثانية صباحًا، موعد التحقيق المعتاد في المعتقل، خرجَ من غرفته نصفَ نائم، انتبه للنّور القادم من غرفة ابنته، توجّه إليها، كانت منهمكةً في المذاكرة، حين دخل أبوها قامتْ إليه مبتسمة وعانقته قائلةً:

- في موعدِك تمامًا يا حبيبي.

بادلها الابتسام وهو يضمّها إلى صدره:

- نعم في موعدي تمامًا.. (ثمّ غمغم) متى يحين الموعد؟

- ماذا تقول يا أبي؟

- أبدًا كنت أقول متى يحين الموعد وتتزوّجين؟

قطبت جبينها:

- أعرف ما تقول وتتمنّى، تريد أن تتركني كما تركتنا أمّي وتخلّت عنّي؟

- تعبتُ يا مريم من الحياة، سئمتها، ماتت كلّ الأماني في قلبي.

– على الأقلّ اجعلني آخرَ أمنية لك، آخرَ أمل، آخرَ طموح، ألا تريد أن تراني في فستان الزّفاف؟!

قال مازحًا:

– انتهى الزمنُ الذي تتزوّج فيه البنات صغيرات، ستجلسين في حِجْري سنواتٍ طويلة.

ضحكتْ بصوتٍ مرتفع:

– ربّما تتزوّج أنت قبلي.

اندهشَ حسام لجرأة ابنته فنظر إليها وقد اتّسعت حدقتاه:

– مريم!!

واصلتْ ضحكها وهي تحتضنه وتقبّله في خدّه:

– اطمئنّ، سأتزوّج قريبًا، أوّل عاشق ولْهان سيتقدّم لي سأوافق.

مسحَ بيده على شعْرِها المنْسدل على كتفيها مبتسمًا لكلامها:

– سأصلّي ركعتين، ونامي أنت قليلًا لتلحقي بالمدرسة.

ضحكتْ وهي تناوله رسالة قائلة:

– هذا خطابُ استدعاء لوليّ أمري من الأخصّائية الاجتماعية بالمدرسة.

وضعَ يدَه على فمِه وهو يتثاءب ملء فيه:

– والهانم المشاغبة ماذا فعلت؟

ضحكتْ وقد انتقلتْ إليها عدوى التّثاؤب:

– استنفدت مرّات الغياب، ورفضت الأخصّائية أيّ تفاوض إلّا بحضورك.

– ولكنْ عليّ السفر اليوم إلى الوزارة بالقاهرة لتسليم ملفّات هناك، على العموم يمكنني الذّهاب لها قبل السفر.

وقف حسام بسيارتهِ أمام المدْرسة، رفع عينيه إلى اللّوحة العريضة، مدرسة الشهيد عادل جلال أبو المكارم الثانوية بنات، ابتسمَ بقليلٍ من الانْدهاش، هزّ رأسه وقد تحوّلت الابتسامة إلى وجهه مُتسائلة: عادل أبو المكارم شهيد!؟ ثمّ غمغم في نفسه: رحمكَ الله ياعادل، كنت صديقًا طيبًا في سنواتِنا الأولى في الحياة حتى جرفتك صحبةُ السوء بعيدًا، وأفقْنا ذاتَ يوم على خبر وفاتك إثر جرعةٍ زائدة من المخدرات، ولم تتعدّ العشرين من عمرك، ثمّ حوّلك أبوك بكلّ جبروته المالي إلى شهيد، وبنى هذه المدْرسة باسْمك، لتنشأ أجيالٌ تلو الأجيال لتقول مدرسة الشهيد عادل.

تنهّد حسام ومازال يحدّث نفسه: مُغرمون نحن بتزْييف وتزْيين كلّ شيء، كأنّه لم يعدْ في حياتنا شيء حقيقيّ نفتخر به.

دلف من بوّابة المدرسة الكبيرة السوداء المسلحة بأسْياخٍ حديديةٍ لها رؤوس كالرّماح، كأنّها بوابة سجن كبير، استقبله موظّف لم يستيقظْ بعد، يجلس على مكتبٍ مُتهالكٍ بجوار البوّابة، يدخّن سيجارته بشراهةٍ محروم، نظر إليه بعينين منتفختين محمرّتين متسائلتين، مع هزّة بطيئة من رأسه، قالَ حسام:

– أريد الأخصائي الاجتماعي.

بشفتيْن بنيّتين، وأسنان سوداء، نفثَ دخان سيجارته الكثيف وقال بصوت متحشرج:

- بطاقتك الشخصية.

تناولها منه، وأشار بيدِه ناحية مبنًى كبيرٍ خلفه ليدلّه على مكتب الأخصّائية.

أدخله العاملُ إلى حجرة الأخصّائية، والتي لم تكنْ موجودة فأجلسه في المكتب، دخلت الأخصائية بعد دقيقتيْن حين كان موليًا ظهرَه للباب، وقفت بتردّدٍ قليلًا، ثمّ تنحْنَحت فالتفتَ إليها، ووقف قُبَالتَها مبتسمًا، فقالت:

- أهلًا وسهلًا.

- صباح الخير، أنا والدُ الطالبة مريم حسام عبد اللطيف.

قالتْ بوجهٍ متجهّم لاحتْ عليه شبه ابتسامة:

- أهلًا وسهلًا، تفضّل.

ثمّ جلست على مكتبها قُبَالته، وأخرجت دفترًا وقلمًا من درج المكتب، ودوّنت فيه بعض الكلمات، ثمّ رفعتْ رأسَها وسألته:

- أستاذ حسام، ماذا تعمل؟

- مهندس زراعي بمديرية الزراعة.

كانت الأخصّائية تدوّن ما يقوله فيما واصلتْ حديثها بكلماتٍ مرتّبة وسريعة، كأنّها تحفظها وتردّدها على مسامع كلّ أولياء الأمور:

- مِن خلال متابعتنا للطّالبات في دفاتر الغياب وجدنا أنّ مريم تتغيّب كثيرًا، وقد أرسلنا هذا الإنْذار كشكلٍ إداريّ فقط، أمّا الحقيقة فإنّنا نحبّ

أن يعلم وليّ الأمر أنَّ ابنته تتغيّب ربما وهو لا يدري ويتصوّر أنّها تذهب للمدرسة وهي تذهب لمكان آخر.

وخزَتْه الكلمة، ولكنّه لم يبدِ أيّ أثرٍ على وجْهه، سكت هُنيهة كأنّما يستجمع ردًّا، ثمّ التفتَ إليها:

- نعمْ، مريم تتغيّب كثيرًا للمذاكرة، وأنا أعلمُ ذلك؛ فأنا وهي نعيش وحدَنا، وحياتنا مرتبطة ببعضنا البعض، أعرف عنها كلّ شيء تقريبًا.

كانتْ تنظر إليه بوجهٍ جامدٍ، ثمّ قالت:

- ولكنّك على الأقلّ تذهب إلى عملك وتتركها وحدَها في المنزل.

كانت الوخزةُ هذه المرّة أعنفَ، هذه المرأة لا تدري بماذا تتفوّه مع وليّ أمر فتاة، تخيّل أنّه يجب أن يصفعَها، هي تتّهم ابنته بشكلٍ مبطّن، وفي وجهه، أنّها ربما تكونُ على علاقة بأحدٍ تذهب له كلّ صباح، تردّد كثيرًا في الرّد عليها، ثمّ قال في نفسه.. لعلّها تفعل ذلك تريدُ رشوة لترفع الغياب، ولكنّه يكره ذلك ولنْ يفعله، التفتَ إليها فوجدَ عينيها متصلبتيْن بتحفّز على وجهه، فأخذ نفسًا عميقًا، وبصوتٍ كأنّه خارجٌ من كهف:

- نعم، ربّما تذهب لرجلٍ في بيته، ليختلي بها، ثمّ تعود مسرعة إلى البيت قبل أن أعود، فتطبخ لنا الطّعام، وتنظف البيت وتجلس للمذاكرة، نعم.. ربّما تفعل ذلك، ما هو المطلوب منّي الآن؟!!

تفاجأت الأخصّائية بفجاجةِ ردّه، فوقفت مضطربةً من ردّ فعل حسام وجرأة ألفاظه، لم تحرْ جوابًا، تحرّكت باضطرابٍ حتى وقفت خلفه كأنّها لا تريد أن تواجهَه، ثمّ قالت:

- أنا آسفة جدًّا، لم أقصد ما فهمته أبدًا، مريم مثلُ ابنتي، وأعرفها تمامًا، فقط أردت أن أنبّهك لأنّ كثيرًا من مشكلات غياب البنات يكون بسببِ مشكلات عاطفية دون أن يدري الأهل، و..

وقبلَ أن تكمل كلامها، وقف حسام والتفتَ لها، وقف برهةً ينظر إليها، ثمّ تنهّد بعمق:

- خذي الإجراءات المناسبة، لا عليك.

ثوانٍ من الزمن صامتةٌ بينهما ومتوتّرة، التقتْ فيها عيناه الغاضبتان بعينيها المتوتّرتين، فقط ثمّة شيء مشترك بين النّظرتين الْتقيا، فأحدثَ ارتعاشًا في الرّوح فكسرَ صمتَها، وانصرف.

العام ١٩٧٧

كان نجاحُ حسام بتفوّقٍ باهر خبرًا مُفرحًا، فقد حصل على تقدير الامتياز مع مرتبة الشّرف في الامتحان النّهائي لكلية الزراعة، علّق الحاج محمود الزينات، وجهّز فرقة حسب الله بآلاتها النّحاسية على مدخل البلدة في استقبال ابنه الوحيد، وأرضِه الطيبةِ التي رعاها وأحسنَ فِلاحتَها فمنحتْه أطيبَ ثمرةٍ يمكن أن يحصدها أبٌ في الوجود.

أخذتِ الموسيقى تعزف بحرارةٍ لوقت طويل، حتى وصل حسام مع مجموعة من أصدقائه في طابورٍ طويل للسّيارات، حتى أنّ بعض الجيران تندّر بمحبّةٍ قائلًا:

- لو كان رئيس الجمهورية؛ ما استقبله الناس هكذا.

تلقّى الحاج محمود ابنَه الوحيد بفخرٍ وتِرْحابٍ وأحضان دامعة، وتلقّفه الجميع بالعناق والورود المتناثرة، وامتلأ الفضاءُ بالزغاريد.

امرأة واحدةٌ لم تحضرْ هذا الفرح العارم، كانت قابعةً في دارها بقلبٍ خائف ترفع يديها إلى السماء وتدعو الله باكيةً أن يحفظ ابنها من عيون الحاسِدين، منذ أنْ ولدته وهو قمرُ البلدة المضيء، ولد تحسدُها كلّ النساء عليه، وحيدها، فاق أقرانَه أدبًا وخلقًا وعلمًا وبرًّا بأبويه، واليوم أتى لها وقد حملَ شهادته الكبيرة.

منذُ الصباح وهي تتلو كلّ الرّقيات والتعاويذ، وتبخّر البيت، لم تستطعِ السيطرة على خفقان قلبها من الخوفِ على ولدها، ظلّت منذ صلاة الفجر تدعو الله بإلحاحٍ أن يحفظ ابنَها من عين الحسود، حتى أنّ الحاج محمود ضاق بتوتّرها ذرعًا، وصرخ في وجهها حين قالت له: إنّ قلبها ليس مطمئنًّا، وإنّها تشعر أنّ شيئًا ما سيحدث.

لم يسكنْ قلبها إلّا حين ضمّته بين ذراعيها، وتحسّست وجهَه ووجنتيه وشعرَه وكتفيه، وامتلأ وجهُها بدموعٍ غزيرة، وودّت لو أعادته إلى أحشائها، الآن هدأ قلبُها لوصوله بالسلامة.

كان تعيينُ حسام معيدًا بكلية الزراعة لا يحتاجُ إلى واسطة؛ فنجاحُه الباهر طوالَ سنين الدراسة، وأبحاثُه المميّزة في مجال الزراعة، وخلقُه العام، ومحبّةُ أساتذته في الكلية، وترحيبُهم بوجوده معهم في صفّ التدريس بالجامعة؛ كفيلٌ بتعْيينه فوْر تخرّجه.

في الأيام الأولى من شهر نوفمبر، كان الجديد الذي فاجأه في مكتب عميد الكلية حين تعرّف على مستر دايفيد، أحد أهمّ أساتذة علم النبات في الولايات المتحدة الأمريكية، رحّب عميد الكلية ومستر دايفيد بحسام بحفاوةٍ بالغة.

مستر دايفيد، غربيٌّ بكلّ ما تحمله الكلمة، أشقرُ الشّعر، أزرق العيون، ذو جسدٍ أمريكي طولًا وعرضًا.

بعد التّرحيب الحار الذي تلقّاه حسام، دخل عميد الكلية في صلبِ الموضوع قائلًا:

- مستر دايفيد يريدك معه في أمريكا.

ابتسم حسام مندهشًا، وقال:

- لم أفهم.

- ستتحدّث الإنجليزية حتى يشاركنا مستر دايفيد الحوار.

أومأ حسام برأسِه بالموافقة، فأكمل العميدُ وهو يشير بيدِه إلى الضّيف:

- دايفيد صديقٌ قديم من أيّام بعثتي في أمريكا، ونحن على تواصلٍ دائم، ونتبادل الجديد دائمًا في مجال الأبحاث الزّراعية، وقد أرسلت له عدّةَ ورقاتٍ بحثيّة لك، وقد أدهشته، ولم يصدّق أنّ طالبًا يطرح مثل هذه الأفكار، حتى أنّه قال لي: لو استكملت هذه الأبحاث ستحدث ثورة زراعية على مستوى العالم، خاصّة في مجال تطوير إنتاجية الأرض المزروعة، كمًّا وكيفًا.

كان حسام يستمعُ باهتمام، وبداخله سعادة تتجوّل في أنحاء مشاعره، وعلى وجه دايفيد ابتسامة تهتزّ مع رأسه وهو يتابع حديث عميد الكلية.

واصل العميد حديثه لحسام:

- صحيح أنّ هناك أبحاثًا كثيرة في العالم تهتمّ بالتربة وبنوعية المنتج الزراعي مع الإنتاج الكمّي، وكذلك الأفكار المطْروحة في مجال ريّ الأراضي الزراعية بأنواع مختلفة من المياه، إلّا أنّ أفكارك مُدْهشة وجريئة، وغير ما يطرح على المستوى العلمي والعالمي.

قال حسام:

- ولكنّها يا سيّدي لا تعدو مجموعة أفكار أو أحلام وضعتْ فيها الأحرف الأولى، ولكنّها ستحتاجُ إلى جهدٍ معمليّ كبير.

تدخّل دايفيد للمرّة الأولى:

- هذا بالضبط ما أريده، أفكار حرّة، وأحلام كبيرة خيالية، هذه خلطة التقدم العلمي، لديك هذه النّوعية من الأفكار، ولدينا أفضل وأقوى إمكانيات، ستمنحك فرصة كبرى في تحويل خيالك إلى حقائق.

تراجع دايفيد مستندًا بظهره على الكرسيّ الجلدي الوثير، وبلهجة واثقة وقوية:

- العالم يا صديقي يتّجه الآن لسلام حقيقي، حياة خالية من الحروب والقتل والدمار، الدول العظمى تتّجه لذلك بقوة، وهذا يحتاج لتكاتفِ وتوحيد العقول لصنع عالمٍ أفضل، خالٍ من الفقر والجوع والكراهية.

تدخّل العميد:

- مستر دايفيد يعرضُ عليك عرضًا يتمنّاه أيّ طالب، هجرة لأمريكا ستتيح لك منحة علمية كاملة، تستطيع فيها مواصلة دراستِك وتطوير أبحاثك، مستقبلٌ مفتوح ومضمون، في إمبرطورية كبرى مستقرّة بعيدًا عن الحروب والانقسامات.

خيّم الصمتُ على المجلس، وسقط عقلُ حسام في وسط حالةٍ من التناقضات أعجزتْه عن الكلام.

ثمّ أكمل العميد:

- فكّر جيدًا في الأمر، هذه هجرةٌ ربّما تقضي بقيّة عمرك فيها، العالم الواسع الغني والأقْوى، ستخرج من الدّائرة الصغيرة التي ستفيد فيها بلدك فقط، إلى خدمة الإنسانية كلّها.

كلّ كلمة سمعَها في مكتب عميد الكلية يتردّد صداها في عقله وهو يسيرُ في أرْوقة الكلية، وفي الشارع، وفي بيته بالقاهرة، في أحلامه أوراقٌ متناثرة، وأفكارٌ مختلطة، وطرق متشعّبة، وإشاراتُ مرور غيرُ مستقرّة، يحاول أن يخرج من دائرة هذه الحيرة ليعيدَ ترتيب أفكاره ولا يستطيع، لأوّل مرّة في حياته تختلطُ عليه الأمور هكذا!!.

٩ نوفمبر ١٩٧٧

استيقظَ باكرًا، بعد ثلاثة أيّام من لقاء مستر دايفيد، ترك كلّ مواعيده المرتبطة بإنْهاء أوراق تعيينه بالكليّة، وقرّر قطعَ تلك الحيرة بالذّهاب إلى أبيه، هو وحده مَن يستطيع أن يحسمها، أيًّا كان رأيُه فهو سيتبعُه، ومن ثمّ ركب سيارتَه وتوجّه إلى البلد.

كانت مفاجأة عودتِه للدّار مبهجةً لوالديه، فقد فاجأهما وهما يجلسان في حديقة الدار الصغيرة يحتسيان القهوة كعادتهما كلّ صباح.

مرّت ساعات على جلستهم، تبادلوا فيها حكاياتٍ كثيرة، ثمّ قامت الأمّ لتعدّ طعام الغداء، فالتفت الحاج محمود إلى ولدِه مباشرة:

- احْكِ يا ولدي ما بك! في عينيك حيرة، وكلامُك مشتّت، حدث لك مكروهٌ في القاهرة؟!

كان الحاج محمود يتكلّم بسرعة ولهفة، ابتسمَ حسام وقامَ من فوْره فأغرقَ رأسَ أبيه ويديْه بقُبُلات المودّة والعرفان:

- كعادتك يا أبي تستطيع قراءةَ وجهي بسرعة مُذْهلة مهْما حاولت إخفاء شيء عنك.

ابتسمَ الأبُ ممتنًّا:

- يا ولدي، حدّثني عمّا يشغلك قبل أن تأتي أمّك وتنشغل عليك.

استمع الأبُ لكلام ابنه عن فرصةِ السفر لأمريكا بمشاعرَ متفاجئة ومتقلّبة، لأوّل مرّة في حياته يواجِه هذا الموقفَ مع ولده، صحيحٌ أنّه ربّاه على أن يتحرّك في مساحات أوسع في الحياة، ولكنّه يكتشف الآن أنّ الحياة أكبرُ وأوسع ممّا تخيّل، روحه حائرةٌ تائهة كطفلٍ ضلَّ في أماكن بعيدة، لا يدري كيف يتحرّك، ولا إلى أين يذهب!! فوقف يبكي.

حسام يواصلُ الحديث، ويحكي عن تفاصيل وإغراءاتٍ لا تقاوَم، والطفل التائهُ حائرٌ كيف يجيبه، هل يقول له إنّ الأب في غيابه سيصير هو الابنَ، والابنُ يصير الأب، كيف سيتنازل عن كبرياء الكبير ويقول له إنّه سيبكي كالأطفال، ويبيتُ الليل مفتقدًا صوتَه وحسَّه في الدار، تضطرب روحُه، وتريد دموعُه أن تتمرّد، ولكنّه يقاوم أنْ يبدو بكلّ هذا الضعف، الضّعف.. ذلك المعنى الذي لم يشعرْ به طيلةَ حياته.. ولكنّه الآن ضعيفٌ مُنْكسر الرّوح أمام ولدِه وحبيبه وصديقِ عمره الذي لن يستطيع أنْ يقول له: لا، لا تهاجر وتتركني وحيدًا يا وحيدي.

حانت التفاتةٌ إلى زوجته من بعيد، وهي تطاردُ من بين الدّجاجات الديكَ الذي قالت له إنّها تربّيه منذ فترةٍ لتذبحَه حين يقدّم ولدها، ترقرقت لمعةُ شجنٍ في عينيه، ودَّ لو أسرع إليها فاتحًا ذراعيه برجاءٍ لتضمّه إلى حضْنها كطفلٍ خائف من عتمة الليل.

- أبي، ماذا قلت؟

انتبَه الحاج محمود على نداءِ حسام، فتنحْنَح بتردّد مبتسمًا متهرّبًا من الإجابة:

- قمْ لصلاة الظّهر فقد نادت علينا، ثمّ نكمل حديثنا.

دار النّهار، وانشغلت الدارُ ببعض الزّيارات حتى حلَّ المساءُ، وجلسا يرتشفان الشاي بهدوء أمام شاشةِ التّلفاز، كان الحاج محمود ينتظرُ- باهتمام- إلى خطبة الرّئيس أنور السادات أمام مجلس الشّعب التي سيلقيها بعدَ قليل، وعلى الشاشةِ سادَ صمتٌ قليل حتى امتلأت القاعة بالتّصفيق لقدوم الرئيس، وفي أثناء عزف السّلام الجمهوري التفتَ الحاج محمود لحسام:

- لطالما كانت تُعجبني طريقة السّادات في إلقاء خطبه.

ابتسمَ حسام متجاوبًا مع أبيه، وواصل الأب حديثه:

- تُعجبني الطريقة، ولكنّي لا أسلّم رأسي لأحد، من يوم أنْ صادروا أرضي وأنا لا أصدّقهم، فكلّ الخطب والأحاديث التي سمعتُها بعد يناير ١٩٥٣ لا تعدو- بالنسبة لي- سوى كلامٍ فارغ أجوف.

قال حسام:

- ولكنّ السّادات كان مختلفًا، فقد انتصرَ في الحرب.

- حتّى الانتصار يا ولدي في أوطاننا يحمل أكاذيبَ كثيرة.

لم يشأ حسام أن يجادلَ أباه كثيرًا، فمرارةُ قرارات الإصلاح الزراعي التي اغتصبت أرضَه مازالت في حلقِهِ لم يداوِها الزمن.

وقفَ أنور السادات يتكلّم أمام مجلس الشعب بثقةٍ كبيرة، وبلغةٍ عربية فصيحة مفوّهة، يضغط على مَخارج الحروف، يستمعُ إليه النّاس بلا ملل، حتى لو تكلّم لساعتين أو ثلاث، الحاج محمود يشاهدُه بتركيز، وحسام يتجوّل بعقله ومشاعره في مستقبله، يتمنّى أن يسمع من أبيه كلمة تبدّد حيرتَه، ينتظرُ إشارةً أو لَمْحة منه، ولكنّ أباه تعامل طوالَ الوقت كأنّهما لم يتحدّثا في شيء، وهو يستحي أن يعيدَ عليه السؤال.

طالَ خطاب الرئيس، وحسام مضطرٌّ لاستكمال المشاهدة، ووجدانُه في مكانٍ آخر، ثمّ انتبه فجأة إلى أبيه الذي وقفَ مشدوهًا يتطلّع للتّلفاز وقد برقتْ عيناه، فقد كان السّادات يتحدّث عن السلام مع إسرائيل، ويضغط بإصرارٍ على كلّ حرفٍ يقوله: أنا أقول، اعلموا، مستعدّ أن أذهب إلى آخر هذا العالم، ستُدهش إسرائيل حينما تسمعني الآن أقولُ أمامكم، إنّني مستعدّ أن أذهب إلى بيتهم، إلى الكنيست ذاتِه ومناقشتهم، (تصفيقٌ حادّ في القاعة) وصراخُ أحدهم: زادك الله نصرًا، زادك الله نصرًا.

ظلَّ الأب صامتًا ذاهلًا لا يصدّق ما تسمعه أذناه، يضرب كفًّا بكفّ، وقف حسام لوقوف أبيه ينظر للتّلفاز تارةً ولأبيه تارةً أخرى، وواصل السّادات حديثه الذي يوشك يُنْهيه بصوتٍ هادئ، بعدما أطلقَ مفاجأته المدوّية تهاوى إلى مقعده، وقد عرج السّادات في حديثه عن الشّعب، وإرادته وعن البناء والتنمية وحقّ الجماهير في العمل، والمقابل العادل لهذا العمل والأمل الصادق، وعن زيارته لبعض المحافظات والمدن؛ قائلًا: وأريد أن

أقرّر أمامكم هنا أنّني سأحرص على أن أوفّر في هذه الرّحلة الأرض، وسأبدأ بمليون فدانٍ إن شاء الله لكي توزّع على أبنائنا.

قال الحاج محمود وهو مستاءٌ ومتعجّب:

- لو فعلها السادات ستخسر مصرُ الكثير، هؤلاء الذين يريد أن يذهب إليهم لا عهدَ لهم ولا أمان.

- لا أظنّه سيفعلها، ربّما كانت حيلة سياسية ليصل لمكاسب معينة.

ضحكَ الحاج محمود ضحكةً مملوءة بالمرارة والسخرية:

- طالما تحدّث عن إرادة الشعب، والبناء والتنمية، والمليون فدان؛ فاعلمْ أنّه سيفعلها، تلك خلطةٌ قديمة ومعروفة، مجرّبة ومكرّرة، وسيصفق له الجميع.

في عصر اليوم الأخير، وقبل عودة حسام للقاهرة، كان يقف على ربوةٍ عالية قليلًا، والتي يتجمّعون دائمًا عندها، كأنّه على خشبة مسرح يتطلّع لاهتمامهم، وينادي شرودهم في مسافات الفضاءِ مِن حولهم، وبحركاتٍ مسرحيّة تراجيدية، يتعمّدها كما تعلّمها في مسرحِ الكلية، وقال لهم بصوتٍ جَهْوري:

- عندما أموت ادْفنوني في غيط القمح الغربي، ولا تضعوني في كفن، ادْفنوني عاريًا هكذا كما ولدتْني أمّي، لا أريد أن يفصلَ بيني وبين الأرض شيء، أريد أن يذوب جسدي فيها ويمتزجَ بطينها وطمْيها، خلقني الله بالتّأكيد من غيطان القمح، ولهذا يمرّ شعورٌ جارفٌ كالإلْهام على كياني كلّه كأنّه وحي يقول لي إنّنى خُلقت من هذا الطين الأسمر.

حكَّ وليد، صديقُه المشاغب، رأسَه، وبلسانه الحادّ الفكاهي وهو ينفث دخّان سيجارته بمزاج رائق:

- مُت أنتَ ولا تحملْ همًّا، سأخطف جثتك وأضعُها على حمارةِ عوض الهزيلةِ العرجاء في جنح اللّيل، وسأعدّ لك حفرة كبيرة وألقيك فيها، متْ فقط وأرِحْ رأسنا من عشقك الذي لا ينتهي لغيطان القمح، والأرض والزرع، لكنْ قل لي لماذا الغيط الغربي، هل لك ذكريات فيه خاصّة؟!

قال الجُملة الأخيرة وهو يغمزُ بعينه.

وقبل أن يجيبه بوابلٍ من الشّتائم، تدخّل عمرو الذي كان يتمتم ببعض الذّكر وهو يمسح لحيته ويقول:

- تعرف يا حسام أنّه لا يجوز لك ذلك شرعًا، وليس من السنّة أنْ نلقي بالأموات هكذا في باطنِ الأرض ولا في أي مكان.

نظرَ إليهما مغتاظًا:

- أنتما لا تفهمان شيئًا، لَمن أذهب وصديقَا عمري لا يريدان أنْ يَفْهماني أو حتى يساعداني.

جاء عوضُ بكيزان الذّرة المشوية ضاحكًا، وألقاها بين أيديهم قائلًا:

- طلباتك غير منطقيّة يا عمّ حسام، نقدّر حبّك للأرض وعشقَك لها، ولكنْ أن تطلب طلبات مجنونة كهذه لا أحدٌ سيقبلُها، ومَن يستطيع أن ينفذها؟ وكيف سيقبل أبواك ذلك؟!

أسكت الذّرة السّاخن الحديث، وأخذوا يلْتهمونه بتلذّذ، ثمّ التفتَ عمرو لحسام:

- ماذا قرّرت في موضوع سفرك لأمريكا؟!

هزّ حسام رأسه شاردًا:

- أنا حائرٌ جدًّا، ومنتظرٌ رأي الوالد الذي تركني يومَ أمس بلا تعليق ولا كلمة حتى الآن.

قاطعه وليد:

- لا تخدعْ نفسَك، أنت تريد السفر ولكنْ بتأشيرة والديك حتى لا يلومك أحدٌ أنّك تركتهما وسافرت.

تدخّل عمرو:

- أنا متّفق مع وليد في رأيه.

حسام مبتسمًا:

- عجيب أنّكما مختلفان، وتختلفان في كلّ شيء إلّا أن تتّفقا عليّ.

ابتسم ثلاثتهم، ثمّ قال عمرو بلهجةٍ جادّة:

- يجب أن تواجه نفسَك، أنت لستَ في حيرة؛ لقد حسمت أمرَك، الحائر هو الحاج محمود، وعليك أن تترفّق به.

أكمل وليد:

- أظنّه ينتظر أن تتراجعَ أنت، ولكنّه في الأخير سيوافق مرغَمًا، ولن يقف أمام مستقبلك.

حسام مدافعًا:

- أنتما مخطئان، خطاب السادات أمس عكّرَ مزاجَه بسبب كلامه عن اليهود والصلح معهم.

اعتدلَ عمرو في جلسته، وقال بأسى:

- السّادات سيمضي قُدمًا في مصالحةٍ مع اليهود للأسف الشديد، وستضيع مصر لعقود طويلة.

ردّ وليد متحفزًا:

- لقد خان الرجلُ بكلامه هذا مصرَ وقضايا القومية العربية، وخان صديقه الزعيم عبد الناصر.

لم يعجبْ هذا الردّ عمرو؛ فانبرى له وقد علتْ نبرة صوته:

- كلاهما خائن؛ الأوّل ضيّع مصر في كلّ حروبه اقتصاديًّا وإنسانيًّا، والثّاني سيتصالح مع أعدائنا.

وبدأ الشّجار المعتاد بينهما لولا تدخّل حسام:

- بعيدًا عن السياسة الهباب التي تصدّعوننا بها، أريد رأيكما.

عمرو:

- توكّل على الله وسافر، هذه فرصةٌ كبيرة، لكن عليك أنْ تحافظ على نفسك؛ فهذه البلاد منعدمةُ الأخلاق؛ فالحرية فيها بلا حدود، يمكنك الحصول على عناوين للمراكز الإسْلامية، الصحبة الصالحة مهمّة جدًّا.

وليد ناظرًا إلى عمرو بغيظ:

- سافرْ يا حسام، ولو أنّي أكرهُ أمريكا، لكنّها في العلوم متقدّمة جدًّا؛ لن تجد لها مثيلًا، ولا تسمعْ كلام هذا المُنْغلق، تحرّر من القيود، فالعلمُ لا دين له.

قال عمرو متضجرًا من كلمات وليد:

- الأخلاقُ هي الأساس الذي ستبني عليه حياتك وتصرّفاتك وسعادتك كلها، أمّا العالم بلا أخلاق؛ فهو غابة لا يُسيطر عليها إلّا الغرائز.

ثمّ التفتَ عمرو إلى حسام مواصلًا كلامَه باندفاع:

- هؤلاء يعتمدون دائمًا على خلْط الأوراق، وجُمل ومُصطلحات فارغةُ المضمون، الأخلاق هي أساسُ الحياة الحقيقية أيْنما كنت، وأينما حللت، وأينما تعلمت.

وقفَ وليد، وبصيغة خطابيّة يقلّد فيها عمرو:

- وأيْنما أكلت، وأينما شربت، وأينما تزوجت، آه خاصة وأينما تزوجت هذه.

وقبل أن يُكمل وليد خطّ كلامه المعتاد الذي سيصل حتمًا إلى المعاني الإباحيّة كلّها؛ تدخّل حسام قاطعًا الشّجارَ الذي أوشك يبدأ بينهما:

- يعني رأيكما أن أسافرَ لاستكمال دراستي، متّفقان على المبدأ ومختلفان في الوسيلة، شكرًا، شكرًا، عليَّ الانصراف الآن.

ثمّ تركهما وانصرف، وبعد بضعِ خطوات التفتَ إليهما:

- المجرم مناحم بيجين دعا السادات اليومَ لزيارتهم لبدْء مفاوضات السلام، الأعداء لا يفوّتون الفرص أبدًا، ونحنُ مازلنا نختلف ونتشاتم على أتْفه سبب، لعنة الله على الغباء.

بُهتَ الأصدقاء، وحلّ الصمتُ على رؤوسهم، ومضى حسام في طريقه.

عزّة وحسام

بعد انصراف حسام الغاضبُ من المدْرسة، لبثتْ عزّة صامتةً لدقائق قليلة، وقد غلبتها مشاعر مُختلطة ومُتشابكة، لا تستطيع أنْ تركّز في شيء محدد، وضعت رأسَها بين كفّيها، وضغطت على رأسها، راجيةً الصداع ألّا يزحف إليها، لقد أخطأت واندفعت وهي تتكلّم مع أبٍ عن ابنته وتلمّح له وتومئ بكلامٍ لا يصحّ ولا يليق، ما هذا الغباء!!.

ستظلّ عزّة طولَ اليوم تلومُ نفسها، وتؤنّبها، ولن يهدأ لها بالٌ حتى تجد طريقًا للاعتذار لهذا الرّجل، ويتقبّل اعتذارها.

وعلى طريقِ السفر للقاهرة، انشغل عقلُ حسام بمقابلته مع عزّة، واحتلّت الحيزَ الأكبر من تفكيره، حانقًا مغتاظًا يتساءل، كيف لأخصّائية اجتماعية أن تتعامل مع البنات بهذا التفكير؟ وفي دهاليز النفس، كان هناك شيء التقطه في نظرتها الأخيرة له، يختبئ وراء سيلِ الأسئلة الغاضبة، شيءٌ ودودٌ لطيفٌ جعل الحياة تتنفس في قلبه.

مرّ النّهارُ اعتياديًّا، ونسي بين المكاتبِ وأصوات الموظّفين ودهاليز الوزارة أحداثَ الصباح، ووجْهَ عزّة، اتّصل بصديقيْه وليد وعمرو ليتقابلوا في مقهى بالحسين، اعتاد ثلاثتهم على اللقاء به كلّما سنحت لهم الفرصة، وأثناء سهرتِه تلقّى هاتفه رسالةً من رقم مجهول:

(أرجو أن تتقبّل خالص اعْتذاري عمّا بدر منّي صباح اليوم).

عرف حسام أنّها الأخصّائية، فالموقفُ الوحيد الذي قابله صباحَ اليوم كان معها، فكّر أن يردّ ولكنْ شيءٌ ما منَعَه، فوضع الهاتف أمامه، وواصل النقاشَ حاميَ الوطيس مع وليد وعمرو حول الوطن.

جلستْ عزّة مضطربةً تنظر للهاتف تستحثّه أن يردّ على رسالتها دون جدوى، أمسكت الهاتف عدّة مرّات بيدٍ مُرتعشة، ثمّ تحركت به ناحيةَ النافذة وفتحته قائلةً لنفسها: لعلّ الشبكة تحتاج إلى مكانٍ آخر، أو ربّما لم يعرف أنّ الرّسالة منّي، فأنا لم أزيّلها باسمي، عشر دقائق كاملة نفد صبرُها كأنّها عشرُ سنوات، فتحت صندوقَ الرسائل وقرّرت أن تكتبَ له رسالة أخرى، وقبل أن تكتبَ التفتتْ إلى مرآتها وتطلّعت إلى وجهها المضطرب، وفي عينيها تساؤلٌ بلا إجابةٍ: ما بكِ يا عزّة؟!

عادتْ لصندوق الرّسائل وهي تبرّر لنفسها ما تفعله، أسأتُ التصرّف في حقّ الرّجل، وأريده أن يقبلَ اعتذاري.

ضغطتْ بقوّةٍ على حروف الهاتف، وكتبت:

(أستاذ حسام، أرجو أن تردّ عليّ وتقول إنّك قبلتَ اعتذاري، ربّما لا تدري كيف مرّ عليّ النهار، أنا في منتهى الخجل والأسف، عزّة).

عادتْ لمرآتها ووقفت تتأمّل وجهَها وهي تقول لنفسها مرّةً ثانيةً: ما بكِ يا عزّة؟ وقبل أن تبرّر ما يعْتري مشاعرها، رنّ الهاتف معلنًا تلقّي رسالة، فتحتها بسرعة:

(أعتذر عن تأخّري في الرّد فأنا على سفرٍ، وأستعدّ للعودة الآن، واعتذارك مقبولٌ يا سيّدتي لا عليك).

حين كتبتْ رسالة الرّد على حسام هذه المرّة لم تكنْ هي نفسها التي تكتب الرّد، ولكنّها كانت عزّة أخرى.

(الوقت ليل، أرجو أنْ تنتبه للطّريق، سأظلّ ساهرةً حتّى أطمئنّ أنّك وصلت، سأنتظرُ رسالتك حين تصل).

غاصتْ عينا حسام في الطّريق الطّويل المظلم، وقد تلقّت مشاعره الرّسالة بوضوحٍ، أضاء النور العالي في محاولةٍ لأن تتّضح له معالمُ الطريق أكثر.

إشارات الاهْتمام لا تخفَى على رجل مثله، ليس في حياته امرأةٌ سوى ابنته المراهقة المنشغلة دائمًا، تأتي رسالتها الآنَ كقطرةِ مطرٍ كثيفةٍ تسقط فجأةً على زجاج سيارته فيستبشرُ ويتمنّى أن تتبعَها أخرى، ثمّ تتسارع القطرات، حتى ينهمرَ المطر فيغسل زجاجَ الرؤيا.

قرأ الرّسالة عدّة مرّاتٍ، وودّ لو أجاب بشيءٍ، ولكنّه لا يعرف، لا يمتلكُ كلماتٍ مثل صديقه زير النّساء وليد، فكّر أن يتّصل به ليسأله، ولكنّه خجلَ أنْ يحكي له، ألقى بالهاتف على المقعد المجاور وتنهّد، وواصل المسير.

في البيت، وقبل أن يغيّر ملابسه، جلس على طرفِ السّرير وكتب:

(وصلت الآن، شكرًا على اهتمامك).

قبل أن يخلع قميصه، رنّت رسالتها:

(الحمد لله على سلامتك، كنت قلقةً عليك من سفر اللّيل، الأن سأنام مطمئنّة).

لنْ يدري أحدٌ بتلك الخفقةِ المختلفة في قلبه، ولن يجرؤ أنْ يبوح بها لأحد، نبضةُ سعادة، انْدهاش أنّ قلبَه مازالت لديه القوّة على النّبض الاستثنائي، وضَعَ رأسَه على الوسادة وضمّ بين ذراعيه حروفَ الاهتمام، وراح يسترجع وجْهَ عزّة، تقلّب في فراشه على الجانب الآخر قائلًا لنفسه.. ربما يكونُ بيني وبينها ألفُ ألفِ باب، ولكنّ الأحلام لا أبوابَ لها. مدّ يدَه يبحث عن الهاتف، أضاءت شاشته الفيروزية بحروفِ رسائلها ليستعيدَ قراءتها مرّةً أخرى.

في الباص الصباحي المتّجه للمدْرسة، لم أستمعْ لقصص عمّ عيد المكرورة عن هاشم، ولم أتابعِ الأشْجار المتسارعة كالعمر على الطريق، حتى الأذكار الصّباحية كنتُ أتلوها بشرودٍ، ما الذي أصابني مِن هذا الرجل ليجعلني لا أنامُ الليل..

تنهّدت وهي تقول كيف سأراه مرّة أخرى؟! ربّما عليّ أن أختلق حُججًا ليأتي للمدرسة، تبسّمت لنفسها وهي تتطلّع إلى السّحب، والهواءُ يصافح وجنتيها.

فراشةٌ خرجت لتوّها من شرنقة الموت لتضرب بجناحيْها الرّقيقين الهواءَ لتصعد للأعلى، غير عابئةٍ بالغبار أو الرّياح، أو حتى النّار التي تسعى إليها، تتنسّم هواء الصّباح بعمق كأنّها مريضة في غرفةٍ للإفاقة تتمسّك باستعادة الحياة، يملأ النّسيم المُنْعش الصباحي رئتيها وهي وتتساءل: كيف أصلُ لهذا الرجل؟ ثمّ تبتسم ابتسامةً خفيفة وهي تجيب في الزّفير: سأصل.

في المساء على غير عادتها، رتّبت غرفتها بعناية كأنّها تستقبل ضيفًا، ابتسمت لنفسها وهي تهيئ سريرَها، وارتدت قميصًا فضفاضًا أحمرَ قانيًا، قصيرًا عاري الصّدر والكتفين، ثمّ تطلّعت لنفسها في المرآة وهي تمشط شعرَها بتؤدةٍ، ثمّ شبّكته كذيل الحصان، ثمّ ضايقها المشْبك فحرّرته وتركته ينسدلُ على كتفيها بحريّة، تحسّست كتفيها ورقبتها مستمتعةً بلمسة يديها، ثمّ قفزت كغزالٍ نافرٍ إلى سريرها، وجلست باسترخاءٍ أنثوي متهيئ، وراحت تدلّك- بهدوء- قدميْها وساقيها بكريم مرطّب، ثمّ ذراعيها ورقبتها، سرى في جسدِها ارتعاشةٌ لذيذةٌ محبّبة، تخدّرها بمتعة رقراقة.

عزّة لا تفكّر في شيء محدّد، وعقلها لا يستوعب أن يرتّب أكثر من غرفتها، أمّا كيف.. ولماذا.. وما سيحدث؛ فهي أسئلةٌ قاتلة للحظةٍ نادرة، وليس لديها استعدادٌ أن تطفئها بتفكير ليس له معنى، تطلّعت لهاتفها بانتظارٍ حائر، ثمّ تحسّست الطريق إليه بباطن كفّها، حتى قبضته بحنان، وأمسكت به واسْترخت وهي تتطلّع لشاشته، ولمستْ أصابعُها أزراره.

حسام

تبدّدَ حلمُ اليقظة الجميل الذي صاحبه منذ أمس مع توهّج أشعة الشّمس في الصباح، واحتلَّ الواقع بكلّ تفاصيله قلاع الحلم الحصين في ثوانٍ، تحرّك في الحياة دون أن يتذكّر ما حدثَ بالأمس أو حتّى يحاول، كانت حروفُ عزّة تطلّ عليه أحيانًا فيبتسم داخله دون أن يشعرَ أحدٌ حوله بشيء مُختلف فيه، كانت لحظاتٍ جميلة ولكنّه يعرف أنّه لن ينبني عليها شيء ما، فبعْدَ رحلة الحياة التي خاضَها وتجاربها المَريرة لم يعدْ له طاقة على ذلك الطريق، صحيحٌ أنّ قلبه خفق، وشعرَ بلذّة سطوع شمسٍ دافئة في يوم بارد من وراء الغيْم، ولكنّ هذا لا يعني أن ينساق وراءه، كلّ شيء لديه محسوبٌ بدقّة كما تعلّم في معامل الأبحاث الزراعية، وكما رأى الحياة وهي تسري في بذرة جافّة ميتة، فتنمو برعمًا صغيرًا، ثمّ سرعان ما تُنبت وتترعْرع ساقًا قويًّا لتمنح الحياة ثمرتها، ثمّ تذوي هشيمًا تذروها الرياح، وها هو أصبح منذ سنوات هشيمًا ينتظر ذرْو الرياح.

عنده قدرةٌ مذْهلة على التحكّم في مشاعره، ولا امرأة استطاعت أن تجتاز بوّابات قلبه الصّلدة، حتى سارة بجلالةِ قدْرها، تلك اليهودية الأمريكية والتي زاملته طولَ فترة بعثته، بمزيجها الحرّيف الشّرقي والغربي، والذي يذيبُ القيم في القلب المحْروم، ولكنّه لم يستجبْ لها، هو يشعر بشيءٍ يتسلّل له من جهة عزّة، شيء لذيذٌ دافئ، ليس بالقوّة التي يخشى منها، شيء يستطيع إيقافه في لحظة، أو قلّ هو توقّف منذ الصباح.

في المساء، سهرَ مع مريم لمساعدتها في المذاكرة، حين تناهى من بعيدٍ إلى أذنيه، صوت إشارة رسالةٍ من الهاتف الذي كان موصولًا بالشّاحن في غرفته، لا يدري لِمَ انتبهتْ حواسّه كلّها كأنّها قالتْ في نفس واحد ككورالٍ غنائي، هذه الرّسالة من عزّة، هل يتمنّى أن تكون منها؟ نظر إلى مريمَ فوجدها مُنهمكة في المذاكرة، طائر اللّهفة بداخله أخذ يضربُ بجناحيْه يريد أن يطير إلى الهاتف، وقبل أن يهمّ بالقيام سألته مريم أن يعيدَ عليها شرحَ مسألة ما.

نسي أو تناسى أو هرب، لا يدري، ولكنْ بعد ساعتين تقريبًا دخل فراشَه للنوم، أمسك الهاتف بيدٍ مُرتعشة ليجدَ عزّة تطلّ منها بحروف تتراقص على الشاشة.

(أستاذ حسام، تسمح لي أنْ أهاتفك في موضوعٍ هامّ بشأن مريم، اتّصل وقتما تحبّ، لن أنامَ حتى تتّصل).

تطلّع إلى الساعة متردّدًا؛ فالوقت قد تأخّر، ثمّ ترك هاتفه وأطفأ النّور وتمدّد في فراشه استعدادًا للنوم، وما أنِ اسْترخى جانبه حتى جاءه صوتٌ داخلي يقول له: لا يليقُ أن تتركها هكذا تنتظر اتّصالك، فتح عينيْه وظلّ محدقًا في الظّلام لا يدري ماذا يفعل، ثمّ التفت وهو يتنهّد ليتناول الهاتف فإذا برسالةٍ تأتيه منها مع لمسةِ يدِه للهاتف، (مازلت أنتظرك).

جاء صوتُها هادئًا هامسًا كثيفًا، كالنيل قبل الفيضان وهي تلقي عليه تحيّة المساء، خفق قلبه تلك الخفقة الاستثنائية، تضايق للحظة، ساد صمتٌ خدرٌ بين الاثنين حتى جاء صوتها:

- أستاذ حسام.

بصوتٍ متحشرج:

- نعم.

- الحمد لله على سلامتك.

- الله يسلمك.

- يضايقك اتّصالي؟

- أبدًا، فقط خشيت أن يكون الوقت تأخّر.

- عادةً أسهر كثيرًا، فلا عليْك إنْ كلّمتني في أي وقت.

لحظة صمتٍ حائر بينهما، هو لا يجُدُ حرفًا واحدًا ليقوله، وهي لديها كلّ كلمات الدنيا وتريد أن تقولَها، هو يحاول أن يلملمَ حروف الهجاء المُتناثرة ليكوّن بها أيّ كلمات، وهي تنتظر إشارة منه ليفيض نهر الحروف، ولكنّ المرأة تجد ألفَ حيلةٍ للحديث:

- كان سفرك أمس تابعًا للعمل؟!

- نعم!!

- أراك عُدت متأخّرًا.

- نعم، سهرت مع بعض أصدقائي القدامى بعد انتهاء العمل.

- لعلّ رسالتي أتتك في وقتٍ غير مناسب.

ودَّ لو أخبرها أنّها أتت كزخّةِ عطرٍ مفاجئة فأسعدته، ابتسم لنفسه وقال:

- أبدًا.

- هل تُحبّ القاهرة؟

تحاول عزّة أن تفتح مسارًا لجدول الماء للأرض العطشى.

- نعم أحبّها جدًّا.

انفتحَ السدّ الصغير فتدفّق الماء في شريان الحياة..

- أنا أحبّ الإسكندرية أكثر، وخاصّة بحرها، له سحرٌ ومذاق خاصّ، أحبّ البحر بشكل عامّ، ولذلك أنتهز أيّ فرصة لأطيرَ إليه، ذهبت منذ شهر لشاطئ المنتزه، وقضيت وقتًا ممتعًا هناك، كثيرًا ما أذهب له وحدي، أغافل الأولادَ وأمّي وأسافر باكرًا، أقضي وقتًا طويلًا أمامَ البحرِ، ثمّ أعودُ، الذي لم أستطعْ فعله أنْ أسهر هناك وحدي، فأضطرّ للعودة قبل الغروب.

خطرَ على بال حسام أنَّ لعزّة بالتّأكيد زوجًا، فقد تحدّثت عن أولاد لها، فسألها بتلقائيّة عن شيء، وكأنّه يريد أن يتأكّد من شيء آخر:

- وزوجك، هل يوافق على سفرك وحدك؟

سؤالٌ مفاجئ سأله بمباشرةٍ جافّة، ساد صمتٌ لثوانٍ، حتى قالت بصوتٍ مبحوح خافتٍ منكسر:

- زوجي تُوفي منذ عشر سنوات.

برغم أنّه تلقى إجابتَها بارتياح، إلّا أنّه شعرَ بحرجٍ بالغ، ربما من طريقته الحمقاء في السؤال فتنحنحَ قائلًا:

- أعتذر لك؛ لم أكنْ أعرف.

واصلَ الجدولُ تدفّقه، ضحكت كأنَّ شيئًا لم يكن، واستعادت مرحَها بسرعة، وجذبته لشاطئ المنتزة، وأكملت حديثها:

– في مرّة أخذني سحرُ الغروب كالنّداهة، لم أستطعْ أن أتحرّك من جمال الشمس بألوانها الحزينة، وهي تتدلّى بلهفةٍ لحضن البحر، نداءُ سكينة غزا روحي، وحلَّ مساء ناعم وغامضٌ في قلبي، لم أنتبِهْ إلّا بعد أن حلَّ الظلام، أسرعت لأدرك طريق سفري.

واصلتْ ضحكتها بطفولةٍ صادقة:

– كانت ليلة رهيبة، كلّها خوف، الخوف من ظلمةِ الطريق، الخوف من خوف أولادي، أمّا أمّي، فَلَها في قلبي رعبٌ خاصّ من يوم أنْ مات هاشم، وهي تبني حولي أسوارًا عالية بلا كللٍ ولا ملل، وصدقَ ما توقّعته حين دخلت من باب البيت قربَ منتصف الليل.

ببلاهة سألها:

– مَن هاشم؟

ما هذا الرّجل؟ لم تستطعْ أن تمنع ضحكَها بصوتٍ عالٍ حتى خُيّل له أنّ صوتها يجلجل في داره.

تتكلّم بسرعة كأنّها تخشى أن يفوتها شيء قبل أن تنتهي المكالمة، أو يفاجئها هوَ بإنهائها، ربما لا تدري ما تقول، ولكنّها تريد أن تتكلّم، فلا كلامُها مرتّب، ولا كان في حسبانها أن تقول كلّ هذا، فواصلت دون توقّف الحديثَ في

تفاصيل كثيرة ربّما لا أهمية لها، أمّا حسام.. فقد كان في حالة صمتٍ مندْهشة، حتى تفاجأ بسؤالها:

– أستاذ حسام، حضرتك معي؟ أين ذهبت؟!

ردّ بعبق الوردِ البلدي الحنون:

– أسمَعُكِ.

تمدّد حسام في فراشه مستسلمًا، وصوت الأنثى يسري في كيانه ليوقظَ كلّ شيء فيه دون أن يقاومه، الموسيقى التّصويرية التي كانت تتحدّث بها، دغدغتْ مشاعره، فتحت عزّة أبوابًا كثيرة ولم تغلقْها، أو هو لا يريدُ أن يغلقها، تقلّب في فراشه، والنّومُ يتسلل بدفءٍ لذيذ إلى جسده، آخر شيء تذكّره قبل أن تنسدل ستائرُ جفونه، أنّها طلبت أن تكلّمه في أمرٍ ما بشأن مريم، ومع ذلك لم تأتِ على سيرتها بحرفٍ واحد، غاب في النوم وعلى شفتيه ابتسامة.

أمّا عزّة، فقد كانت تهيم في عالم آخر، عالم لا نومَ فيه، حياة سرمدية بلوْنِ الشّفق البكر، (أسمَعُكِ) أجملُ كلمةٍ تردّدت في أذنيها، لا.. لا.. الأجملُ منها هذا الحسّ الوقور الذي نطقَها، لا.. لا.. الأروعُ هذا الإحساسُ الذي خرج منها كماءِ المطر المنهمر حين يعانق الأرضَ الشّراقي، تقلّبت في فراشها كثيرًا سعيدةً وقلقة، تتساءل: كيف سأكلّمه ثانية؟

هل يأتي الحبّ كلّه دفعةً واحدةً متدفّقةً فيغمرنا فجأة، فيخلط كلّ الأوراق، ويربكُ العقل ويهزّ الجسدَ هزًّا، ويرجرجُ الرّوح، يتوقّف المنطق،

وينسحب التّفكير لأبعد مسافة فيتحرك الحبيب مندفعًا كالأطفال غيرَ عابئ بأحد، لا قواعد ولا قوانين ولا ترتيب ولا حتّى بشر حوله يتحرّك بينهم بحساب، وبهذا اللامفهوم استيقظَ حسام على هاتف عزّة في الصّباح ليأتيه صوتها دافئًا متألقًا:

- صباح الخير أستاذ حسام.

وبصوتٍ مازال نائمًا:

- صباح النور.

- أيقظتُك؟

- نعم، استيقظت على هاتفك.

ودونَ أن تعتذر قفزتْ إلى حضنه:

- أنا تقريبًا لم أَنَمْ.

حسام يرتبكُ ولا يعرف كيف يردّ، فواصلت حديثها النّزق:

- تذكّرت أنّ هناك مجلسًا للآباء اليومَ في المدرسة، وكُنت أتمنّى أن تحضر لو أمكنك.

- ربّما يكون صعبًا اليوم، فضلًا عن أنّني لم أحضر مثل هذه المجالس من قبل.

ردّت بصوتِ طفولتها البريئة.، وهي ترجوه:

- أرجوك، أريد أن أراكَ لأعتذر لك عمّا بدر منّي.

- نسيتُ هذا الأمر، لا عليك.

- أرجوك، سأنتظرك.

قالتْ جُملتها الأخيرة وأغلقت الهاتفَ قبل أن يكرّر اعتذاره عن المجيء.

عزّة

صباحٌ صاخبٌ بداخلها، كان يسوقُها بلا تفْكير، مارست نفسَ الطقوس المعتادة، استمتعت أكثرَ بزخّات الماء البارد المتلهّفة، أغمضت عينيها وتخيّلت أنّها في جزيرةٍ بعيدةٍ عن الوجود كلّه، والمطرُ ينهمل لها وحدَها، كلّ ذرة في جسدها ترتعش بهناءٍ جارف.

توقّفت أمام المرآة طويلًا، متأمّلة ومعجبةً بتضاريسها المتناسقة، وثمار شجرتها الباسقة التي لم تحرّكها الأيّام أو تغيّرها، تنفّست بعمقٍ ممتزج بنشْوةٍ صباحيّة محلّقة بداخلها كالفراشة التي خرجت لتوّها من شرنقة الموت لتسوقها في الحياة نحو النار، أو النور.

صوتُ أمّها المعتاد يأتيها ليذكّرها بأنّ الوقت قد تأخّر، ارتدتْ ملابسها بتؤدةٍ غير معتادة، ومشطت شعرَها جيدًا قبل أن تضع الطّرحة عليه.

تبدّلت حياة عزّة منذُ صباح أمس لحظة دخول حسام مكتبها، ما السرُّ في هذا الرّجل الذي فتح مغاليقَ قلبها كلّه دفعةً واحدة، بلا قصدٍ منه أو حتّى محاولة!! مَن هذا الرجل الذي جعل كلّ الرّجال تنتحر في عينيها فلم يعدْ هناك على الكون سواه؟

عزّة لا تحاول التوقّف، وليس في استطاعتها، كرة الثلج تدحْرجت بقوّة من أعلى قمّة جبل الجليد الشّاهقة التي ظلّت تصعده لعشْرِ سنوات، فلم تعدْ تستطيعُ السّيطرة عليها، كأنّها عادت إلى سنوات حياتِها الأولى، استعادتْ فجأةً نزقَ مراهقتِها التي لا يقفُ دونَها شيء تريده، قوّة هائلة تقودها لحسام، ولا تعرف ولا تريد أن تفكّر حتى في سفْح الجبل الذي تهوي إليه، سيأتي إليها، ليس لديها شكّ، يقين يجتاحُها كالإيمان المُطلق بأنّ "حسام" سيشرق عليها بحضوره، هل سيمدّ يده بالسلام فيلمس كفّها، كهرباء تسري في جسدِها فتبتسم، ماذا لو ضمّها إلى صدره واقترب وجهُه من وجهِها فاختلطتْ أنفاسهما، تلك اللّحظة التي تسبق القُبْلة أروعُ بكثيرٍ من القُبْلة ذاتها، استيقظت عزّة فجأةً على صوتِ أشجان يناديها، فقفزت من مكانِها، كأنّما رأت صديقتها قبْلة الحلم.

حسام

يرتّب أوراقه المتناثرة على المكتب، يبحثُ عن أوراقٍ ضائعة، عقلُه مشتّت، جلس على مكتبه يشربُ فنجانَ قهوته بتؤدةٍ مُلفتة، يراجع الأحداث منذ لقائه بعزّة الذي لم يتجاوز ساعات، ولكنّه أحدثَ كثيرًا من الفوضى بداخله، عليه أن يعترفَ بتلك الفوضى التي لم يتعوّد عليها ولا يكابر، لخبطةٌ لذيذة وجريئة، جعلته يقفُ ليطلّ عليها، ولكنّه الآن يحتاج لأنْ يستدير ويعودَ بسرعة، كيف يتسنّى له ذلك؟!

عزّة

استدار عليها اليوم، بساعات بطيئة تنهشُها انتظارًا لرجلٍ لم يكلّف خاطره بالمجيء إليها، أو يتّصل حتى ليعتذر، كان يومًا قاسيًا صادمًا، تحسّ بوخزةٍ قوية في قلبها، ما هذا الرجل الجافّ الذي لم يُعرْ رجاءها أيّ اهتمام، وسحقَ مشاعرَها، مَن يظنّ نفسه حتى يفعل بعزّة هكذا؟!! عزّة التي يدور الرّجالُ في فلكها صباحَ مساء، قلبُها المتألّم يملؤه كمٌّ من الحقد والكراهية لهذا الرجل البارد يحرقُ العالَمَ كلَّه، ظنّت في لحظات أنه سيعوّضها عن حياتها، جرح كبرياءها ومرّغ أنوثتَها في الأرض، لن تعيرَه أيّ اهتمامٍ أبدًا أبدًا.

ظلّت مشاعرها تدور في فراغ الغيظ الذي يضغط عليها، وسيطر عليها منذ أن خرجت من المدْرسة بعد انتهاء اليوم الدراسي، ومع ذلك ظلّت لآخر ثانيةٍ تتلفّت حولها قبل ركوبها باص العودة لعلّ شيئًا أخّرَه.

في الباص، وضعت يدَها على وخزةِ قلبها المضطرب من الخفقان، وتتذكّر كيف كانت تعامل كلّ مَن يقترب منها بكبرياء، وتديرُ عواطفهم بنظراتِ عينيها، حتى هاشم نفسه الذي عشقها من لحظة أن رآها، كانت تعرف جيدًا كيف تدير رأسَه بلفتةٍ واحدة، ثمّ يأتي هذا النّكرةُ العجوز الذي لا تنظر له أيّ امرأة فيفعل هذا بكلّ برودٍ وغرور!!

دخلت أمّها عليها فوجدتها تبكي، انزعجتْ واقتربت منها، وسألتها بلهفة:

- عزّة!! ما بكِ؟

فارتمتْ في حضنها وهي تنَهْنه:

- قلبي يؤلمني يا أمّي.

أسرعت فاطمة إلى الهاتف واتّصلت بطبيبها، الذي أوصاها بأنْ تأتي للمستشفى في أسرع وقت.

الدكتور وسام الباشا، الرّجلُ الوحيد في العالم المسموحُ له بالاقتراب من عزّةَ إلى حدّ الشعور بصوتِ أنفاسه، ولمسَها مباشرة ودونَ أدنى خوفٍ من أحد، تشاهد أمّها ذلك ولا تعلّق، برغم أنّها لا تتوقّف عن تلقينها محاضراتٍ يومية عن الخوف من الرجال، الاستثناء الوحيد كان مِن نصيب الدّكتور وسام، رجل تخطّى السبعين ولكنّه متدفّقٌ حيوية، يبدو ذلك من وجهه الأبيض المكتنز والمشرّب بحمرةِ العزّ، بالرغم من تجاعيد السّنين التي حفرت خريطتها على وجهه، شعرُه أبيض ناعمٌ كالفضة كثيفٌ طويل، تودّ عزّة في كلّ مرّة أن يقترب منها.. أنْ تسير بيدِها على شعْره ليتخلّل أصابعها.. تفتحَ له أزرارَ قميصِها عادةً بسعادةٍ خفيّة لا تغيب عن مشاعرها، الرّجل لم ينظرْ في عينيها نظرةً ذات مغزى، أو صدرتْ منه شاردةٌ أو واردةٌ، لا تغيب عن الأنثى طوال تاريخِها المرضي، فقط كان كلّ اهتمامه بخصوصيّة حالتها النادرة ومتابعتها، هذه المرّة فقط التي نظرَ لعينيها نظرةً مباشرة حين تردّدت أن تفتح له أزرارَ قميصها ليضع السّماعة، فهربت من عينيْه إلى وجْه أمّها الجامد كالصّخر، لا تدري ما الذي جعلها تفعلُ ذلك، لحظة غريبة جاءت بتلقائيّة، أمّا نظرة الدكتور وسام فقد كان معناها أنّ هناك سرًّا يُحيط بقلبها،

ظلّ الطبيب منتظرًا بصبر حتى مدّت الأمّ يدَها لمساعدتها، ولكنّها منعتها بهدوءٍ وفتحت أزرارَ أسرارها، يكفيها الطبيبُ فقط، أمّا أمّها، فلا..

عندما عادت عزّة كان المساءُ قد حلّ ساكنًا هادئًا كعادته، وقد تمدّد هذا الهدوء إليها، في غرفتها، أمسكتْ بهاتفها، واتّصلت بالدكتور وسام، فحادثته، ثمّ آوتْ إلى فراشها ونامت.

انتبهتْ من نومها وقد انتصف الليل، شعرت أنّها نامت كثيراً، تأودت في فراشها وتثاءبت بعمق، ثمّ تطلعت لهاتفها، فوجدت حسام هناك.

حسام.

لم يعشْ حسام في حياته متردّدًا هكذا، صراعٌ رهيب بداخله بين إرادتيْن، لكلّ منهما قوّته وتأثيره، هو يفهمُ جيدًا أنّ إرادةَ الموت التي عاشت معه كانت أقوى من كلّ مغريات تعرّض لها، خاصّة بعد تجربةِ المعتقل وكلّ ما حدثَ بعدها حتى تخلّت عنه زوجته هناء وابنة خاله تاركةً له مريم طفلةً صغيرة لم تتجاوز العام.

مريم أعادت له قدرًا مِن الحياة ليستطيع مواصلةَ الطريق، خاصّة وأنّها تعلّقت به هي الأخرى تعلقًا كبيرًا، وصارتْ له كزهرة الحياة التي تمنحُه كلّ يوم دفعةَ أمل قويّة تعينه على مواصلة الرّحلة، نعم.. لم يقهرْ ذلك إرادةَ الموت بداخله، لم تحرّكً اليأس الساكن بقلبه كالمرض المميت، الذي يجعله يبتسمُ فقط ليطمئنَ أحبابه أنّه مازال بخير.

اليوم فقط تضاعفتْ إرادةُ الحياة بداخلِه حين نادتْ عليه عزّة، وزادت بقدرٍ كبير لدرجة أنّها تتجرّأ وتدْعوه للاستجابة لندائها.

حسام وقعَ بين حيرتيْن عظيمتيْن، حيرة عدم الاستجابة المتغلغلة في أعماقه، وحيرة الاستجابة النّاشئة توًّا لتصير بمثْل هذه القوّة، قرّر الذّهاب لعزّة آلاف المرّات، وقرّر في ذات اللحظات عدم الذّهاب، بعد أنْ شرب قهوتَه في العمل، وقرّر عدم الذهاب فوجئ بشخص آخر بداخله، يذهب للمدير ليطلب إذنًا بالانصراف، ركب سيارته ولكنّه توجّه لمكانٍ آخر غير المدْرسة، ثمّ دار الصّراع وهو يلفّ ويدور بالسيارة فيقترب من المدْرسة ثمّ يبتعد، حتى كاد يصرخ، وفي النهاية حسمتْ مريم كلّ شيء بمكالمةٍ هاتفية فغيّر طريقه إليها.

مَن فاز، ومَن انهزم؟ الموت أم الحياة؟ ربّما بدا ظاهريًّا أنّ إرادة الموت انتصرت، ولكنّ شيئًا جديدًا اهتزّ بقوّة داخله كالنهر يستعدّ للفيضان.

في قواعد الزّراعة التي تعلمها، لا ينبتُ ساقٌ قوي أبدًا في سويعات قليلة، هذا أمر يحتاج لسنوات، ما هذا إذًا؟ سؤالٌ بلا إجابة وضعَه في حيرةٍ حتى أجابته عزّة في المساء.

حسام وعزّة

(أرجو أن تتقبّلي خالص اعتذاري، فقد وقعتُ اليوم بين حيرتين عظيمتين، آتيك أم أهرب، وظللت أدور بسيارتي متردّدًا لأجد نفسي بلا معالم ولا طريق، هل لديك تفسير لذلك؟).

هكذا وجدتْ حسام حين استيقظت قد لخّص حالَه في رسالةٍ قصيرة، جعلتها تبتسم، وهي تتذكّر كميّة الغضب التي أصابتها منه، وحجم الحقد

والكراهية التي أوصلتها لزيارة الدكتور وسام، لم تفكّر كثيرًا، ولكنّها كتبت باندفاع، وكلّ ذرّة في جسدها ترتعش.

(ربّما كان ذلك هو ما يسمّى بالحبّ!؟).

لم يتخيّل أن تكون عزّة بهذه القوّة، وهذا الاقتحام، فقد ظنّ أنّ رسالته ستغلق الباب، فإذا بها تفتحه أكثر، سيطرَ الصّمت عليه، فهو لا يدْري كيف يُجيب، فهربَ كالعادة لحجرة مريم ليشغل نفسه عنها، وظلّت عزّة صامتةً تتلوّى على جمر الشّوق طول الليل في انتظار الفرج.

تهبّ علينا نسائمُ الهوى، فتأتينا بعناقيدِ الضّياء مُزْدانة مُتوالية، لتشعل الليلَ باللهفة والأرق، من يمكن له أن يقاومَها، خاصّة إذا كانت المرأة هي عزّة، وما أدراك ما عزّة حين تتدفّق، لا تفكّر في الخطْوة الأولى لمَن.

لم يتحدّثا عبر الهاتف تلك الليلة لأنّه كالعادة لا تسعفه مشاعرُه بالكلمات، وهي تنتظر بلهفة على جرفِ الهوى أن يتحرّك هذا الرّجل ناحيتها ولو بكلمةٍ واحدة، ثمّ قرّرت دون ترتيب أو النظر حتّى في عواقب ما تفْعله، أن تكسرَ حاجزَ الصمت الحائر بينهما، وأنْ تتجاوز عن ضيقها من صمتِه، فاتّصلت به في اليوم التالي، بعد أن قضتْ نهارًا صعبًا في المدْرسة، صامتة، شاردة، متوتّرة، في انتظار أن تحلّ العتمة، فاشتعلتْ مصابيح الشوق فأسرعت للهاتف، وبادرته بالحديث.

ربّما أنقذته من ورْطته وحيرته، من شوقٍ جميل بدأ يدبّ في أوصاله، يريد أن يحادثها، وبين تردّده الذي يمكن أن يقتل الأشياء الجميلة في مهْدها.

ومِن تلك الليلة، أصبحت نجومُ السماءِ والقمرُ في كلّ دوْراته على موعدٍ مع الأحاديث الليلية بينهما، كلمات وحوارات، وأسئلة جميلة، تدفع بالنّهر أكثر، تطوف وتجول حول تفاصيل حياة كلّ منْهما، وتأتي وتذهب حول دائرة تحاول عزّة أن تجذبَه إليها دون استجابةٍ منْه سوى الصمت الذي يقطع الكلام، أو يجيب به على سؤالٍ حائرٍ معلّق، عرفتْ بإحساس الأنثى أنّ حسام سعيد باقترابهما، وأنّ لهفةً في صوته لا تخفى عليها لو تأخّرت في الاتّصال، وقلق بالغ لو شكت له من تعبٍ ما، حتى لو كان مجرّد صداع عابر، ولكنَّهُ لن يبادرَها، أو يقترب بالخطوة التي تتمنّاها أيّ امرأةٍ من حبيبها، شيء ما يحول بينهما لا تعرفه، ولكنْ بحضوره الطّاغي لحياتها تشعر بسعادة تملؤها، تستعيد شيئًا فقدتْه في غمرةِ أحزان السنين، إنّه نزقها واندفاعها، إحساس لا تستطيع السّيطرة عليه حين يحلّ على روحها، يجعلها آمرةً لكلّ شيء تريد أن يأتيها فيأتيها.

وبغريزةِ الأنثى بدا حسام في أحاديثه معها ضعيفًا حائرًا يمدّ يدَه كالأعمى، يتلمّس الطريق، وهي ستمدّ يدها إليه، وسيستسلم لها، فقرّرت- بعد أن تعبت من الانتظار- أن تقوم بخطوة أكثر جُرأة، لم تخطرْ له على بال.

على شاطئ البحر، التقيا، هو لا يعرفُ- على وجه التحديد- كيف واتَتْه كلّ هذه القوّة، هل كان يُريدُ أن يفعل ذلك؟ أن يتمرّد على السّجن الذي عاش عمرَه فيه، مرّة مرغمًا ومرّة بكامل إرادته، ما الجديد في الحياة التي عاشها يائسًا من كلّ شيء، حتى بات يَعُد أيّامه في انتظار الموت، ما الذي تبدّل فجعلَ الأرض البورَ القاحلة التي عاش فيها تتهيّأ لمواسم زرع وحياة

وحصاد، منذ أتته رسالةُ عزّة ليلة أمس (في الصّباح سأتوجّه للإسكندرية، أتمنّى أن أراك هناك، على شاطئ المنتزة، لا تخْذلني هذه المرّة أرجوك).

لم يقاوم، ولم يحتَرْ، ربما خاف، ارتعش، لكنْ لن يمنعه شيء، لدرجة أنّه توجّه في الصباح الباكر للإسكندرية مخافةَ أن يحول بينه وبين لقائها شيء.

وعلى شاطئ البحر، وقف مستسلمًا لأحْضان النّسمات اللطيفة، غارقًا في سكون عميق، ولكنّه مضطرب.

في طريقِ السّفر كان هناك متسعٌ لعزّة أن تتحدّث لنفسها أخيرًا، أن تلتقط أنفاسها من هذا الاندفاع الجامح تجاه حسام، شيء واحدٌ أصبحت على يقين منه، أنّها لأوّل مرّة في حياتها تندفع عاطفتها نحوَ رجل، تتذوّق طعمًا مختلفًا من اللّهفة، لأوّل مرّة يبكيها رجلٌ من فرْط امتلائها به، تحاول أن تتخيّل ماذا سيحدث حين يلتقيان، أو ماذا سيقولان أو يفعلان، أخيرًا ستلتقي به وجهًا لوجه، ستراه ماثلًا أمامها منذ زيارته للمرّة الأولى بالمدرسة.

هل هذا هو الحبّ الذي طالما قرأت عنه؟ يجمع بالروح كلّ هذه المتناقضات!!

تستعيد المكالمةَ الهاتفية التي أجرتها مع طبيبها بعد آخر زيارةٍ له، لم تستطعْ يومها النوم حتى تُهاتفه، تريد أن يتبدّد خوفها، كانت تتذكّر نظرة الدكتور وسام لها حين تردّدت في فتح أزرار قميصِها، تشعر الآن أنّه يريد أن يقول لها شيئًا ما.

جاء صوتُه عبرَ الهاتف طيبًا كالبلسم، رحّبَ بها قائلًا:

- كنت أنتظرُ اتّصالك.

ضحكتْ عزّة ضحكتَها الطفولية:

- طبيب روحاني حضرتك؟!

بادلها الدكتور وسام الضحك:

- تلك اللحظة التي أنتظرُها منذ عشر سنوات.

- أيّ لحظة تقصد؟

- أنْ يقع قلبك في الحبّ، ثمّ تسأليني أيقوى قلبي على ذلك؟!

- كيف عرفت أنّه وقع في الحبّ؟

- همس لي، وأنا أستمع لدقّاته اليوم عبر السماعة.

- وتعرف مِن دقات القلب إن كان واقعًا في الغرام؟

ضحكَ الدكتور وسام بأبوّة حانية:

- نَسيتِ أنّني طبيب قلوب؟

ابتسمتْ عزّة من خلال غلالةٍ رقيقة من الدّموع:

- وها أنا ذا أسألك، إن كان قلبي الواقعُ في الغرام يقوى على تحمّله، أم لا؟

- يا عزّة، قلبُك سليم، قلت لك مرارًا ذلك، وبه قوّة الشّباب والاندفاع، لا تقيّديه بالخوف.

- الخوفُ يا دكتور وسام يقتلني.

- أتفهّم ذلك، ولكنّ الهروبَ ليس حلًّا، مواجهة الخوف هي الحلّ الأمثل دائمًا، يجب أن تغيّري نظرتَك للحياة، عادة يأتينا الخوفُ والجزع بقدْر لهفتنا في الحصول على الأشياء، فإذا ما فقدناها أصابتنا الحياة في مقتل.

- والحلّ يا دكتور؟

- أعرفُ أنّ الحلّ ليس سهلًا على طبيعتك الشخصية، ولكنّي لا أنصحك أن تتركي فرصة ذهبيةً لتستعيدي حياتك كامرأة، سيساعدك ذلك على المستوى النفسي والعلاجي بأقصى ما أتمنّاه لك.

- حتّى لو انْكسر قلبي مرّة أخرى؟

- الحياةُ لا معنى لها دونَ الانكسارات، ولكنّها جميلة تستحقّ المغامرة، المهمّ أن يقع الاختيار الصحيح، ويجب على قلبك أن يتعوّد من الحياة على ذلك، وأن يكون لديه مضادّات من الوعي بطبيعة الحياة ليتلقّى الصدمات إذا ما حدثتْ بصبر وجلد.

- تشعرني يا دكتور دائمًا أنّني قادرةٌ على فعل ذلك.

- أنت بالفعلِ قادرةٌ على هذا التحدّي، أثقُ في ذلك، وتاريخك المرضي لديّ، وأنا معك دائمًا واتّصلي بي وقتما تشاءين.

نامت عزّة بعمق بعد المكالمة قريرة العين، نامت وهي تشعرُ أنّها تملك أكبرَ وأقوى قلبٍ في العالم، حتى استيقظت منتصفَ الليل لتواصل طريقها في الحصول على حسام.

استيقظتْ وقلبُها يعصف بداخلها، ليس ذلك العصف الذي كاد يودي بحياتها عدّة مرّات، ولكنّه خفقٌ جديد، كأنّه طائرٌ فرِحٌ بالنور حين يشرق في بكور الصّبح، فينطلق سعيدًا يضرب بجناحيه فرحًا ليعانق الحياة.

شاطئ المنتزة، يا لَه من ساحر غامض جذّاب، لم يتّفقا على مكان محدّد للقاء، لم تفكّر في ذلك، موقنة أنّها ستجده، قفزَت إلى قلبها ذبالة خوفٍ صغيرة، قالت: ربّما لن يأتي، ولكنّها نفخت فيها بكلّ قوّتها، وقالت بإصرار: سيأتي، ولكن أين سأجده؟ ولأنّ لجنون عزّة الذي استيقظ بعد سبات عميق فنونٌ كثيرة؛ فقد فكّرت في فعْل شيء يتناسب مع نزقِها القديم المعتاد، وبحركة تلقائية مسحتِ الشاطئ الخالي بعينيها لتتأكّد أنّه ممهّد، وأنّ الأشخاص المتناثرين بعيدين بقدرٍ كافٍ عنها، ثمّ أغمضت عينيها وبدأت في السّير وراء قلبها، ابتسمت وهي تقول لنفسها: يموت الزمّار، اتّسعت ابتسامتها أكثر، وقالت: يا مجنونة، ولو رآك ماذا سيقولُ عنك؟ فردّت على نفسها: ليعرف منذُ البداية أيُّ امرأةٍ سيحبّها، فتحت عينيها برهة ثمّ أغمضتْها وأخذت نفسًا عميقًا ملأت به رئتيها بهواءِ البحْر اللعوب، وبدأتْ في تتبّع بوصلة مشاعرها، قطعتْ خطوة، ثمّ تجرّأت فصارا خطوتيْن، ثمّ تلفّتت كالأعمى بوجْهها يمينًا ويسارًا يستدلّ بمشاعره على الاتّجاه، توقّفت، ملأت رئتيها مرّة أخرى عدّة مرّات، ترتوي من نزقِ النّسيم، تجرأت فسارت خطواتٍ أكثر، توقّفت مرّة أخرى، ثمّ ضربت بجناحي قلبها كالفراشة تستشعرُ الضوء من بعيدٍ فترفُّ له بسعادة، دارت حول نفسِها، ثمّ خفق قلبُها إلى هذا الاتّجاه فسارت فيه بلا تردّد، وقد مدّت ذراعيها أمامها تتحسّس خطواتها، ثمّ توقّفت متردّدة وقد

اعتراها شيء من الخوف، فقفز إلى مخيّلتها صوت هاشم وهو يناديها بصوتِه العالي في رؤيا رأتْها من قريب: اعْبري، اعْبري يا عزّة، فتشجّعت وعبرت إلى الضفّة الأخرى، وإذا بجسدِ إنسان يلامس يديْها ففتحت عينيها بسرعة، فإذا حسام بكلّ كيانه أمامَها، صرختْ من روْعة المفاجأة وقفزتْ في الهواء كالفراشة صارخةً بكلّ طاقتها:

- حسام.. حسام..

وظلّت تردّد اسمه، وتقفزُ كطفلةٍ صغيرة جاءتها حلواها المحبّبة فجأة، ثمّ ارتمت في حضنه.

سيمضي هكذا الحبّ دائمًا في جوانحنا سؤالًا بلا إجابة، مثل هذه الضمّة التلقائية التي وقعت بينهما الآن، ستمضي كذلك بلا تفسير منطقي.

انتبها، لا يدري أحدُهما مَن انتبه أوّلًا، ليس مهمًّا، تضرّجت وجنتاها بحمرةِ خجل اعْترتها من ردّ فعلِها التلقائي حين فوجئتْ به أمامها وبين يديها، أمّا هو فقد خرج من ذاته غارقًا في بهاء وجْهها، همستْ وهي تهرب بعينيها اللّوزيتين:

- حسام، لا تنظر إليّ هكذا.

فانتبه مبتسمًا وهو يدور في فلَكِ اللحظة:

- حسام هكذا دونَ أستاذ!؟

- نعمْ هكذا، حسام دون أستاذ.

فضحكَ طويلًا بسعادة، وضحكتْ طويلًا بسعادة، سعادتان عذبتان التقيا، كقُبلةٍ تستعيد بها الحياة، ثمّ قالت:

- أخيرًا، رأيت وجهَ حسام وهو يضحك.

فواصل ضحكَه السعيد، وواصلت كلماتها:

- لو رأيت وجهك كم هو جميلٌ حين يضحك لما قطبت جبينك أبدًا.

نظرَ إليها بحنان فارغ، وسألها:

- هذا غزل؟!

- نعم، هذا غزل.

سيجري الوقتُ بلا شكّ، ولن ينتبها إليه في غمْرة سباق العواطف المحموم بينهما، جلسا على الشّاطئ، تناولا إفطارًا أعدّته عزّة، تلقائي وبسيط، ولكنّه مُشبع بالحبّ، وارتشفا شايًا دافئًا كقلبيْهما، ثمّ سارا على شاطئ البحر، وتحدّثا كثيرًا، ثمّ جلسا في ظلّ شجرة طويلة باسقة، استدارتِ الشّمس للجانب الآخر، نظرا إليها كأنّهما يرجوانِها أن تبقى قليلًا.

تطلّعت إليه برجاء:

- أعرفُ أنّ الوقت مضى سريعًا، وأنّه لا يجب أن أتأخّر، ولكنّي أرغب أن نرى الغروب معًا قبل عودتنا، لا تفوّت عليّ تلك اللحظة فأنا لا أعرف هل ستتكرّر هذه الفرصة، أم لا؟

ابتسم لها موافقًا، فتشجّعت:

- أعرفُ مكانًا ساحرًا، تشعر فيه أنّك تجلس وسط البحر.. لا على الشاطئ.

جلسا متجاوريْن صامتين في خشوع اللّحظة، وقد بدأ الشّفق يميل للاحمرار، وصوت الأمواج هادئ ناعس، ونسمة باردةٌ تتسلّل للجسد فتُغريه بالقرب أكثرَ من حبيب يبحث هو الآخر عن الدّفء في حضن الآخر.

همستِ الشّمس للمغيب بتؤدةٍ وسكينة، القرص كاملٌ مُستدير، بهدوء يتدلّى مستسلمًا لحضن البحر، تدريجاتُ الألوان في السّماء تبهجه برغم الحزن العام المعتاد للمشهد، يشعر فيها بنبض الحياة حتى والنّهارُ يلتقط أنفاسَه الأخيرة، وطاقة أمل غمرته وأيقظت كاملَ مشاعره حين وضعت رأسَها على كتفه وقد انتظمتْ أنفاسها في سِنةٍ آمنة من النوم، فاستكانَ لقربها وغرق في حمرة الشّمس الأخيرة متمنيًا ألّا تغيب.

في طريق العودة، كانت سعيدة وهي تجلسُ بجواره في سيارته، وتمدّدت سعادتها أكثر حين اقترحَ عليها أن يعودا معًا على أن ينزلها قربَ مدخل البلدة حتى لا يراهما أحد، وعلى الرغم من هذا الحبور لصَحبتْه أطولَ فترةٍ مُمكنة إلّا أنّ الصمتَ ساد أغلبَ زمن الرّحلة، كأنّهما اطمأنّا لهذا القرب، فصار كلّ منهما يحادثُ نفسه، هي تقول لنفسها: لم أعشْ يومًا كاملًا بهذه الفرحة الصافية التي لم ينغّصها شيء في حياتي كلّها، حتّى التفكير في لحظة الافتراق طردتْها شرّ طردةٍ منذ الصّباح، ربما تمرّ على خاطري الآن مسحةُ شجنٍ وأنا أرى الطريق يسير بنا مسرعًا، وددت لو قلتُ له: أبطئ قليلًا.

وهو يقولُ لنفسه: مَن هذا الشخص الذي رأيته هذا اليوم؟ أين كان؟ وكيف ظهر فجأة هكذا في حياتي، هل كان موجودًا دون أنْ أراه، أو أشعر به؟ ما هذا الإقدام الذي كان عليه؟ كان جريئًا متدفقًا، حيويّة الشباب تملؤه، كأنّما عاد بي لأكثر من ثلاثين عامًا.

أمّا السّؤال الذي طرق مشاعرَهما بقوّة، ماذا بعد؟

عادتْ عزّة وقد تعلّق قلبُها وكيانُها كلّه بحسام، أحسّت أنّه هدية الزمان لها بعد طول حزنٍ ومعاناة، أيقنت أنّ القدر وضعَه في طريقها لحكمةٍ جليلة، فلم يخطرْ لها على بال أن يدقّ الحبّ قلبَها بهذه القوّة بعد هاشم، ولا أنّها يمكن أن تكمل رحلتَها في صحبة رجلٍ آخر، ولم تتصوّر- على مستواها النّفسي- أن تمنح ثمارَها اليانعة ليَدِ رجلٍ أيًّا كان ليقطفها.

حسام كسَرَ هذا الحاجز بتلقائيّة العطر الجميل حين يحيي الرّوح من خطايا الحياة، لم تفكّر أو تخطّط، فقط يمدّ يده إليها وستلقي بنفسِها في بحاره العميقة، كم تتمنّى ذلك، وكم تشتهي أن يذوّبها بين ذراعيه حبًّا ودفئًا وحنانًا.

هذا الرجلُ فقط، يمكنُها أن تمنحه كلّ حياتها بلا مقابل، فالحبّ يجرفُها كمياه النيل حين تعلو قبل الفيضان فتصير قويّةً وكثيفة تجنح بكلّ مَن يقف أمامَها بهدوءٍ حاسم، حتى إذا جاء الفيضان وارْتفع فلا يقف دونه شيء، لا أقوى منه إلّا ذلك الإحساس الذي يغمر قلبها الآن.

تمدّدت عزّة في فراشها، والدّموعُ تغسل وجهَها بغزارة، لم تستطعْ منعها، فهي تسيل وحدَها متدفّقة، ليست دموعَ حزن، أو ألم، ولكنّها دموعُ الحبّ والفرح، ما أروعها.

كانت حروفُ الهاتف تهتزّ أمامها وتختلط، ولكنّها لم تخطئ في حرفٍ واحد، وهي تكتب لحسام:

(إذا ذُكرَ الحبُّ خلتُ أنّه أنت، وإذا ذكِرَ الشّوق خلتُ أنّه أنا، فكيف أنتَ الآن يا أنا؟).

ثمّ تدفّقت الدّموع أكثر وهي تبتسم، وضعتْ هاتفها ووقفتْ في غرفتها وفتحت ذراعيها كطائر في مواسم الغزل يحلّق عاليًا بنزقٍ وجنون، وظلّت تدور حول نفسها حتى أصابها اَلدّوار فارتمتْ على سريرها، وراحتْ في سباتٍ عميق.

أمّا حسام، فمازال به بقيّة مقاومةٍ وخوف.

صبيحةُ اليوم التالي، وفي مكتبها بالمدْرسة، كان وجهُها في صفاء الحليب، وعيناها ساهمتيْن في وسامةِ عينيه، قلبُها ساكن، ينبضُ بمتعة، كأنّه يتناول فنجانَ قهوةٍ صباحي باسترخاء في شرفة مطلّة على شاطئ بحر ممتدّ بلا نهاية.

دخلتْ أشجان بعفويّة، وألقت عليها تحيةَ الصّباح، فالتفتتْ عزّة بتؤدة سكْرَى، وردّت التحية مُبتسمة، فاقتربتْ صديقتها وانحنَتْ واحتضنَتْها، فقالت لها:

- اجلسي، أنتظرك منذ الصباح الباكر.

جلستْ أشجان بجوارها، ونظرت لها نظرةً طويلة مُستفهمة:

- عزّة.

- نعم.

- هذا الوجه على طولِ عشرتنا منذ أن رضعنا معًا، وحتى هذه اللحظة لم أره قبلًا.

ابتسمتْ عزّة برضا:

- نعمْ يا أشجان، إنَّه وجهُ الحب.

- واااااو.

هكذا سجّلت أشجان حالةَ الاندهاش التي غمرتها دون مقدّمات، ثمّ قالت بلهفة:

- أمامي ثلاثُ حصص فارغة دفعةً واحدة دون تدريس، لا تفوّتي حرفًا واحدًا، احْكي هيّا.

حكتْ عزّة لصديقتها المقرّبة كلّ شيء منذ دخلَ عليها حسام لمتابعة خطاب الاستدعاء لابنته وحتّى اللحظة التي احتسى فيها قلبُها فنجانَ الشاي على شاطئ البحر.

استمعتْ أشجان لحكاية عزّة، وكانت تصعدُ مع كلّ كلمة جبلَ الدّهشة، حتّى وصلت لذروته وأنفاسُها تكاد تتقطّع، وقبل أن تتفوّه بكلمةٍ واحدة عاجلتها:

- أشجان، لست مستعدّة للاستماع لأسئلتك التي لا تنتهي، على الأقلّ في هذه اللحظات، أعرف أنّ الأمر يبدو جنونيًّا، ومضى سريعًا كالبرق

الخاطف، حتى مشاعره تجاهي لستُ على يقين كامل بها، ولكنّه منَحَني حفنةً من السّعادة، يمكنني بها أن أمنحَه عمري كلّه، أرجوك يا أشجان احْضنيني، ضمّيني بقوّة.

حسام

طارَ حسام إلى القاهرة، اتّصل قبل سفره بصديقيْه وليد وعمرو، وشدّد عليهما أن يتقابلوا، واتّفقوا على تناول الغداء في منزل عمرو، الذي استقبلهما بترحابٍ كبير، وعلى باب المنزل بدأت المعاركُ الجانبية المحبّبة لحسام.

– لو تكرّمت ياوليد، اخلعْ حذاءك عند الباب.

كان وليد قد خطا خطواتٍ داخل البيت النّظيف المرتّب، والذي تشعّ منه روائح زكية، فالتفت إليه:

– أنا داخل بيت وليس مسجدًا.

– البيت كالمسجد له حرمةٌ يا وليد باشا.

– مازلت تفلسف الأشياء وتلفّ وتدور حتى تجد لكلّ شيء دليلًا دينيًّا.

بنفادِ صبر:

– يا عمّ وليد، أمّ الأولاد تعبتْ في تنظيف البيت، وأنت تدخل هكذا محمّلًا بتراب الشارع إلى السّجاد.

– هكذا قلِ الحقيقة، أنت خائفٌ من زوجتك، لا تتمسّح إذًا في الدين.

عمرو وقد جحظتْ عيناه:

– الليبرالية علّمتك البوهيمية، اخفضْ صوتك لو سمحت.

– أخفض صوتي لأنّ للبيت حرمةً كحرمة المسجد، أم أنّك خائفٌ من وزارة الداخلية؟

وقبل أن يجيب عمرو ويبدأ النزاع المُعتاد، لحقهما حسام مبتسمًا:

– شَعْرُكما شابَ ومازلتما تتعاركان عراكَ الشّباب، وفّرَا هذه الطاقة حتى تستمعا إلى ما جئتكم له.

ضحكوا بودّ مزروع في حناياهم، فقد كانت صحبتُهم على اختلاف مشاربهم عميقةً وصادقةً.

في غرفة الجلوس جلسوا يتجاذبون أطرافَ الحديث لحين وضْعِ السّفرة بدأه عمرو:

– يبدو هذا العام ٢٠١٠ من بدايته سيكون مختلفًا عن الأعوام السابقة من حكم مبارك.

– فعلًا، الأحداث تُنذر بوضعٍ مختلف.

هكذا ردّ وليد مباشرةً على كلام عمرو، تفاعل حسام مع البداية السّاخنة للحوار رغم خوفه أنْ يجرفَهم الحديثُ في السياسة بعيدًا عمّا جمعهم بشأنه:

– ربّما يبدو السّطح هكذا، ولكن حالة التكلّس السياسي والجمود الذي تُصرّ عليه القيادة السياسيّة، يمكن أن يتحرّك بأحداث كهذه تجري كلّ يوم منذ سنوات في مصر؟

وليد:

- لا شيء يمكن أن يبقى على حالته مهْما طال الزمن، رأس السلطة في مصر أصبح عجوزًا، والشّارع يزداد كلَّ يوم وعيًا وغليانًا.

حسام:

- الدّكتور محمد البرادعي أظنّه وصلَ مصر أواخر فبراير الشهر الماضي، هل تتصوّرا أن يُحْدث قدومُه حراكًا في الحالة السياسية بمصر؟

عمرو:

- ولو أنّي أختلفُ مع هذا الرجل كثيرًا، ولي ملحوظات على أفعالٍ دولية كثيرة له، إلّا أنّ قدومَه يمكن أن يُحْدث فرقًا، لاسيّما وأنّ أغلب القوى السياسية تلتفّ حوله.

التفتَ وليد لعمرو، وبقدرٍ قليل من الحدّة:

- البرادعي سيقلب البلدَ رأسًا على عقب، وسيكون قائدَ المرحلة المقبلة وليس مجرّد شيء يمكن أن يُحْدث فرقًا.

الحوار يتصاعد ساخنًا..

قال عمرو ردًّا على وليد:

- البرادعي ابن العالم الغربي وصنيعتُهم، ولا يمكنُ أن يحملَ أبدًا مشروعًا يتّسق مع هوى الشّعب المصري.

- الهوى هوايا..

بدأ وليد في السّخرية، بينما حسام يضحك، وعندما تهيّأ عمرو لإلقاء قذائفه في وجه وليد، نادى عليه ابنُه ليبلغه أنّ الطعام جاهز.

فقال وليد:

– هذا هو الهوى بحقّ.

ردّ حسام:

– الجدلُ السياسي حريقٌ لا ينْتهي، يكبر أو يصغر، ولكنّه لا ينطفئ في الدول العظمى والصّغرى، الغنيّة والفقيرة، تمارس الديمقراطية أو الديكتاتورية، أو أيّ نظام حكم.

وهكذا استمرّ النّقاش حامي الوطيس، حتّى شاي بعد الغداء، ولم يوقفه إلّا حسام الذي كان حريصًا على اسْتثمار الوقت فيما جاء له:

– توقّفا أرجوكما.

كأنّهما انْتبها فجأة، فواصل حسام:

– منذ وعينا وأقلْ لكُما أنَّ مساحة الأرضية المشتركة بينكما كبيرة بحجم الوطن العربي كلّه، ولكنّكما تختلفان في التّفاصيل، غبيان لا تريا هذه الحقائق، وتعشقا الجدال.

وقبل أن يردّ أحدهما أشارَ حسام لهما بالسّكوت، ثمّ وقف، وبحركةٍ من ذراعيه غلبَ عليها الطابع المسرحي، كأنّه يختبئ خلفَها وقال:

– الميكروفون معي الآن، لا أحد سيتكلّم سواي إلّا إذا أذنت له.

أشارَ له عمرو باسطًا يده أن تفضّل بالحديث، فألقى حسام بمفاجأته ودون مقدّمات:

- تتصوّرا؟ هناك امرأة تُحبّني لدرجة الجنون.

صمتُ المفاجأة حطّ على رأسيْهما، همَّ وليد بالكلام فأشار حسام بأصبعه السبابة، وبحزم:

- وليد، الموضوع جادّ جدًّا، ولا يحتمل أن نضيّع الوقت في المزاح.

اعتدلَ وليد في جلسته، وأخذ موضعَ الجدّ، أمّا عمرو فقد دعاه للجلوس مرّة أخرى، فجلس وأخذ نفسًا عميقًا، وظلّ صامتًا لبرهةٍ كأنّه يستجمع كلّ الأحداث منذ بدايتها، ثمّ بدأ يحكي.

خيّمَ صمتٌ عميق على ثلاثتهم، قطعه عمرو:

- حان دورُ القهوة.

أومأ الاثنان بصمتٍ بالموافقة، وبدأ الحديث يعود مرّة أخرى مع فناجين القهوة بدأه عمرو بسؤال:

- في ضوء كلّ التفاصيل التي سمعناها، كيف تُقيّم هذه المرأة؟

- بمعنى؟

- أخلاقيًّا.

نفخ وليد مغتاظًا من حديث عمرو، ولكنّه لم يُردْ أن يضايق حسام بجدلٍ جانبي، فعلّق بهدوء:

- برأيي السؤال الأهمّ هل تبادلها نفسَ الشعور؟

قال حسام مجيبًا على السؤالين:

- ربّما يكون انْدفاع عزّة ناحيتي جعلها تفعلُ أشياء؛ ظاهرها خطأ، ولكنّي لم أرَ منها ما يُشينها، كما أنّ شيئًا بداخلي، وكان أقوى منّي جعلني أستجيبُ وأقابلها وحدنا، وهو خطأ كذلك من ناحيتي، ولكنّ شيئًا ما غلبني أنا الآخر.

وقبلَ أن يجيب عمرو أرادَ حسام أن يأخذ الحديثَ لما يريدُه هو:

- سؤالُ وليد هو ما جئتكما من أجلِه، هل أبادلها نفسَ الشعور أم لا؟ سؤالٌ صعْب لم أستطع الإجابة عليه.

عمرو:

- ولا يمكن لأحدٍ الإجابة على هذا السؤال سواك.

هزّ وليد رأسَه بالموافقة على كلام عمرو، فقال حسام:

- أرجوكما ساعداني، لا تلْقيا الكرة في ملعبي الحائر.

عمرو:

- نعم عندك حقّ.

ثمّ التفت إلى وليد:

- ما رأيك يا وليد، أنت أكثرُ خبرةً في مسائل النّساء وشطحاتُك كثيرة.

تبادلوا الابتسام فقال حسام:

- أنتما تشكّلان لي مركزًا للرأي مهمّ، حتى وأنتما مختلفان في شكل حياتكما، تكونان خلطة مهمّة، الجرأة مع القيم.

تنحنح وليد، ثمّ قال:

- تذكّر حين جئت تأخذُ رأينا في سفَرك لأمريكا قبل ثلاثين عامًا تقريبًا؟

- نعمْ أذكُر.

- كنتَ بنفس الوجه الذي أراكَ به الآن، كان هواك في السّفر، وجئت فقط لتتأكّد أنَّ قرارك كان صحيحًا.

عمرو:

- وأن أؤيد هذا الليبرالي في كلّ حرف قاله.

ظلّ حسام واجمًا حتى قال:

- إذًا، أنا أحبّ هذه المرأة.

عمرو:

- برأيي المتواضع، هذه المرأة وضعتك على أوّل الطريق إليها، ووقفت تنتظرك، ربما هو بداية حبّ، أو هوى وافقَ هوى، لا أدري كيف يقولونها، وترغب في المواصلة، ولكنّك خائفٌ، أو لا تثق في نفسك.

وليد:

- وأنا أؤيّد هذا الإسلامي في كلّ حرف قاله.

كان حسام قد انفرجتْ أساريره فشاركهما الابتسام، ثمّ هزّ رأسه:

- ولكن لديّ أسئلة كثيرة تحيرني.

- مثل ماذا؟

- هل يمكن أن يحدث الحبّ بهذه السّرعة؟

عمرو:

- نعم يحدُث.

قال وليد ناظرًا لعمرو نظرة ذاتَ مغزى:

- وكيف عرفت يا مولانا؟ هل وقعت في الحبّ مِن قبْل؟

ابتسموا من تقعّر وليد في الكلام، ثمّ ردّ عمرو:

- نعم، وقعت في الحبّ قبل ذلك.

نظرا إليه باندهاش:

- لم تحكِ لنا عن هذا الأمر ولا مرّة، كيف حدث ذلك؟

- كانت زميلتي في الجامعة، وكانت متبرّجة بشكل لافت، وليس بها صفة واحدة تجعلني أفكّر فيها، ولكنّي انجذبت إليها انجذابًا عجيبًا.

اقترب حسام ووليد من عمرو باهتمام، كأنّه يقصّ أعجوبة من الأعاجيب، قال وليد:

- عرفنا أخيرًا أنّ للإسلاميّين قلوبًا تُحِبّ وتهوى، وليسوا كما كُنّا نتصوّرهم أحجارًا صمّاء، ووصل بهم الحبّ إلى شواطئ المتبرّجات أعداء الدين.

أشار حسام لوليد بالسّكوت، وأشار لعمرو يحثّه على الاستكمال لربّما تشجّع بها.

- كُنت في الفرقة الرّابعة وكانت في الفرقة الثانية، من أوّل لحظة رأيتها عيني وقعت في قلبي، وصرتُ حائرًا تائهًا لا أدري ماذا أفعل، أقفُ للصلاة أراها أمامي، أنام تزورني في أحْلامي، آكل، أشرب، تعيش وتروح وتجيء معي.

حسام بذهول:

- وأين كُنّا نحن؟

- كنت حضرتك سافرت لأمريكا، ووليد في عالمه الذي تعرفه، وأنا كانت لي ستّ سنوات في الكليّة، تأخّرت بعض السنوات لانشغالي مع أبي في أعماله.

وليد:

- أكمل يا عمرو، شوّقتنا.

- مثلي ليس لديه حلولٌ أخرى غير الزّواج، ولكن بكلّ مقاييسي، هذه امرأة لا تصلحُ لي أبدًا، وشعرتُ أنّ الله ابتلاني بحبّها، وعرفت وقتَها معنى قول نسوة يوسف إنّه قد شغفها حبًّا، فقد خرجت من حدود العقل للجنون بها، المصيبة الأكبر أنّها اشتركت معي في بعض أنشطة الكلية، فصرْنا نلتقي كثيرًا ضمْن المجموعة، وما جذبني إليها أكثر أنّي وجدتها فتاة جادّة، تتعامل مع الآخرين باحترامٍ ووضوح.

لحظات صمتٍ تحمل عالمًا من الاندهاش، كأنّ عمرو ملاكٌ نزل من السّماء وتدنّس بما يقع فيه البشر، واصل عمرو:

- كان أصعب ما في الحكاية أنّني لا أجدُ أحدًا أستطيع البوحَ له، مجتمع الملتزمين حولي سيرونني ارْتكبت إثمًا عظيمًا، كأنّ الحبّ ذنبٌ كبير، وبالتأكيد لن أستطيع البوح لأحدٍ خارج وسط الملتزمين؛ سأقعُ في نفس الورطة، وبالتالي عشت في حصار محْكَم، ممّا زاد قهْري، فصرتُ أُقيم الليلَ لساعات وأتضرّع لله أن يرفع عنّي هذا البلاء، ثمّ لا تزداد الفتاة في عيني إلّا عشقًا وهُيامًا، حتى تذكّرت كلمةً عن سيدنا عمر بن الخطاب، يقول: أنا لا أحمل همّ الإجابة، ولكنّي أحمل همّ الدعاء.. ففكّرت في طريقة دعائي، ثمّ عدّلتها فصرتُ أقول: اللّهم اجعل لما تراني فيه فرجًا ومخرجًا.

سكتَ عمرو وتطلّع إلى صديقيه، وقال:

- نكمل بعد صلاة المغرب.

الشاي مع كيك جميل مصنوعٌ في البيتِ كان مناسبًا لاستكمال الحديث بعد الصلاة.

- أراحني هذا الدّعاء كثيرًا، ورغم ذلك ظلّت دوّامة الحيرة تدور بي، فأعود كلّ مرّة من حيث أبدأ، حتى سمعت في إذاعة القرآن الكريم أحدَ المشايخ يقول: لا يرفع الله البلاءَ إلّا بالجهْد البشري وبذْل كاملِ الوسع، يصاحبه الدعاء، تلك سننُ الله في الناس؛ فقلت: لعلّ هناك وسْعًا لم أبذله، ووجدتني أقول لنفسي: نعم، هناك وسع لم أبذلْه، وهو أن تواجه المشكلة،

وقرّرت لحظتها أن أذهب إليها وأقول لها ما يعتملُ في قلبي لها وليكنْ ما يكون، ثمّ صلّيت الاسْتخارة وذهبتُ في اليوم التالي للجامعة وقد عزمت ألّا أتردّد.

هنا، وقف حسام:

- لا تقلْ إنّ عمرو فعلها.

- فعلتُها فعلًا.

صرخ وليد متعجبًا، فواصل عمرو:

- الغريب أنّها جاءت ذلك اليوم في كاملِ زينتها فتردّدت قليلًا، ولكنّ حبّها غلبني، فتوجّهت إليها، وحين وقفتُ أمامها اكتشفتُ أنّني لا أعرف ماذا سأقول، نظرت إليّ فلم أجد سوى إلقاءِ السلام، فردّت مبتسمة ثمّ ساد صمتٌ ثقيل، وهي تنتظر الكلماتِ المعلقة على عيني، ثمّ قطعت تردّدي، وقالت بطراوة النّسيم: نعم يا عمرو.. لحظتها انْفَكّ لساني، فقلتُ لها بسرعة: أنا أحبّك وأريد أن أتزوّجك. بُهتت الفتاةُ لوهلةٍ فعاجلتها قائلًا: فكّري جيدًا، خذي وقتَك وليفعل الله لنا الخير. وتركتُها وانصرفت، أحسستُ ساعتها براحةٍ عظمى واستسلام تامّ لما يأتي بعد ذلك من قدر الله.

نظرَ عمرو لصديقيه:

- أُكمل؟

هزّا رأسيهما، فواصل عمرو:

- اختفت عدّة أيام، وصرت أتحسّس أخبارها دون جدوى، زاد توتّري، ولا أعرف كيف أطمئنّ عليها. وفي قمّة، قلقي وكنت جالسًا في المكتبة، فإذا بها خلفي تلقي السلام، فاستدرتُ مبهورَ الأنفاس، فابتسمت وقالت: عمرو، استخرتُ الله في الزواج منْك وأراني مستريحةً جدًّا لك، ولكن لا أدري كيف ستتزوّجني وأنا متبرّجة هكذا؟ فابتسمتُ وقلت: لا لن أتزوّجك وأنت متبرجة، يجب أن ترتدي الحجاب، قالت وقد قطبت جبينها: رغمًا عنّي؟ قلت: أبدًا لن يحدث ذلك، ولا أريد أن ترتديه لأجلي ولا لأجل أن تتزوّجي، أريدك أن تفعلي ذلك لأنّ هذا حقّ الله فيك. أسكتها كلامي، ثمّ انصرفت دون أن تتكلّم، وغابت بعدها أسبوعًا كاملًا، ثمّ جاءت إلى الكلية هذه المرّة وقد ارتدتِ الحجاب.

صرخ وليد وحسام في نفَسٍ واحد:

- وتزوّجتها؟

قال عمرو وهو يضحك بجسدِه كلّه:

- هي التي أعدّت لكما طعام الغداء، والشاي والقهوة، وهذا الكيك الرائع، زوجتي وحبيبتي، وإنْ كنت في السابق أحبّها قيراطًا، فالآن صاروا أربعًا وعشرين قيراطًا.

تبادلوا الابتسام المتعجّب، ثمّ نظر حسام لوليد:

- وأنت يا وليد، ألمْ يصبْك الحبّ هكذا في لحظة؟

قال وليد بودّ صادق:

- مهْما اختلفت مع عمرو، سيبقى في نظري نبيلًا دائمًا، أمّا أنا أيّها السادة، فلم أعرف هذا النّوع من الحبّ على ما عرفتُ من النساء، ربّما صادفني، وضاع منّي دون أن أنتبه، فقد تشعّب قلبي في اتّجاهات كثيرة من كثرة تنقّلي بينهن، كأنّي أريد الحصول على كلّ النساء، والذي يفعل ذلك سيظلّ دائمًا يسير نحو السّراب، وفي حالة عطش دائمة.

ثمّ التفتَ إلى حسام، وبجدّية نادرة:

- هذه فرصة عمرك لا تضيّعها بالتردّد.

عزّة

بينما كان حسام غائبًا مع صديقيْه هناك، كانت تتلقّى في المساء سيلَ أسئلة أشجان عن أدقّ التّفاصيل، وتجيبها مستعيدةً باستمتاع كلّ تفاصيل هذا اليوم، إنّه اليوم الأجمل على الإطلاق الذي مرَّ في حياتها، ثمّ ألقت أشجان السؤال النّسوي المعتاد:

- وهل سيتزوّجك؟

ابتسمت عزّة:

- لا أدري، لم نتحدّث في هذا الأمر بعد.

- وأمّك؟

ألقتْ أشجان بالسؤالِ الأصعب فتغيّر وجْه عزّة إلى التجهّم، وتدفّق لونٌ أزرق شاحبٌ إلى وجهها وقطبت جبينها:

- ذلك الباب الصّعب الذي أخشى ألّا يستطيع أحدٌ فتحه.

- ليس هناك بابٌ لا يمكن فتحُه، لديك خالك رأفت وأخواك عماد وأسماء؛ يمكن أن يقفوا معك ويساعدوك في فتح هذا الباب.

- أسماء بعيدة مع زوجها وأولادها، ولا أدري هل سيتعاطف عماد معي أم مع أمّه! صحيح هو طيّب وشهْم، ولكنْ لا أدري، الفجوة النفسية بيننا هائلة، ربّما خالي رأفت الذي لم تغيّره السّنون، ولا أدري هل سيستطيع أم لا؟!

- لماذا ستقف أمّك دون سعادتك هكذا؟!

نظرتْ إليها عزّة نظرةً حزينة وعميقة:

- لا أظنّها ستنسى أبدًا ما فعلتُه معها.

أوتْ لفراشها بعد رحيل أشجان، واستعادت ذاكرتها كلّ ما مرَّ بينها وبين أمّها من أحداث كبيرة، والتي بلغت ذروتها في اليوم الذي جاء فيه عمّها إبراهيم ليتزوّج فاطمة، هذا اليوم لا يمكن محْوه من الذّاكرة.

كانت الدّار في أحلى زينة، والسّرور يمرّ على الجميع فيمسح رأسَهم، واحدًا تلو الآخر، ويمنح قلوبَهم بعضًا من السعادة الغائبة منذ فترةٍ طويلة، عزّة لا تدري حتى الآن لم فعلتَ ما فعلت! كيف تفسّر شعورها بالحقد تجاه

أمّها لمجرد أنّها فكّرت في الزواج! ما كلّ هذا الغلّ الدفين الذي حملته لأمّها وعمّها! صحيح كانت طفلةً ربما لا تُحسن تقدير الأمر، ولكنّ أمّها لم تستطعْ نسيان ذلك أبدًا.

مازالت الذّكرى تطرق رأسَها بعنف كأنّها حيّة بكلّ تفاصيلها، الجلوس في الصالون يتبادلون المجاملات المعتادة والضّحك الهامس، استطاعت أن تلمح وجه أمّها من الصالة، كان مضيئًا بجَمال لم ترَهُ من يوم أن وعَتْ على الدنيا، وقفت عزّة من بعيد، لم تكن متردّدة في الدخول ولكن كانت تشحذُ كلّ همّتها في رفض هذا الزّواج، وهي تحدّث نفسها لن يستطيع أحدٌ أخذها منّي، وفجأة.. دخلت عليهم بوجهٍ متجهّم متحفّز، باردٍ كسكين لا يأبه لمَن سيذبحه، تحمل في يدها اليسرى أوراقًا وفي يدها اليُمنى زجاجةً صغيرة، حلَّ صمتٌ مفاجئ عليهم، فاستغلّته عزّة لتفاجئهم ناظرةً إلى أمّها مباشرة، وقالت بكلماتٍ كطلقات الرصاص وهي تلقي بالأوراق في وجوهِهم: كيف هانَ عليك أن تخوني أبي مع عمّي، وتتبادلان الخطابات الغراميّة؟ كيف هان عليك أولادك لتسيئي لسُمعتنا؟ لقد رأيتُك في المنام وأنت تذبحينا نحنُ الثلاثة، وقلت لأولادك ولم يصدّقوني، تريدين الزّواج من عمّي؟ تزوّجيه ولكنْ لن أكون معكم؛ سأذهب لأبي وأخبرُه بكلّ شيء.

وقبل أن يفيقوا من هوْل الصدمة رفعتْ عزّة يدَها اليمنى بالزجاجة لتشربها دفعةً واحدةً، فما كان من فاطمة إلّا أن صرخت بكلّ قوّتها:

- عزّة ابنتي.. ابنتي.

وفي لَمْح البصر كانت عزّة ممدّدة في سريرٍ بالمستشفى، والجميع حولها، والطبيب يُجري لها غسيل معدة.

الصمتُ هو سيّد الموقف، خَيّمَ عليهم وفرضَ سطوته، حاول إبراهيم أن يأخذَ من فاطمة ولو نظرةً واحدة تعطيه أملًا في الاقتراب منها، ولكنّها لم ترفعْ وجهها من الأرض، ودموعها سيّالة غزيرة، كانت تلك آخرَ مرّة شُوهد إبراهيم في حياتهم وفي البلدة كلّها.

أسّس هذا الموقف لعلاقة جديدة بين عزّة وفاطمة، استمرّت طوالَ حياتهما معًا، بدأت الفجوة حين استبدل القدَرُ وجهَ حَسن زوجها بوجْه عزّة، ولكنّ الأمومة غلّابة، ثمّ اختفت هذه الفجوة لتعود أوسعَ بعد موقفِ عزّة من زواجها، ولكنْ تظلّ الأمومة غلّابة، ولكنّ شيئًا ما في جوانح فاطمة لا يغيب عنها أبدًا تجاه عزّة، أغلقت عليه بقوّة وإحكام، ولكنّها لم تستطعْ أن تمحوه، حتى مات هاشم.

عادت عزّة إلى أمّها كفرخ صغير هشّ مَهيض الجناح بلا ريشةٍ واحدة تغطّيه، لا يعرف من الحياة سوى جناح أمّه، عادت من أزمتها، فلم تجد سوى حضنِ أمّها، استسلمت له كأنّها خُلقت من جديدٍ بغير الهيئة النفسيّة التي عاشت عليها سبعة وعشرين عامًا، عادت رخوةً وتركت لأمّها إعادةَ تشكيلها.

سيطرتْ فاطمة على حياة عزّة وأولادِها منذ اللحظة الأولى، واستسلمت الأفراخ الصغيرة لها تمامًا، عشرُ سنوات كاملة استطاعت أن تؤسّس في

روْعها أنّ حياتها انتهت بموت هاشم، وكلّ ما بقي لها من أنفاسٍ في الحياة ستسخّرها لولديْها أسامة وسلوى.

تقدّم الكثيرون لطلب يدِها للزّواج، فلم يجدوا غير أمّها، حائط الصدّ العالي، ساعد على ذلك وجعله قويًّا صلدًا أنّ عزّة لم تفكّر في أيّ رجلٍ ممّن تقدّم لها، لم يشغلها رفضُ أمّها الدائم، كلّ الإشارات التي كانت تأتيها من زملاء العمل لم تقف عندها، أو تلتفت إليها، إلّا كأشياء عابرة تمنحها قدرًا من السّعادة التي ترضي غرورَها كأنثى وفقط، التّحذيرات اليومية لا تتوقّف، بلا كلل ولا ملل، تتابع خطواتها، تعدّ أنفاسها، أحيانًا تسأل حفيدتها سلوى بطريقةٍ- ظاهرُها تلقائي- عمّن كلّم عزّة من المدرّسين، أو تعامل معها أو حتى سأل عنها، حصارٌ طويل ورهيبٌ ضربته فاطمة حولَها وعزّة لا تأبه ولا يعنيها الأمر حتى جاء حسام، وظهر في حياتها.

سنةٌ من النّومِ غلبت عينيها، استيقظت على صوتِها يهمس باسمه: حسام.. حسام.. ثمّ تدريجيًّا، عاد إليها كاملُ وعيها، نظرت للسّاعة على الحائط، كانت قد تجاوزت العاشرة بقليلٍ فأسرعت للهاتف واتّصلت به.

كان طريقُ العودة هادئًا وواسعًا وجميلًا، منسابًا كالحرير على غير العادة، السيارة كأنّها تحلّق في السّماء، ورغم هذه السّكينة العامّة كان عقل حسام يعمل، عليه أن يرتّب أفكاره جيدًا ويدرس خطواتِه بشكلٍ قوي، وفجأة رنّ هاتفه.

جاءت عزّة على الجانب الآخر بصوتٍ قلِقٍ ملهوف:

– حسام، أين كنت كلّ هذا الوقت؟ هاتفك مُغلق، أصابني قلقٌ شديد عليك.

وقبل أن تستطردَ في كلامها ردّ عليها بلطفٍ شديد:

– أعتذر، كنتُ في القاهرة عند بعض الأصدقاء.

– ولِمَ تُغلق هاتفك هكذا؟

– نتّفق غالبًا حين نلتقي أن نغلق هواتفنا.

استفزها ردّه الهادئ وإجاباتُه المقتضبة أكثرَ فقالت له بعصبية:

– أرجوك لا تفعلْ بي ذلك مرّة أخرى حتى لا أصاب بالقلق، أنت لا تعلم ما يحدث لي بسبب غيابك.

وبنفسِ الهدوء الذي استفزّها قاطعها:

– عزّة...

– كان يومًا صعبًا عليّ، توقّعت أن تتّصل بي، أو على الأقلّ تترك لي رسالة.

– عزّة...

– خاصمتك، لا تكلّمني، ولا تناديني أبدًا.

– عزّة...

- قلت لك لا تناديني.

- عزّة...

بصوتٍ هامس:

- نعمْ حسام.

- أنا أقودُ السّيارة في طريق العودة، والطريق أمامي طويل ومُظلم، لو خاصمتيني ربّما يتوه منّي الطريق ويقع حادث، و..

صرختْ:

- أرجوك اسْكت.

لحظة صمتٍ متوتّر قطعه مبتسمًا:

- ما زلت تخاصميني؟

لم تردّ، ولكنّها ودّت لو قالت: أبدًا، ولا أجرؤ، ولا أستطيع.

ابتسم برضا:

- هل يمكن أن تبقي معي على الخطّ قليلًا.

- عيني يا حسام، معك كلّ الوقت، انتبه للطريق فقط أثناء الحديث.

- لا تخافي؛ أضعُ سمّاعات الأذن، وكلتا يديّ على مقْود السيارة.

ساد صمتٌ قليل حتى قالت:

- بداخلك أسئلة تريد أن تطرحها عليّ؟

- نعمْ بداخلي أسئلةٌ كثيرة كالبحر المتلاطم، ولكنْ ولا إجابة تشفي غليلي إلّا إذا سمعتها منك.

- جميل، إذًا.. تفضّل بإلقاء الأسئلة.

قالتْها بمرح بادٍ لتخفّف عن مشاعره، ولكنّه لم يتجاوب معها، وقال بجديّة:

- لماذا أنا؟!

- سؤالٌ صعب لا أعرف إجابته.

- هل تعرفين كم عمري الآن؟

- أظنّ مائة عام؟

ثمّ ضحكت، ولكنّه لم يتجاوب أيضًا، بالرغم من سعادته بطفولة ضحكتها.

- صدقتِ، أنا مِتُّ منذ زمنٍ طويل.

- وأنا كذلك مثلك مِتُّ، لكنْ منذ عشر سنوات فقط.

- أنا عمري خمس وخمسون سنة.

- وأنا عمري سبع وثلاثون سنة.

- أنا لا أمزح.

- لماذا تعقد الأمور هكذا؟!

- أنتِ لا تعرفين عنّي شيئًا.

- وأنا لم أطلب منك شيئًا.

- أرجوك يا عزّة، لا تحمّليني فوق طاقتي.

- حسام، أنا أحبّك.

فجأة، وجد نفسَه في مربّع الصّمت المتلعثم، وواصلت عزّة لتخفّف وطء الكلمة عليه:

- ولا أطلبُ منكَ أن تبادلني نفسَ المشاعر، ولا أن تتحرّك ناحيتي خطوة واحدة بدافع الشّفقة، أو أن تورّط مشاعرك فيما لا تحبّ، أنا أحبّك وهذا يكفيني، ولا أريد من الدنيا أكثر من هذا، اعتبرني أرضَ بورٍ جفّ ماؤها منذ سنوات، وأنت جئت كالغيث ليرويني، فهل تبخل عليّ؟!

- عزّة...

- لا تقلْ شيئًا أرجوك، سأستأذنك في إغلاق الهاتف، فقط طمنّي حين تصل ولن أزعجكَ بعد اليوم أبدًا، سأريحك منّي إلى الأبد.

ما هذه المرأة!! وما هذه الحيرة!! تنهّد وهو لا يستطيع حتى أن يقول شيئًا لنفسه، ظلّ ينظر للطّريق وهو يمضي تحت سيارته بسرعة، وطال صمتُ عقله حتى قطعه هاتفُها بعد عشر دقائق تقريبًا، ابتسامة واسعة احتلّت وجهه، مجنونة هذه المرأة!! ألم تقلْ إنّها لن تتّصل مرّة أخرى:

- صدّقت أنّني لن أزعجك بعد اليوم؟

ثمّ ضحكت بصوتٍ متواصل:

- أينَ وصلت يا باشمهندس؟

- تقريبًا على مشارف البلد.

- حسام...

- نعم.

- أحتاج لأنْ أسمعك، تقريبًا أنا تكلّمت وأتكلّم وسأتكلّم دائمًا، لا أحد يستطيع أن يوقفني، أرجوك تكلّم أنت مرّة؛ أريد أن أسمعك.

- أعدُك بأن أتكلّم حين تتاح لنا الفرصة في أقرب وقت؛ فحكايتي طويلة جدًّا.

منتصف العام ١٩٧٨

الصّديقان الوفيّان وليد وعمرو

أتمنّى أن تجمعكما رسالتي، كما كنّا نفعل في مجالسنا المكتنزة بالنقاشات الجميلة الحامية في غيط القمح الغربي، أو في الحسين، أو في أي مكان كُنّا نلتقي فيه.

اشتقت لكما كثيرًا، وعرفت في غربتي قيمةَ الصداقة التي جمعتنا منذ الصغر، بل لا أبالغ إن قلت إنّها أثمن وأغلى ما نملكه، إنّنا نُمثّل وحدة إنسانيّة بديعة وراقية، مهْما اختلفت أفكارُنا واتّجاهاتنا.

هنا أمريكا، نعمْ يا أصدقائي، هنا سيدةُ العالم بلا منازع، أستطيع أن أقول لكما بعد ستة أشهر منذ وطئتها قدمي، إنّها وطنٌ مُبهر، عجيب، ساحر، جذاب، نظيف، كلّ شيء هنا كبيرٌ وواسع وقوي، ويسيرُ بدقة مُتناهية، أوّل ما لفت انتباهي تلك السّيارة التي أقلّتني من المطار، كانت واسعة ورحيبةً بشكل مُلْفت، نظرتُ حولي، وجدت كلّ السيارات كذلك، حتى الشوارع، البنايات الشّاهقة، البشر الذين يسيرون على الأرصفة غلب عليّ شعورٌ أنّهم عمالقة، لدرجة جعلتني أتصوّر أنّ القوة هي الدّين الرسمي المهيمن على الجميع.

وطنٌ حقيقي، يجمع ملايينَ البشر من شتّى بقاع الأرض بمختلف الأعراق والجنسيات والديانات، تجمعُهم مساحة واسعة من الأرضية

الإنسانية المشتركة، برغم اختلافهم في اللون والدين واللّسان، ذلك أهمّ ما يجعلها أمة قويّة ومُسيطرة تقريبًا على أغلب مفاصل العالم.

أبْهرتني معامل الجامعة، سواء في المساحة أو الإمكانات التي لا تخطر لنا على بال، أو في العقول المستقطبة من أصقاع الدّنيا، بجواري في المعمل طالبٌ كوري مثل العفريت، عقلُه لا يتوقّف عن الأفكار والبحث، وأمامي طالبٌ عبقري من الجابون، وهذا يوناني مجنون، وذلك فلسطينيّ ألمعي، وهناك في الأقصى هنديّ وبجواره باكستاني، لا يختلفان في نقاشٍ بصوت عالٍ، على الرّغم من العداء السّافر بين الهند والباكستان، غير النابغين من الأمريكان، عالَمٌ عجيب، يتلاقى ويندمج ويتمازج ويعمل، ليس هناك بديلٌ لهذا الالتقاء الإنساني سوى الخسارة الفادحة للأمّة الأمريكية، والإنسانية كلّها.

ألسْنا في الشرق يدينُ أغلبُنا بديانة واحدة؟!! ونتّجه لنفس القِبْلة في الصلاة؟!! ونتكلّم بلسان واحد، حتى عاداتنا المشرقيّة متقاربة، ونمتلك جلّ ثرواتِ العالم!!؟ فما بالنا نحتلّ ذيلَ الأمم بجدارة!!؟

لا عليكما، مجرّد أسئلة عقيمة بلا إجابة صادقة.

أعرف أنّ وليد متلهّف لأنْ أحدّثه عن الحرية والمرأة، وأعرف أنّ عمرو يريد أن يطمئن على مساري الأخلاقي، وأعرف أنّكما الآن تبْتسمان، وسوف أجيبكما ولكنْ في رسالتي القادمة إن شاء الله.

أوائل العام ١٩٧٩

الحبيبان وليد وعمرو..

بالتّأكيد ستختلفان معي، وتقفان ضدّي هذه المرّة، على غير العادة، فتوقيعُ معاهدة سلام بين مصر وإسرائيل أصبح وشيكًا، وستصدمان لذِكْري اسم إسرائيل بدلًا من العدوّ الصهيوني كما تعوّدنا أن نسمّيها، في أمريكا الأمرُ مختلف جدًّا، لن أقول إنّني سأنسى ما فعله العدوّ بنا، هذه ثوابت لن تتغيّر بداخلنا، ولكنْ دعونا نتناقش بهدوء، هذا السّرطان القابع في جسد الأمة أصبح واقعًا يجب التّعامل معه بتعقّل أكثر، وبتفكيرٍ أعمق، معاهدة سلام نعم، ولكنْ لن نبيع فيها قضيتنا، اعتبروها استراحة محاربٍ لنستطيع أن نتفرّغ لبناء قوّتنا واقتصادنا، التوقّف والالتفات دائمًا للخلف يعيق تقدّمَنا، مصرُ لها عقود يتوجّه أغلب اقتصادها للحرب، وقد ترك ذلك آثارًا صعبة على حياة النّاس، آن الآوان لأن نُعيد النّظر في ذلك.

أعرفُ أنّكما ستتفاجأن، ولكنّ هذا الكلام يحتاج لجلستنا ونقاشاتنا الثّرية، وبما أنّها غير متوفرة لنا الآن فأرجو أن تفكّرا بهدوء فيما كتبت.

أحبّ أن أخبركما أنّني أحرز تقدمًا كبيرًا في دراستي، وأزعم أنّني أسبق زملائي بلا غرور لحدّ الإبهار، يمكن لأبحاثي إذا نجحت أن تُحدث ثورةً زراعية في العالم كلّه، فقد توصّلت لنتائج رائعة في مجال الهندسة الوراثية

للمحصولات الزراعية بشكلٍ آمن، النتائج المعملية والحقلية كانت مفاجأة، جعلت الجميع يلتفّ حولي، خاصّة سارة التي انضمّت لفريق عملي مؤخّرًا، أعرف أنني أخذتُ لبُكّما الآن في لحظةٍ بعيدًا عن السياسة ومعاهدة السلام ونجاح أبحاثي، بمجرّد ذكر اسم امرأةٍ غربية، تجعلاني أضحكُ منكما وأنتما تمثّلان العرب بكلّ مشاعرهم النفسية.

عمومًا سارة طالبة أمريكية، أوصتْ إدارة الكلية بضمّها لفريقي، ولم نمانعْ فالفريقُ يتكوّن من خمسة رجال فقط.

فتاةٌ جميلة، وجهُها يحمل توليفة عالمية، لو رأيتَها للوهلة الأولى وهي مُقْبلة، لظننتَ أنّها عربية، شعرُها وعيناها سوداوان، وترتدي دائمًا أثناء الدراسة ثيابًا محتشمة، إذا اقتربت منك أكثر ستجد جمالَها أسبانيًّا، بياضُ وجهها يشعّ حمرةً أنثوية فوّاحة، وجسدُها متناسق بنسبٍ قياسية من الجَمال نادرة، أمّا إذا تعاملت معها ستجدها أمريكيّة صرف، فلها حضورٌ قوي وآمر، واضحة جدًّا في تصرّفاتها، تطلب هذا أو ترفضه بلا مواربةٍ أو تحرّج أو خجل، تودّد لها كلّ أعضاء الفريق بطرقٍ مختلفة إلّا أنا؛ لقلّة تجاربي النّسائية مع بنات الشرق، فما بالكم ببنات الغرب، ولأنّني كنت مثل اللّوح ولم أتودّد إليها، فقد ظهرت الصّفة المشتركة في كلّ نساء العالم، فقد جذبَها إعراضي، ولكنْ بتعالٍ أنثويّ لذيذ، فتركتِ الجميعَ وتصوّبت نحْوي، فاقتربت منّي وصارت بيننا أحاديث ولقاءاتٌ كثيرة في الدراسة وخارجها، وعادةً هي مَن تبادرني بالحديث أو الاتّصال الهاتفي، لم أنجذب إليها كثيرًا، شعورٌ غامض

حياديّ تجاهها حتى الآن، ثمّ دعتني لتناول العشاء في أحد المطاعم الفاخرة بعد شهرين من انْضمامها للفريق، ووافقتُ ولكنّي اشترطتُ ألّا تشرب خمرًا أو يوضَع على المائدة، فقالت بتلقائيّة جذّابة- وكذّابة في ذات الوقت- إنّها لا تشربها.

استقبلتني ليلتَها بوجهٍ كالقمر ليلةَ التمام، وابتسامة مرحّبة دافئة، ترتدي فستانًا أسود لؤلؤيًّا، عاريَ الكتفين والصّدر ولكنّه طويل، تدرون ما فعلت بي سارة ليلتَها؟

في الخطاب القادم ستعرفان أيّها الأوغاد.

فبراير ١٩٧٩

الغاليان وليد وعمرو..

في مفاجأةٍ من العيارِ الثّقيل، تلقيت خطابًا رسميًّا من السفارة المصرية، يدعوني لحضور لقاء مع الرّئيس السادات بمناسبة اجتماعه مع الجاليةِ المصرية، تعرفان أنَّ الوفد المصري بكامل قواه العقليّة هنا في أمريكا استعدادًا لتوقيع معاهدة السلام، هذا الحدثُ الفريد يشغل الرأيَ العام ووسائل الاعلام هنا بقوّة.

المهمّ، لاحظتُ في السفارة أنَّ عدد الجالية ليس بكبير كما توقّعت، ولكن ربّما أفراد مُختارون بعناية، جلسنا في بهو كبير فخْم، وبعد قليل وصل الرئيس السادات، وقفنا جميعًا لاستقباله، لا أستطيع أن أصفَ لكما كمْ فاجأني شكله، غير ما نراه على الشاشة، جسدٌ متوسّط الحجم، شديد السّمرة، معتدّ بنفسه، صافحنا واحدًا واحدًا بيدِه وباهتمامٍ كبير، وحين وصل إليّ قال لي بصوته الجَهْوري، وبلكْنته المطوطة الواضحةِ الحروف: أنا أسمع عنك كلامًا طيبًا يا حسام، ومصر تنتظرُ منك ومن كلّ أولادها العلماء في مجالاتهم المختلفة الكثيرَ، ثمّ ربتَ على كتفي بقوّة وأكمل: ربّنا يوفّقك يا ابني، لا تتأخّر على مصر.

غمَرتني السّعادة، جعلتني أمتلك الدّنيا كلّها في لحظة، وامتلأ عقلي بطاقةٍ علمية لا مثيل لها، حدثنا طويلًا عن معاهدة السّلام والفائدة التي ستعمّ على مصر، وتوقّع أن تتمّ قفزات كبيرة في الاقتصاد، فيتحسّن على أثرها المستوى

المعيشي للمواطنين، ثمّ تحدّث عن مشاريع قومية في مجالات صناعيّة كثيرة ومتنوعة، ثمّ التفت إليّ وقال: يا حسام، لدينا كذلك مشاريع زراعية كبيرة في البلد ستحتاج لجهودٍ كبيرة منكم كعلماءَ متميّزين ومتخصّصين، ثمّ أردف بعبارةٍ صادمة: إسرائيل متقدّمة في الزراعة بصورةٍ كبيرة، وقد تحدّثوا أثناء المفاوضات عن التطبيع الزراعي معهم لتبادل الخبرات والاسْتفادة منهم.. وهنا، قاطعتُ الرئيس بشكلٍ مُندفع ومخالف لكلّ التّعليمات التي قيلت لنا، فوجدتني أقولُ له: يا سيادة الرئيس، نحن نزرع منذ آلاف السنين، وعندنا علماءُ وفلّاحون عباقرة في الزراعة، ولم يُعرف عن اليهود- وهُم أصلًا أهل تجارة- أنّهم يزرعون! ماذا سنستفيدُ منهم؟! هؤلاء لنْ نجني من ورائهم الخيرَ أبدًا لو دخلوا في زراعتنا. فوجئ الحاضرون بردّ فعْلي وخيّم صمتٌ متوتّر على اللقاء، إلّا الرئيس الذي ابتسم وقال: أعرف ذلك، ولكنّ التقارير التي تأتيني تقول إنّهم متقدّمون في الزراعة ويطوّرونها دائمًا، ولا أرى مانعًا من الاسْتفادة منهم، لاسيّما وقد ألحّوا كثيرًا في هذه المسألة، بل وطلبوا أن تكونَ أولى خطوات التّطبيع بيننا هي التّطبيع الزراعي، وبعد توقيع معاهدة السّلام سيكون أوّلُ وفدٍ يزور إسرائيل هو الوفد الزراعي، وأنا أرشّح بعضًا من علمائنا وأولادنا النّوابغ في مجالهم، وأظنّك ستكون أحدَ المرشّحين للسفر مع هذا الوفد.

نزلتْ كلماته كالصاعقة على رأسي، كأنّها اختارتني بعنايةٍ فألجمتني.. وقبل أن أفيق، كان الرئيس قد انتقل بالجميع إلى موضوع آخر، إلّا أنا ظللتُ مكاني متسائلًا، لماذا يريد اليهود أن تكونَ أُولى خطواتِ السّلام بالتطبيع الزراعي!؟ هذا شرَكٌ مَنْصوب نُساق إليه غير مُنتبهين، تلفّتّ حولي حائرًا،

فوجدت الحضورَ منشغلًا مع كلمات الرئيس إلّا رجل يقف هناك في زاوية، ترك الجميع ووقفَ ينظر إليّ بعمق، نظرةٌ صُلبة رمادية غريبة لا أستطيع أن أفسّر معناها، جعلت جسدي كلّه يرتعش.

ارتبك داخلي وتوتّر، وشعرتُ أنّ لعبة (بازل) لصورةٍ كبيرة تناثرت بداخلي وعليّ البحث عنها وتجميع أجزائها لتساعدني على الرؤية بوضوح أكثر.

الحبيبان الغاليان عمرو ووليد..

نسيتُ- في غمرة أحداث لقائنا مع الرئيس- أن أحدّثكما عن سارة، وتلك الليلة التي جمعتنا في المطْعم الفاخر، الحسناء استجابتْ لطلبي، ولم تطلبْ خمرًا، ولكنّها أسكرتني بطريقتها، فقد غمرتني بعطرٍ هزّ جسدي وأرْبكه، أقول لكما سارة امرأة استثنائية، لا أقصدُ بذلك مسائل عاطفيّة، ولكنّي أتحدّث عن شيء آخر، فقد وضعت على مائدة الإنسان بداخلي كلّ أطعمة المرأة اللّذيذة الشهيّة، وكأنّها تختبر اختياراتي منْها، فقد أتتْ لي بجسدها الجميل دونَ أن تفتعل أي إشارة بعينيْها أو وجهها أو حتى اقْتربت، تركت جسدَها الفتّان بفستانه المثير يتحدّث إليّ بلغة أخرى، يقول: إذا أردت أن تتذوّق فيمكنني أن أسمحَ لك، ما الذي يمنع!! ثمّ أتت لي في ذات اللحظة بثقافة واسعةٍ مسلّية وشيقة، فتحدّثت معي عن الموسيقى والفنّ والسينما وهوليوود، ثمّ تطرّقت للسياسة وفوجئت بها متابعةً للحرب الأهلية الطّاحنة بلبنان، والثورة الإيرانية، والتحوّلات الضخمة التي سيشهدُها الشرق الأوسط، ثمّ سألتني عن رأيي في معاهدة السّلام، وأشرق وجهها

وازدادَ بريقًا حين قلتُ لها: إنّني أؤيّدها.. ثمّ أردَفتُ: ولكنّ الدّول العربية كلّها تقريبًا ترفض السّلام مع إسرائيل، بل واتّخذت مواقفَ عدائية من مصر، ففاجأتني قائلة: كلّ العرب الذين يرفضون معاهدة السّلام في العلن، يتواصلون منذ سنواتٍ طويلة سرًّا مع إسرائيل في مجالات صناعية وتجارية كبيرة وكثيرة، السّياسة يا صديقي ما هي إلّا واجهةٌ بألوانٍ برّاقة تأخذ العين والقلب في اتّجاهات وتشعّبات كثيرة، بينما تمضي في طريقها المرسوم، وقريبًا ستجتمع العرب كلّها مع إسرائيل، ابتسمت لاندهاشي البالغ، وقالت وهي تهزّ كتفيها: هذه هي السياسة تعيد تدويرَ الحقائق السوداء لتقديمها للناس بصورةٍ أجمل ليتقبّلوها، قلت: ولكنّ هذا خداع وكذب، ضحكتْ بصوت عالٍ ووضعتْ يدَها على فمها: ومَن قال إنّ السياسة غيرُ ذلك! ولمّا رأتني قد وجمتُ لائذًا بالصمت، غيّرت الموضوع، وبدأت في الحديث عنّي، فحدّثتها عن بعض تفاصيل حياتي ونشأتي، وتعجّبت أنّه ليس لديّ تجارب عاطفية، فقلت لها: الحبّ شيء نادرُ الوجود، ولا يصحّ أن نخضعه لتجارب جسديّة لنختبره بها، فضحكتْ ضحكة طويلة فبدتْ أسنانُها كاللؤلؤ، وتناثر جَمالُ عينيها كفراشات جميلةٍ رفّت حوْلنا فخفق قلبي منبهرًا، ثمّ قالت- ومازال أثر ضحكها يلفّ المكان-: أنت شخص رومانسي، تعيش في الميتافيزيقيا، وقد تؤثّر على تفكيرك، أو تؤخّر نبوغك العلمي. قلت لها: حتى في المعمل وقبل التّجارب، تبوح لي البذور وأجنّة النباتات بأسرارها. ذهبت الابتسامة قليلًا واقتربتْ قائلة: قلْ لي مثالًا من الأرض ومن المعمل. فأجبتُها مبتسمًا: تلك أسراري الخاصّة لا أبوح بها لأحد.

٢٦ مارس ١٩٧٩

السيّدان المحترمان عمرو ووليد..

أكتبُ لكما مساءَ هذا اليوم بتاريخه وحدثِه الفريد، توقيع معاهدة السّلام، والأسئلة تنزل وتتوالى على رأسي كالمطارق، أحاول دونَ جدوى البحثَ عن إجابة لها، فلجأتُ إليكما لأفرغ ما في نفسي لعلّي أهدأ قليلًا وأرتاح.

قولا لي، ما الذي ليس نقيًّا في أمريكا؟!

أخبراني، ما الذي يجعل شابًّا مثلي في مقتبل العمر وممتلئ بالحيوية والنشاط والنبوغ العلمي، تُتاح له فرصة الدّراسة في أعظم بلاد الدنيا وأقواها اقتصادًا وحرية، وكلّ ما تتمناه من الحياة، الاستقرار، المال، الشّهرة والأضواء، التكريم المادي والمعنوي، كلّ ما تحلم به ماثلٌ بين يديك، لا شيء يمكنه أن ينغّص عيشك، ومع ذلك هناك قطعةٌ في لوحة البازل مازالت ناقصة، شيء مُريب، غيرُ مقبول بداخلي، يرفض كلّ هذا، هل أنا مُعقّد، أم أنّني أسيرُ بيئتي المتخلّفة لهذا الحدّ!؟

شعورٌ غريب بدا كذبالة النّار منذ أطلّت فيها سارة بجاذبيتها، ثمّ بدأ نفس الشعور يكبر وتتّضح معالمُه في لقاء السفارة، ثمّ اشتعل حريقًا حين دُعيت لحضور مراسم توقيع معاهدة السّلام في البيت الأبيض، إحساسٌ واحد وغامضٌ تشكّل بداخلي وتشعّب، ولكنّه ربطَ بين كلّ تلك الأحداث.

تدْريان كيف اشتعلت الذبالة الصغيرة فصارت حريقًا يلتهم جوفي، تلك اللحظة التي وقعت فيها عيني على مناحم بيجين- عدوّنا الأكبر- يصافح السادات مبتسمًا منتشيًا، اهتزّت صورة الاحتفال وغامت لتتصدّر مذبحة دير ياسين كياني بكلّ مشاهدها أمام عيني، صور الخسّة والغدر وجثث الأطفال والنّساء المتناثرة في الطرقات، وتتبدّل على كياني صورُ مذابح الآمنين في كلّ قرى فلسطين والأسرى في سيناء، اقشعرّ بدني بضراوة، وارتعشت أطرافي، وشعرتُ أنني بلا ساقين أقفُ عليهما من شدّة الاضطراب، أخذت أتحرّك محاولًا السّيطرة على مشاعري، وأتلفّت حولي لأرى وجوهَ الأبالسة السوداء، التي كنّا نطالع صورها فنبصقُ عليها، آريل شارون، وموشيه دايان، وعيزرا وايزمان- أعداء الأبد- يصفّقون بشدّة مبتسمين، لتزحف ثعابينُ الأسئلة وتلتفّ حول عقلي وتعصره عصْرًا، كيف تتحوّل هذه الذئاب فجأة وترتدي وجوه الحملان الوديعة وتقطرُ رقّة وبشاشة!!؟ ساعتها فقط، لفظتُ تلك المعاهدة ظاهرًا وباطنًا، وانْهار صرح التبريرات الذي بنيتُه، ليخلف غبارًا كثيفًا خانقًا، واصلت الحركةَ وسط الزحام في محاولةٍ للخروج لأحرّر أنفاسي، لتكتمل المفاجآت بوجود سارة التي كانت تقفُ من بعيد، تصفّق بحرارة سعيدة مبتهجة، وقفتُ مشدوهًا، ما الذي جاء بها إلى هنا!!؟ وضعتُ يدي على رأسي محاولًا التّماسك من السّقوط، تحوّلت ملتفتًا إلى الجانب الآخر لأجد رجلَ السفارة يقف هناك وعلى وجهه نفس النظرة الصّلبة الرمادية الغامضة ينظرُ إليّ.

صيف العام ١٩٧٩

السيّدان الصالحان وليد وعمرو..

(بعض الأضرار الهامشية لنشر الحضارة)..

هل سمع أحدُكما قَبْلًا تلك العبارة؟!

هل يمكن أن تخمّنا على الأقلّ معناها؟

تخيّلا.. دعيَا أفكارَكما تصول وتجول، لا أظنّ أنّ أحدكما يمكن أن يتخيّل معناها مهْما ذهب تفكيرُه، لا عليكما؛ سأجيبكما.

تستطيع أن تتخيّل عصابة من القتلة تحمل بنادقها، وتختبئ في سراديب الغدر، فتحيط برجال آمنين في آراضيهم لتقنصهم واحدًا تلو الآخر فتُرْديهم قتلى، ثمّ يسلخوا رؤوسهم بسكاكين بيضاء.

لا تندهش؛ فالقادم أسوأ، يمكنك أن تُغمض عينيك الآن، فالصّور لنساء حوامل، يُسَقْن من رقابهنّ عَرايا مقيّدات لتُبْقَر بطونُهنّ قبْلَ ذبحهنّ، فتشقّ نصفين لتندلق الأجنّة على الأرض لتدهَسَ بالأقدام بقسوةٍ لا يمتلكها أشرسُ وأخسّ الحيوانات.

وهؤلاء فتياتٌ صغيرات، جُلبنَ فقط للاغتصاب بساديّة مُفْرطة، ثمّ ذُبحنَ كالنّعاج، وتركت جثثُهنّ في العَراء طعامًا للجوارح.

صُمّ أذنيْك إن استطعت، فقد يسقطُ عقلك في قاعة الجنون، فأصوات صراخ الأطفال أثناء شويْهم أحياءً يملأ فضاءَ الألم، والرّجل الأبيض يطوف راقصًا حول النيران المتأجّجة، ويصرخ منتشيًا.

ما هذا؟...

لا تصدقان!!؟

فعلَ ذلك الرجلُ الأبيض القادم من أوروبا للأرض الجديدة، أبادَ شعبًا كاملًا، مكوّنًا من مائة مليون إنسانٍ من الهنود الحمر، تفنّن في إبادتهم فذبحهم، وسلخَ رؤوسهم، وحرقهم أحياء، وسمّم مياه شرْبهم، وقتلهم بالأوبئة، إبادةٌ شاملة تمّت في ظلّ حماية قانونية، تُقرّ ذلك وتأمر به، بل وتدعمه بالمكافآت المالية عن كلّ فروة رأس هندي.

هل عدتَ لرأس الفِقْرة لتتأكّد من الرقم..؟ مائة مليون!!

نعمْ هو الرّقم الذي قرأتْه عيناك ولا يستوعبه عقلُك، حسب كلّ الموسوعات التي أرّخت لتاريخ الرّجل الأبيض حين وطئ أمريكا، وسيطرته على كامل الأرض، وسلبها من أهلها الأصليين.

ثمّ سألوا أحدَ قادتهم عن تلك المذابح التي تمّت خلال مائة وخمسين عامًا، فقال ببرود: لا بأس، بعضُ الأضرار الهامشيّة لنشر الحضارة.

هل أحدّثكما عن أبناء أفريقيا وأهوال استعبادهم؟!

يكفي هذا، فلم أعدْ قادرًا على الكتابة أكثرَ من ذلك، فالقلمُ مُرتعش، والعين تبكي الإنسانيةَ القتيلة، والرّوح تائهة في هذا الزّيف المطلق.

صديقاي..

حدثتْ لي تغيّرات كثيرة على المستوى النفسي، وتبدّلت مفاهيم لم أتخيّلها، تهاوت أمامي أعلى ناطحة سحاب في العالم، ورأيتُها على حقيقتها المُرّة، الغرب قادرٌ على تدوير نفسه، وارتداء القناع تلوَ الآخر، ولكنّه هوَ هوَ لم يتغيّر، يعيش على نفس الفكرة التي أسّس دولته عليها.

خريف عام ١٩٧٩

السيّدان وليد وعمرو..

منذُ رأيت الذئاب وهُم يوقّعون بدمائنا معاهدةَ سلام، وكلمات سارة عن بريق السياسة الزائف، وتاريخ أمريكا الإنساني الأسود؛ تحطّمت كلّ أصنام الشّعارات البرّاقة بالأكاذيب التي تملأ العالم، السّلام العالمي، الحرية، المساواة، حقوق الإنسان، تحرير المرأة وغيرها، مجرّد سراب تُساقُ البشرية إليه، تُديره مؤسساتٌ عملاقه، وماكيناتٌ إعلامية مُرعبة تدور وتدهس في نفوسنا كلّ القيم الثّابتة التي نشأنا عليها، وتزيّن كلّ شيء بخلاف حقيقته.

لقد عكفتُ على لعبة (البازل) المتناثرة بداخلي، وأعدتُ تجميع أجزائها، حتى اتّضحت الصورة كاملة، فأنارت لِي الطريق، وحدّدت مسار بعثتي، انتهى حسام الذي سافر محمّلًا بكلّ طموحات الكون، الآن– وباختياري، وبمحْض إرادتي، وبعد تفكير وتفكيك لكلّ الأحداث حولي، وإعادة ترتيبها على وجْهها الحقيقي– قرّرتُ أن أمريكا لم تعدْ أرض أحلامي ولا طموحاتي، بل ورأيت أنّ كلّ إنسان صاحب إمكانات وطموح كبير وأحلام واسعة، يسعى لأمريكا؛ هو شخصٌ انتهازي، يجب أن يبيع نفّسَه للشيطان، ويسجد في محرابِ أمريكا، ويؤمن بها وبكلّ الإرث التي قامت عليه ليصلَ إلى ما يريد.

مصر، هي أرضُ أحلامي الحقيقية، وكلّ ذرةِ عرق نبذلها في تحصيل العلم، يجب أن تروي أرضنا، يجب أن تستفيدَ الإنسانية منّا لا منْهم، أمّا هم فيا ويلَ الإنسانية منهم.

لاحظتُ في رسالتكما أنّكما قَلِقان عليّ، وأحبّ أن أطمئنكما، فأنا مستغرقٌ في دراستي، أحاول تحصيلَ أكبر قدرٍ من العلم والاستفادة منه، وابتعدت عن التحدّث أو التفكير في السياسة، فتشعّباتها يمكن أن تؤثّر على تركيزي ومستقبلي كلّه.

سارة هي الأخرى تركتِ الحديث قليلًا عن السياسة، وأصبحت تتودّد إليّ بصور مختلفة، فتأتيني بألفِ وجه وألفِ لون، لتصلَ لهدفٍ محدّد لا يتغيّر أبدًا، تشعر أنّني قريب منها جدًّا، وأبعد ما أكونُ عنها في نفس اللحظة، هي تفسّر ذلك بطبيعة نشأتي المُنغلقة، ارْتحت لتفسيرها، فقد وفّرت عليّ البحث عن مبررٍ لإحساسها.

في المعامل نتعاملُ مع أشياء دقيقة ومُتناهية الصغر، أشياء لا نراها بالعين المجرّدة، ولكنّها عميقةُ التأثير، وكلّ اختلاف في طعم ولونِ ورائحة الثمرة التي نتناولها وراءه تفاصيلُ كثيرة غير مرئيّة، ولكنّنا نَديرها بذكاءٍ وعبقرية، وكما يُمكن لتلك الثمرة الجميلة التي تأكلها فتمنحك مزيدًا من الصّحة والمتعة، يمكنها- وبنفس الشكل الظاهري، وبنفس الطعم- أن تمنحَك مرضًا عضالًا وموتًا محقّقًا، تلك هي السّياسة التى يُدار بها العالم، ونحن إنْ لم ننتبه فسنأكلُ يا أصدقائي المرضَ العُضال والموتَ المحقّق أثناء دوران آلاتِ الزّيف في عقولنا.

أوائل العام ١٩٨٠

مازال وليد يسألني في كلّ خطاب عن سارة، يُضحكني والله هذا الشّقي، في أوج كلّ أزمات الدّنيا تجده يفكّر في النساء!!

سارة يا أصدقائي، ظلّت تُثبت لي مرّة تلوَ الأخرى بأنّنا في عصر النّهب المسمّى بالسلام، صدّعتني بأحاديثها الطويلة عن تاريخ اليهود ومآسيهم وشتاتهم عبْرَ التّاريخ، والمحارق النازية، وحقّهم بعد كلّ هذا التيه أن يجدوا وطنًا يعيشون فيه آمنينَ مُسالمين، يمدّون أيديهم بالمحبّة لكلّ مَن حولهم، ومع ذلك يعيشون في محيطٍ من الكراهية، وأنّهم مضطرّون للدفاع عن أنفسهم ليجدوا لهم مكانًا على الأرض.

اكتشفت أنّ سارة منذ انضمّت للفريق لم تقدّم بحثًا ذا قيمةٍ تُذكر، أو تأتي بفكرةٍ جديدة، بالنسبة لي كانت مجرّد طالبة عادية، لا أدري ما هي مؤهّلاتها التي قذفت بها عندنا!! بل واكتشفتُ- بمحْض الصّدفة- أنّها أقامت علاقاتٍ حميميّة مع مجموعة الدّراسة بالكامل على مدار العام الماضي، وأنّ هناك بعضَ المشاحنات وقعتْ بين الشّباب خارجَ الجامعة بسبب الغيرة الواقعة بينهم، وفي مساء أمس سيق الطالبان الهندي والباكستاني إلى مبنى الشّرطة نتيجةً للتّعارك بالأيدي بسبب نقاشٍ مُحتدم حول الحربِ بين الدّولتين، وكانت بالطّبع سارة حاضرةً في المشهد، دنّست الجميع، وودّت لو دنّستني لأكون مثلَها ومثلهم.

فوجئتُ بسارة الطالبةِ البليدة، تقدّم بحثًا مُبهرًا أدهش الجميعَ وصَدَمني، فقد كان أحدَ أفكاري التي دوّنتها في أجندتي الحمْراء التي أتركها دائمًا في المعمل، أخذتْها بالكامل بكلّ بجاحة، دون تغيير حرفٍ واحد فيها، ولكنّي لم أعلّق، وهنّأتها كما فعلَ الجميع، وتلقّت تهنئتي بسرورٍ بالغ كأنّ شيئًا لم يكن!!

منتصف العام ١٩٨٠

ويسألني عمرو، لماذا ارتضيتَ بأن تنْزوي هكذا؟! ويمكنك أن تكون أكبرَ من ذلك، وتحافظ على قيمِك التي نشأتَ عليها؛ دينك وعروبتك ومصريتك...

صعبٌ جدًّا يا صديقي، الحلولُ الوسط لا تجدي مع هذا العالم، نعم.. يُمكنك الحياة في الغرب وتحافظ على قيمك ومبادئك ولكنْ في حالة كوْنك فردًا عاديًّا، أمّا في مجال العبقرية والنبوغ فلا يمكنُك فعل ذلك، سيظلّوا وراءك ليضمنوا ولاءك لهم أو يقتلوك.

حدّثني أبي- قبيل سفري للبعثة- بكلماتٍ لم آخذها على محْمَل الجدّ، قال: يا ولدي، في الغرب يظنّون أنّهم أصحابُ العلم، وهُم يسرقون عقولَنا مقابلَ المال والشهرة، فتعلّم أن تشتري ولا تبِعْ، قلتُ له: يا أبي، أنا بالنسبة للعالم الرّحيب المتلئ بالعلماء بلا قيمة. أغضبتْه كلماتي فقال معنّفًا: إذا كنت ستسافر بهذه العقليّة فاجلس بجانبي هنا، أنا وافقتُ على سفرك لأنّك أفضلُ عندي من كلّ علماء الدنيا. فسكتُّ وقلتُ في نفسي.. إنّه أب، وطبيعيّ أن يرى ابنه كذلك، وهو لا يدري شيئًا عن العالم ولا التقدّم العلمي المهول، واكتشفتُ أنّ نظرته لي كانت صحيحة، وأنّني متميّز جدًّا، بل ويُمكنني أن أكونَ أحدَ الأسماء المصنّفة على خريطة علماء الزراعة في العالم.

كُلّ هؤلاء الطلاب المجتمعة من أصقاع العالم، ما هي في الحقيقة إلّا عملية نهبٍ منظّمة للأفكار والعقول، تختفي هذه العملية خلفَ بريقٍ هائل

من الزّيف والخداع، ولو أنّ أفقر دولة في العالم خصّصت جزءًا مِن دخلها القومي في البحث العلمي، وصمد شعبُها لذلك لتفوّقت على ألف أمريكا.

بعد عام تقريبًا، توقّفت عن منحهم المزيدَ من الأفكار، وبدأت أسجّل هذه الأفكار بعيدًا، أفكار مُكتملة في رأسي أضعُ عناوينها حتى لا أنساها، مع أنّي لا أنسي شيئًا، وواصلت الكتابة في أجندتي الحمراء الموجودة في المعمل، والتي ظلّت سارة تسرقُ منها الفكرةَ تلو الأخرى، حتى نصبتُ لها فخًّا، فسجّلت فكرة كانت منشورة في إحدى النّشرات القديمة، فسرقتها وقدّمتها على أنّها بحثٌ جديد، وكانت فضيحة لها مدوّية، يومها تبادلنا نظراتٍ ذات مغزى، ابتسمتُ منتصرًا، وابتسمت بغلّ، تكاد تشمّ رائحته.

عزّة وحسام

(هل تدري يا حبيبي ما هو الشوق؟ إنّه الفقد، إنّه غيابُ روحك وحضور الفراغ، غياب الفرح وحضورُ الدّموع، تحاول أن تتنفّس بعمق، فلا يسري بداخلك إلّا الخواء، تشعر بالاختناق والأسى في الغياب الطّاغي، هل مرّ بك هذا الشّعور قبل ذلك؟ أنا أعيشه في بعادك كلّ الوقت، هل يرضيك ذلك يا سيدي؟).

تلقّى حسام رسالةَ عزّة بعطفٍ شفيف، وحيرة من تلك الخطوةِ الأولى والتي تستحثّه عليها بكلّ ما أوتيتْ من بيان الضّعف النسائي، ومع ذلك مازال يشعرُ بالعجز عن تحريك قدمِه خطوةً واحدة ناحيتها، فقط اليومَ استطاع- أمام تأثّره بمشاعر فقدها- أن يردّ بثلاث كلمات.

ابتسمت عزّة فرحةً بقطرة النّدى التي سقت خدودَها المبتسمة بملح الدّموع وهي تقرأ حروف رسالة حسام (لا يرضيني أبدًا يا عزّة) فاندفعت بكلّ حنينها إليه تكتب:

(أنت إنسان مُرهفٌ وحسّاس، وتعرف شعوري جيدًا، وتقدّر ما أنا فيه، وتعلمه ربما أكثر ممّا أقوله أنا، تعرف احتياجي، تعلم رغباتي جيدًا، وتستطيع أن تشبع- ولو جانبَ إحساسي- بأنّك تحتويني بحبّك، فلا تكسر قلبي، ولا تتركني في مهبّ الريح وحيدة أنتظرُ جوابك يا أحبّ الناس، وفي كلّ الأحوال فأنا أحبّك، وعلى كلّ الأحوال أنا أحبّك).

انتصف النهار في شاطئ المنتزة الخالي تقريبًا من النّاس، الشمسُ ساطعة بودٍّ لتمنح الهواء البارد الذي يمرّ بينهما دفئًا استثنائيًّا.

افترشت عزّة منديلًا كبيرًا على الأرض، واستعدّت لهذا اللقاء بطعام أعدّته بيديها، وسقته من رحيقِ حبّها، لم تنسَ حتى التفاصيل الصغيرة، فأحضرت ورودًا ونثرتها على مائدة الحبّ، وكؤوسًا للشّاي جميلة، اشترتها ليكون أوّل ما يلمسُها شفتَا الحبيب، وها هو بكلّ كيانه يجلس أمامَها على الأرض، يلتقط الطعامَ بهدوء مُمتع، يلتفتُ كثيرًا إلى البحر، يبحر بسفينةِ عينيه إلى خطّ المدى البعيد، لم يفقْ إلّا وعزّة تناوله كأسَ الشاي، وبتغاضب مبتسم:

- تدري أنّني كنت أحبّ البحر؟ اليوم فقط صرتُ أكرهه.

ضحك قائلًا:

- رأيتُ أنّني أطلت معك في حديثي عن رحلتي لأمريكا، فقلت لعلّك مللتِ فأشفقتُ عليك.

– قلت لك أريدُ أن أسمعَك، أن أعرف كلّ تفاصيلك، لقد استمعتَ لي كثيرًا، وعرفتَ تقريبًا كلّ شيء عن حياتي، وأنا أحتاج لذلك؛ أن أقترب منْك أكثر، هيّا أكمل يا سيدي.

– هناك حكاية مفصليّة في حياتي، استكمالًا لبعثتي لأمريكا، والتي انتهت في بداية الثّمانينيّات، وعودتي لمصر وعملي بالجامعة، وهي زيارتي لدولة العدوّ الصّهيوني إسرائيل.

– وذهبت بعد كلّ ما اكتشفتَه في أمريكا؟

– نعم ذهبتُ لأسباب كثيرة، كنت أُريد أنْ أرى هذا المستوى الزّراعي المتقدّم الذي قال عنه الرّئيس السادات!

– هذا ليس سببًا كافيًا، زيارة هذا الكيان المغتصِب هو اعترافٌ به.

– نعمْ أدركتُ ذلك بعدما ذهبت، والحقيقة الأسوأ أنّ السببَ الحقيقي الذي أخفيته حتى عن نفسي؛ هو الخوفُ من فقدان وظيفتي، وأقنعتُ نفسي بأنّها مجرّد زيارة علمية نستكشف فيها علومَ العدوّ الزراعية، وأنّ مشاريعي تحتاج لوجودي في الجامعة ومعاهد البحوث، وأنّ موقفًا رافضًا للزيارة يمكن أن ينسف كلّ ذلك.

تغيّر وجه عزّة إلى نظرةٍ معاتبة..

– هذه هي الحقيقة التي دفعت ثمنَها غاليًا بعد ذلك، ثمنٌ باهظ جدًّا أوصلني لعجزي حتى عن الاقتراب منْك أكثر.

لفتتِ الجُملة الأخيرة انتباهها فلحقها:

– لا تسبقي الأحداث، ودَعِيني أكملُ الحكاية، فقط أريدُك أن تستعيدي وجهَك الطيّب ونظرتك الحنونة، فقد تجهّمت الدّنيا لي كثيرًا، وكذلك أحتاجُ لكأسٍ آخر من الشاي.

تبسّمت من تنقّل كلامه المفاجئ بين الشّجن والشاي، ووجدتْها فرصةً لاستبدال كأسي الشاي لتشرب من كأسه ويشربَ من كأسها؛ لعلّهما لا يفترقان أبدًا كما تروي الأمثالُ الشائعة.

– إسرائيل ليست دولةً بالمعنى المعروف علميًّا حسب مراجع العلوم الاجتماعية، ولكنّها مجرّد كائنٍ طفيليّ، شجرة لبلاب لا تنمو دون أن تتسلّق على جدار، فتتمدّد وتنتشر أوراقُها حتى تغطي كلَّ شيء، فإذا سقط الجدار انْهارت معه، اكتشفتُ هناك أنّ أغلب التّطورات الزراعية كانت من بحوثٍ مسروقة، مثلًا كان الوفد المصري منبهرًا بمحصول الطّماطم الذي تستطيع إسرائيل إنتاجها طوالَ العام، ومعروف أنّها محصولٌ موسمي، ولم يعلمْ أحد أنّها مجرّد بحثٍ قام به طالبٌ مصري يدرس في أمريكا حول فكرة إنتاج بعض المحاصيل الموسميّة طوال العام، تدرين؟ كنت أنا ذلك الطالبَ المصري.

كانت عزّة تستمعُ إليه باهتمامٍ كبير، فواصل حديثه:

– واكتشفتُ كذلك، أنّهم يولون دولتَهم اهتمامًا مُنقطع النظير، ولديهم إرادة رهيبة ودائمة لا تتوقّف على حمايتها وتوفير كلّ سبل الأمن والقوّة لها، تلك الزّيارة جعلتني أقارنهم بنا، ونحنُ أبناء أمّة عريقة في أحوالنا، ومدى كسلنا وإهمالنا، وانقضاء أعمارنا نلهثُ فقط وراءَ لقمة عيشنا بلا هدفٍ ذا قيمة.

سكتَ حسام وقد دمعت عيناه، فالتفتَ إلى البحر، تركته عزّة قليلًا، ثمّ قالت:

- أكمل.

- بعدما عدتُ اتّصلت بمكتب رئاسة الجمهورية، وطلبت تحديد موعدٍ لمقابلة الرئيس السادات.

ضحكتْ عزّة:

- رئيس الجمهورية مرّة واحدة!!

بادلَها بابتسامة:

- نعم رئيس الجمهورية مرّةً واحدة، وفي خلال أيّام قليلة استقبلني السادات في مكتبه بترحاب كبير، وكان معه نائبُه في ذلك الوقت حسني مبارك، وضعت بين يديه تقريرًا مفصلًا عن زيارتي لإسرائيل، أمسكه بيديه وفتحَه وقلّب بعض الأوراق قليلًا، ثمّ وضعه وأشعلَ غُليونه بهدوء، ثمّ قال لي: أريد أن أسمعك يا حسام.. فتحدّثت معه ما يقرُب من السّاعة دون أن يقاطعني؛ كلّمته عن البعثة، وما اكتشفتُه من خلالها، وعن الإمكانات البشريّة والعلمية لدينا والمؤهّلَة لأنْ تستعيد مصر عافيتها الزراعية، حتى في ظلّ وضعنا الاقتصادي المحدود، كذلك ضربتُ له أمثلة عن بعض مشاريعي الزراعية التي أجريت عليها تجاربَ معملية، وأبقيت التجارب الحقليّة لحين العودة لمصر، من ضمْنِها مثلًا زراعة القمح بمياه البحر.

اندهشتْ عزّة، فابتسم حسام:

- هذه فكرةٌ بدأتْ في أواخر الأربعينيّات، وجرى بعدها مجموعةُ تجارب على مدار السنوات التّالية، وقد التقطتُ الفكرة وعكفتُ على مراجعة كلّ

الأبحاث والتجارب السابقة، وتكوّنت لديّ مجموعةُ أفكار لتطويرها بشكلٍ مُختلف، وكنت على ثقةٍ وقتَها من نجاحها.

- واقتنع السادات بأفكارك؟

- الرّجل كان يستمع باهتمام، وبدا مقتنعًا بممارسة التّجربة، وقال: كلّ إمكاناتنا طوْعُ أمرك، حدّد فقطً ما تريده.. وكنت جاهزًا بأفكاري فقلت: سأحتاج بعضَ قطع الأرض في أماكن جغرافيّة مختلفة على مستوى القطر بالكامل لإجراء تجاربي الحقلية، بالإضافة إلى بعض الإمكانات المعمليّة لتطوير المعامل الزراعية، وسوف أضعُ بين يدي سيادتكم نتائج مبْهرة، وفي وقتٍ قريب ستقلب موازين الزراعة في مصر والعالم.

بفضولٍ طبيعي:

- وحسني مبارك ماذا كان رأيُه فيما عرضته؟

- الرجل لم يفتح فمه سوى لشربِ الشّاي، ولم يدْلِ بدلوه ولو بكلمةٍ واحدة.

فترةُ صمتٍ قصيرة تدافعت فيها الذكرياتُ إلى رأس حسام، ذكرياتٌ لم يحدّث بها أحدًا من قبل.

احترمتُ هذه المرّة صمتَه الهارب للبحر، فقد قرأتُ في وجهه أنّه سيحكي تجربتَه المريرة في الوطن.

التفتَ إليها فتعلّقت العيون بنظرةٍ عطوفة امتدّت بينهما كالنّهر يروي في طريقه كلّ العطاشى، تبادلا فيها كلماتٍ لا تُنطَق، ومشاعر تائهة وجدت أخيرًا طريقها، قالت عيناها: لا تتركني، وقالت عيناه: ضمّيني.

تنبّه حسام فخاف على جسوره المتهاوية، فابتسم متسائلًا:

- أُكْمل؟

هزّت رأسها بالموافقة، ومازال نهرُ عينيها يتدفّق، فيما اعتدل وأكملَ رحلته الطويلة:

- صدقَ الرّجل معي، ووفّرت الوزارة كلّ ما أحتاجه، وغطّت كلّ طموحاتي المأمولة، وكذلك صُرفت ميزانيةٌ استثنائية لأبحاثي، وكوّنت عدّة فرق للعمل في تلك الأماكن، وأقمتُ مجموعةً من ورش العمل وضعنا فيها خطّة العمل بالكامل.

- واستطعتَ أن توفّق عملك في هذه الأماكن المتباعدة؟

- كنتُ أنام في حدود السّاعتين يوميًّا، وأستغلّ السفر في استكمال النوم، وكانت فرق العمل في مُنتهى الحماس والاندفاع، نظّمنا جدول أعمالنا بدقّة مُتناهية، كُنّا نشعر أنَّ هذه اللحظة القويّة هي أجمل ما في حياتنا على الإطلاق، كانت هذه التجارب جزءًا من مشاريع طموحَة، وكلّها ستصبّ في دعم الاقتصاد الوطني عن طريق مضاعفة إنتاج الأرض المزْروعة مع جوْدة المنتج، وآمنة على الصّحة العامّة للناس.

كان حسام مندفعًا في حديثه الأخير وهو يضربُ أمثلة كثيرة لأفكار زراعية مُبدعة وخلّاقة، مازال رأسه عامرًا بها رغم تقدّم العمر حتى شعرتْ عزّة أنّه يعدو بأقصى سرعة، ثمّ توقّف قبل نهاية السّباق لسببٍ تجهله، تعلّقت

عيناها تستنطقه ليكسر صمتَه الذي حلّ فجأة، ابتسم ابتسامة باهتة، ثمّ هزّ رأسّه بأسى:

– ثمّ انْتهى كلّ شيء في لحظةٍ حين اغْتيل السادات، تغيّرت معالمُ مصر، وظهرت أسوأ صفةٍ ورثناها من الفراعنة، أنّه لا سياسة عامّة للدّولة، ولا رؤية حقيقية للمستقبل، الشعب كلّه مرتبط بفردٍ واحد؛ برؤيته، بنظرته، وبإلهامه، فإذا ما ذهب فرعون؛ ذهب معه تاريخُه، ودارت سياسةُ الفراعين، يأتي الفرعون الجديد برجاله ودولته، فيطمس كلّ التّاريخ السّابق لسلفه ليسجّل تاريخَه هو، متصوّرًا أنّه التاريخ والحاضر والمستقبل، وأنّه شمسٌ لا تغرب أبدًا، ذهب السّادات، وأتى حسني مبارك، ليتبدل كلّ شيء في غمضة عينٍ ليؤسّس لدولته برجالٍ جُدد ومفاهيم جديدة.

– طبيعي أنَّ كلّ رئيس جديدٍ يأتي بوجوه جديدة لتحقيق مشاريعه.

– نعم، ولكنْ هناك سياساتٌ عامّة وقواعد أساسية في كلّ الدول الحقيقيّة في العالم لا يستطيع أحدٌ تغييرَها إلّا عن طريق خبراء متخصّصين ونقاشات مجتمعية، وتعرَض على مجلس شعبٍ منتخب انتخابًا حقيقيًّا وليس بالتزوير.

فترةُ صمتٍ يحاول فيها حسام أن يسيطرَ على المرجل المشتعل بداخله، تنفّس بعمق من هواء البحر، ثمّ زفرَ زفرةً قوية:

– كان أسوأ ما فعله السادات توقيعَ معاهدة السلام، فيما كانت مصر تفكّر في استراحة المُحارب لإصلاح اقتصادها المتهالك، كان لدى اليهود سياسةٌ عامّة ثابتة وواضحة، ورؤى مستقبلية لدى كلّ قادتها وأحزابها بمختلف انتماءاتهم وصراعاتهم الحزبية للسيطرة على كلّ مفاصل مصر ولعقود طويلة،

تبدأ من عزْلها عن محيطها العربي والإسلامي فتفقد الأمّة قيادتَها الحقيقية، وانتهاءً بتركيعها وجعل اقتصادها تابعًا عن طريق لُقْمة العيش، ولذلك كان خروجُ أنور السادات من المشهد حتميًّا ليجيء حسني مبارك رجل المرحلة بحقّ، شخص بلا ملامح، ولا رؤية مستقبلية، ولا سياسية واضحة للوطن، ولا مشاريع اقتصادية حقيقية؛ سوى الأوهام التي يسوّقها الإعلام لاكْتساب شعبية في بداية حكمِه، ثمّ لحق به وزيرُ زراعة جديد ليفتتح عهدَه بتجريف كلّ أحلامي؛ ففي اليوم التالي لمجيئه- وقد بدأت الأراضي التي أعمل بها تجاربي تُبشر بالخير- جاءت قوّاتٌ كثيفة من الأمْن المركزي لتحيط بكلّ قطعة أرض لتسوّي كلّ طموحاتي الزراعية بجرّافات صمّاء قاتلة، وتدفنها فيها، وسطَ ذهول المزارعين.

- هل من المعقول أن يحدث ذلك؟!!

قالتْها عزّة، وقد وضعت يديها على فمِها، وجحظت عيناها من الاندهاش.

توقّف حسام عن السّير، ثمّ واجه عزّة، ونظر إليها طويلًا، ثمّ قال:

- تملّكني نفسُ الإحساس الذي تمكّن من قلبي في أمريكا، مع سارة، وفي السفارة المصرية، وفي حفل توقيع الاتّفاقية المشؤمة، استيقظت نفس المرارة مرّة أخرى، هناك شعرت أنّه يجب عليّ أن أنجزَ فروضي العلميّة لأعود إلى مصر، أرض العطاء الحقيقي، وفي وطني انْهار كلّ شيء في لحظة، وضاقت الدّنيا واكتشفت أنّ علمي وعمري كلّه بلا قيمة حقيقية.

- ثمّ استسلمت، وانتهى كلّ شيء، وانتهى حسام معه، أليس كذلك؟!!

- لا تظلميني مثلهم، فلم ينتهِ الأمر، ولم أستسلمْ، ولكنْ قولي لقد بدأ، بدأ كلّ شيء.

ردَّ عليها بوجهٍ جامد، وجسدُه يرتجف حتى ارتعدت مِن شكله، ثمّ ضحك ضحكةً طويلة، وبصوتٍ عالٍ أكثر ممّا يجب حتى وصلت الهيستيريا به إلى أن يجثو على ركبتيه ويبدأ في نوبة بكاء، تفجّرت دموعُ سنوات عمره الحبيسة في لحظة.

ظلّت عزّة واقفةً في ذهول من ردّة فعله، ثمّ رقّت لبكائه فاقتربتْ منه، وبيدٍ مرتعشة مسحت على شعْرِه عدّة مرّات:

- حسام أرجوك، قلبي لا يحتمل دموعَك، لقد بدأ يؤلمني.

انتبه لكلامها فتوقّف عن البكاء، ثمّ رفع رأسَه، والدّموعُ تغرق وجهه مبتسمًا لها.

شتاء العام ١٩٨٣

تعوّد حسام منذ أن توقّفت مشاريعه على الأرض، أن يجلس أوقاتًا طويلةً في عمله بين التدريس في الجامعة ومعامل البحوث، لا يفعل شيئًا سوى أن يُجري بعض التجارب بإمكانيات محدودة وملل كبير، يدوّن أفكارًا في أجندته الحمْراء المباحة والمتاحة لكلّ أحد، وعقله قد استعادَ نشاطه بتخْزين أفكاره الخاصّة كما كان يفعل في أمريكا، فعلَ ذلك بتلقائية غير مرتّبة، هسيس داخلي دفعَه لذلك، يخبئ أفكارَه ممّن؟ لا يدري، هو الآن في حضن الوطن، ولكنّه حضن غريب، يحمل نفسَ ملامح الخوف والترقّب التي عاشها في البعثة، يحمل أثقالًا في رأسه، ولا يجد مكانًا ليضعها فيه.

جلس مع أبيه عصرَ ذاتِ يوم يشربُ الشاي شاردًا كعادته في الفترة الأخيرة، أبوه يحترم صمتَه، ولكنّه يتألّم لتلك الزّهرة الفوّاحة التي يراها تذبلُ أمامه دون أن يستطيع فعل شيء تجاهها، كانت خطيئةً كبرى أن تركَه يسافر لأمريكا، ملعونٌ أبوها تلك البعثة، أمّه تروح وتجيء تريد أن تطلب منْه أن يرى تلك العروس الجميلة، ابنة خاله، تنظر لأبيه وينظر لها، نظرات حائرة متبادلة، طال الصّمت، وحين همَّ بكسر الحاجز سبقَه حسام فالتفتَ إليه فجأة مبتسمًا:

- أبي، أريد أن أقول لك شيئًا، وأخشى أن تضحك علي.

دمعةٌ تريد أن تطفرَ من عين الحاج محمود تهمّ باحْتضانه، ولكنّ أمّه التي سمعته من قريب، أسرعتْ لتكسر الحزن قبل أن يتوغّل أكثر، واحتوته بحنان ذراعيها ومازحتْه وهي تمطر وجهَه بالقُبَل:

- قلْ يا حبيبي، وسنضحكُ عليك.

فانفجر ثلاثتُهم بالضّحك، ومسح الحاجّ محمود عينيه بباطن كفّه:

- أضحكتينا والله يا أمّ حسام، أسعدك الله.

اعتدل حسام في جلسته، وقال بعد أنْ ذهبت أمّه لتعدّ لهما شايًا آخر:

- أعرف أنّك لست أبي فقط، ولكنّك صديقي أيضًا، وستتفهّم ما أقول.

اهتمّ الوالد واقترب منه أكثر، فقال حسام:

- أريد أن أذهب لطبيبٍ نفسي.

قطب الأب جبينَه بجزع:

- خيرًا؟!

- منذ وقتٍ ليس بالقصير أصبحت أشعرُ بنوعٍ من التوهيمات يصيبني.

- يا لطيف يا ربّ، استعذْ يا ولدي من الشّيطان الرجيم، كيف يحدث ذلك؟!

- أشعرُ منذ فترة بأنَّ أحدًا ما يراقبني، يتتبّعني طول الوقت، في الجامعة، يسير ورائي في الطّريق ويرصد كلّ تحركاتي، إذا دخلت البيت أشعرُ أنَّ أحدًا

كان فيه، تنبّهت كثيرًا لذلك دون دليلٍ واضح، يقينٌ يملأ عقلي ولكنّي لم أستطع إثبات شيء، أتعبني هذا الأمر، وفي الأخير غلب على ظنّي أنّني مريض ويتوجّب عليّ أن أذهب لطبيبٍ نفسي، فربما يزداد هذا الشعورُ ويتطوّر معي للأسوأ، فما رأيك؟!

سكوتُ عجزٍ يغلبُ الحاج محمود، يرتشف الشاي ساهمًا، وحسام بجواره ساكنٌ مستسلمٌ لَمَا سيقول أبوه، ثمّ اقتحمت أمّه مجلسهما على غير عادتها متبرّمَة:

- حسام يا ولدي، أنا تعبت ومللتُ الحياة وأتمنّى أن أموت.

حجرٌ ثقيل ألقي فجأةً في البِرْكة الهامدة فتناثرَ الماءُ بهمّة ونشاط في وجوههم، اندهش الرجلان، ثمّ قام إليها قبل أن تتبرّم أكثر؛ فهو لا يقدرُ على عصبيّتها، فاحتضنها وقبّل يديها ورأسها:

- بعيد الشّرّ عنك يا ستّ الحبايب، وأهونُ عليك أن تتركيني وتذهبي!!

ردّت كطفلةٍ غاضبة:

- نعم، كما أهونُ عليك أن تصل لهذه السنّ دونَ زواج، وتحرمني من رؤية أحفادي.

- أفهمُ من كلامك أنّك اخترت عروسًا تليق بي؟!

- نعمْ هناء ابنةُ خالك الحاج سعيد.

تفاجأ حسام، فرفع رأسَه بسرعة لأبيه يستنجدُ به، الذي التفتَ إلى الجانب الآخر هاربًا بوجهه، تاركًا القرارَ لهما، فهناءُ فتاةٌ رائعة خلقًا وأدبًا،

ومن بيتٍ كريم غير أنّها صغيرة عليه قليلًا، هذا فقط وجهُ اعتراضه، استيقظ حسام على صاعقة أمّه الجديدة حين قالت إنّه فاض بها، فكلّمت أخاها في الأمر الذي رحّب بالأمر، وبالطبع نقل الكلامَ لزوجتِه، وبالتالي هناء.

هذه المرّة لم يستطع الحاج محمود أن يكتم ضحكَه من ابنه الذي ابتسم مغلوبًا على أمره، فاعتبرت أمّه هذه الابتسامةَ الموافقة الرسميّة على طلبها منه.

حسام لا يعرف لماذا وافقَ على الذّهاب معهما لطلب يد ابنةِ خاله!! هو يعرفها بالتّأكيد؛ طالبة في الثّانوية العامة، عشرُ سنوات هي الفرق بينهما تقريبًا، تباينت آراء أصدقائه، فعمرو كالعادة لا يرى في ذلك بأسًا، زيجات مثلُ هذه كثيرة تملأ المجتمع وناجحةٌ جدًّا، وليد يتحدّث كثيرًا عن المستوى الثقافي والفكري المتوجّب وجوده بين الرجل والمرأة.

لم يقتنعْ برأي هذا ولا ذاك، ولكنّه وافق على الذّهاب لخطبة هناء حين شعر أنَّ عليه أن يهرب من محيطِ هواجسه إلى محيط جديد يحاول أن ينشغلَ به، ولكنّه لم يسأل نفسَه السؤال الأهمّ، هل هذا أساسٌ جيّد لإقامة حياة زوجية سعيدة؟

في بيت خاله اكتشفَ أنَّ هناء التي لم يعرفها إلّا طفلة قد استدارت أنثى جميلة، وجهُها أبيض مكتنزٌ كالقمر، بعض النّمش يتناثر على وجنتيها فيزيدُه فتنة، أعجبته وارتاح لها.

كان المجلسُ عامرًا بالدّفء الذي يفتقده حسام في حياته بالقاهرة، ودّ في تلك اللحظة لو ترك الدنيا كلّها، واستدار عائدًا ليفلح أرضَ أبيه بالمزْروعات

التّقليدية، ويعيش في كنَفِ هذه الفتاة، وينجب منها أولادًا كُثر ليسعدَ أمّه وأباه، ما أبسطها وأجْملها من حياةٍ، وليحترق بعدها الكون كلّه.

جلس عدّة أيّام في البلدة، كان يري فيها "هناء" كلّ يوم، على الرّغم من أنّه لم يشعرْ بها كحبيبة ولكنّه استراح لها، استمع لها كثيرًا، كان مُجمل أحاديثها عن نفسها وطموحاتها الشخصية، وسعادتها الكبرى أنّها ستعيش في القاهرة، وأنّها ستخرج أخيرًا من هذا الهدوء القاتل في قريتهم إلى الحياة والأضواء والصّخب، كانت كلّ اهتماماتها مُنْحصرة في مجلات الأزياء والموضة والرّوايات الرومانسية، وتتبّع أخبار الممثلين وأحدث الأغاني، لم تسألْه عن أحلامه ولا عن طموحاتِه أو أفكاره، ولا حتى أحزانه وهواجسِه، كانت طوالَ الوقت تتكلّم وتتضاحك، لم يأبه حسام لكلّ ذلك؛ فهي في نظره مازالَ بها بعضُ الطفولة التي تسابق نضجَها، يحاول أن يخرج بها من محيطِه لمحيطٍ آخر ليتنفّس بهدوء.

تمّت قراءة الفاتحة قبل عودتِه للقاهرة على أن تعلنَ خطبتهما في الأجازة الصيفية، وعاد حسام ليجدَ نفسَه في ذلك المحيط مرّة أخرى، ولكنْ بصورة مختلفة.

صيف العام ١٩٨٤

في مكتبِ عميد الكلية، استقبله الرّجل بابتسامةٍ حاول أن تكون ودودة، ولكنّها لم تبدّد مخاوفه، تذكّر العميد السابق الذي قابله في نفس المكتب منذ سبعِ سنوات، قدّم له عونًا كبيرًا في إتمام بعثتِه، وهمس بداخله: رحمه الله.

ابتسامة العميد لَزِجة، مثْل السّيجار الضّخم الذي يضعه بين شفتيه، يُعيد التّرحيب الثقيل مرّة تلو المرّة، يبتسم حسام ابتساماتٍ باهتة، يحاول أن يُشْعرَه بالتّجاوب، مقدّمة طويلة يريد فيها العميد أن يصلَ لهدف، شعرَ به حسام من أوّل لحظة، تركه يسيرُ في طريقه الطويل، بينما يشرب فنجان القهوة.

وصلَ العميد لمحطّته الأخيرة حين أخبره أنَّ هناك بعضَ الدّول تريد الاستعانة ببعض أبحاثه بالمقابل المادي الذي يريده، ويمكنه كذلك السّفر لو أراد على سبيل الإعارة من الجامعة، سأله عن هذه الدّول، تنحنح العميد:

- بعض الدول حوْلنا في المنطقة.

- مثل؟!!

- بعض الدّول العربية.

- وإسرائيل، ألم تطلبني!!؟

باغتَه السّؤالُ لوهلة، ولكنّه تمالك نفسَه بسرعة، ثمّ بنظرةٍ قويّة:

- نعمْ إسرائيل طلبتك بالاسْم، ولكنْ قلْ لي يادكتور حسام.. ما الذي جعلك تخمّن أنّها إسرائيل!!؟

ابتسم لأوّل مرّة منذ بداية اللقاء ابتسامةً عريضة:

– سيادة العميد، ليس هناك دولة في المنطقة العربية تملك قرارًا بشأن غذائها سوى إسرائيل، نحن مجرّد تابعين فقط، لن نزرعَ أو نأكل سوى ما يقرّره أعداؤنا، وبالتالي فهي المعنية بتطوير زراعتها والبحث عن الأفكار الجديدة في هذا المجال.

تغيّر مستوى صوت العميد لمستوى الخضوع:

– أنتَ تعرف أنَّ العالم الآن يتغيّر، والسياسة تقبل تبديلَ الأدوار، فأعداءُ الأمس هُم أصدقاؤنا اليوم، والعلم لا وطنَ له، كما أنَّ المبلغ المعروض يسيلُ له اللعاب.

يحاول حسام السيطرةَ على نفسه، أخذ رشفتَه الأخيرة من فنجانِ القهوة المُرّ، ثمّ وقف بتحفّز:

– يا سيادة العميد، أؤكّد لك أنّنا لو لم ندرك المُنزلق الذي تهوي إليه الوزارة، سينتهي محصولُ القطن، وسيزداد اعتمادُنا على القمح المستورد، في خلال سنوات قليلة، وأؤكّد لك أيضًا أنَّ زحفًا مهولًا من الكيماويات الضّارة بدأ في غزونا، ولو استمرّت هذه السياسة التي تعتمدها الوزارة، فسوف ينتهي بنا الحالُ إلى الفقر الزّراعي والمائي والحيواني.

تجاهلَ العميد كلَّ ما سمعَه، وقام من مكتبه ليهدّئ الموقفَ الذي احتدم:

– دكتور حسام، أنت عالمٌ متميّز في مجالك، ولديك أفكار مهمّة، يحتاجونها في تطوير الزّراعة لديهم، وكما قلت لك إنَّ المقابل خيالي.

- ونحن يا دكتور!! ألسنا في احتياج لتطوير منظومتنا الزّراعية؟ ما الدّاعي أن نبيع عقولنا لأعدائنا، ثمّ نعتمد عليهم في طعامنا!!؟

- أنتَ تُهوّلُ الأمرَ، الأمرُ أيسرُ من ذلك، ماذا قلتَ في العرض؟

- غيرُ موافق بالتّأكيد على فكرة السّفر بصفةٍ عامّةٍ، وعلى الكيان الصهيوني بصفةٍ خاصّة، أمّا أفكاري فهي في متناول اليدِ على مكتبي في معمل البحوث الزّراعية وهي مُباحة ومُتاحة.

مالَ إليه عميدُ الكلية، وقال له بحروفٍ مُغلّفة بتهديدٍ مُسترٍ:

- ليستْ هذه الأفكار التي نريدها، ولا المدوّنة في أجندتك الحمراء الشّهيرة في أمريكا ومصر، بل نريد عقلك وكلّ ما يحتويه.

وبنفسِ نبرةِ التّهديد:

- وأنا كذلك لن أسكتَ على هذا.

- لا تكنْ غبيًّا، العالم يتغيّر بأسرع ممّا تتوقّع، والتّغيير الذي تعيشه مصر أقوى منّي ومنك، طوفانٌ قادم لن يستطيع أحدٌ الوقوفَ في وجهه، ولا منْعه، سينتهي كلّ مَن يقف في طريقه، ولن يشعرَ به أحد.

- وأنا لا أستطيع أن أنحني.

- انتهز الفرصة، يمكنك تحقيق استفادةٍ ماديّة هائلة، وشهرة تبلغ الآفاق، ستصير ملء السمع والبصَر، أتوقّع لك في غضون سنواتٍ قليلةٍ أن تحصل على جوائز عالميةٍ عديدةٍ، وستصلُ حتمًا لجائزة نوبل في العلوم، إذا نظرت للأمر بذكاءٍ أكثر من ذلك.

انصرفَ حسام وفي قلبه غصّةٌ موجعةٌ، وفي حلقه مرارةٌ كبيرةٌ، ولكنّه صمّم على المضي في الطّريق لآخر مدى.

في المساء التقى بصديقيْه، وعرضَ عليهما ما حدث فنصحَه وليد أن يتواصلَ مع بعض صحف المُعارضة في مصر، فموضوعٌ كهذا يمكن أن ينفجرَ كقنبلةٍ في وجه وزارة الزراعة، ويكوّن رأيًا عامًّا شعبيًّا ضاغطًا، لاسيّما وهو يمسّ- بصورةٍ مباشرةٍ- قوت النّاس، اقترح عليه عمرو أن يُعدّ ملفًّا كاملًا ويرسله دفعةً واحدةً للصّحافة، أيّده وليد بحماسٍ واقترح اختيار صحيفةٍ لها توزيع عالٍ حتّى يضمن وصولَ الموضوع لقطاعاتٍ كبيرةٍ من الشّعب.

تيقّن حسام أنّه مراقَبٌ، خاصّة بعد كلام العميد عن أجندته التي يدوّن فيها أفكاره، وكانت سقطتُه في الرّبط بين أمريكا ومصر وتتبع الأجندة الحمراء، الموضوع كما توقّعه وأحسَّ به، فكان عليه أن يُعدّ الملفّ في مكانٍ آمن أكثر حتّى من بيته.

في خلال أيّام قليلة، كان قد أعدّ ملفًّا كبيرًا يحوي عدّة موضوعات خطيرة عن مستقبل الزراعة في مصر، مدعّمًا بالوثائق التي استطاع الحصولَ على صورٍ منها، وفي نفس الوقت تواصل وليد وعمرو مع جريدةِ الشّعب، فقد شعرا أنَّ لديها الجرأة والقدرة على الصّراخ بصوتٍ عالٍ يسمعه الجميع.

وصدرتْ أولى الحلقاتِ من حملةٍ صحفيّة كبرى نوّهت لها الجريدة على مدار عدّة أيام، أعدّتها بحسّ صحفي مُحترف، بمانشيت كبيرٍ جذّاب تصَدّر الصفحةَ الأولى باللّون الأحمر العريض (لا تتناولوا الطعام، فالزّراعة وصل لها السمّ القاتل) كانت المعلومات الواردة في المقال كثيفةً ومذهلةً ومُرْعبة

ومدعذمة بأدلّة ووثائق، فانتقلت بين النّاس كالنار في الهشيم وهي تلتهب في موادّ سريعة الاشتعال، وانقلب الحالُ في مصر بردٍّ فعلٍ غير متوقّع من قطاعات كبيرة من الشعب، وأصبحت حديثَ الناس، وتقدّم على أثَرها مجموعةٌ من نوّاب مجلس الشعب بطلبٍ عاجل لاستجواب السيد وزير الزراعة.

تقاريرُ عاجلةٌ رفعتها أجهزةُ المخابرات لمؤسّسة الرئاسة، تحدّثت عن حالة من الرفض الشعبي تنتشر بقوّة، وعن التخوّفات من استغلال المعارضة في إشعال شرارة لا يمكن السيطرة عليها، مثلما حدثَ في مظاهرات سنة ١٩٧٧، ثمّ ذيّلت التقارير بعدّة مقترحات للحلول، كان على رأسها إقالة السيّد وزير الزراعة لامتصاص الغضب الشعبي المتزايد، كذلك اقترحت شغلَ الرأي العام إعلاميًّا ببعض الموضوعات التي تلفتُ انتباه الناس، ومرفق عدّة قضايا يمكن لوزير الإعلام تسليط الضّوء عليها في مختلف وسائل الإعلام، وكانت أهمّ وصيّة شدّدت عليها هي وجوب مُصادرةُ العددِ القادم من الجريدة، والذي ستحتوي على الملفّ الثّالث، وهو موضوع عن المبيدات المسرْطَنة المهرّبة من إسرائيل عبْرَ سيناء، ومدى تأثيرها المُهلك على الصّحة العامّة للمواطنين، حيث ستحتوي هذه المقالة على معلوماتٍ حقيقية وصادمةٍ للرأي العام.

المعلوماتُ الكثيفة التي وردتْ في المقالين، جعلت أجهزةَ الأمن- بتوجيهٍ من رئاسة الجمهورية- تتحرّك بسرعةٍ في اتّجاهين؛ أوّلها معرفة مصدر المعلومات، وثانيها مصادرة عددِ الجريدة الذي يحوي الملفّ الثالث، وانشغلَ

الرأي العام بإثارة موضوعاتٍ فنيّة ورياضية في وسائل الإعلام بالأحاديث المطوّلة والتّفاصيل المتنوّعة عن التجهيزات لدورة الألعاب الأوليمبية بلوس أنجلوس، وتفاصيل أخبار اللّاعبين والإصابات، والقضيّة المرفوعة على فيلم الأفوكاتو التي أثارتها بتطاول الفيلم على القُضاة، وكذلك فجّرت صفحات الحوادثِ قضيةً شغلت الرأي العام بقَوّة، وهي اغتصابُ ثلاث مُراهقين لفتاةٍ صغيرة لم تتعدّ العاشرة، وأفردت عدّة مقالات بالصحف ولقاءات تلفزيونيّة وإذاعية مع أخصائيّين نفسيّين واجتماعيّين؛ للحديث- بإسهابٍ- عن نفس الموضوع، ولم يعلمْ أحد أنَّ أصلَ الحكاية كان مجرّد سرقة حلقِ ذهبٍ من أذن الفتاة ليس إلّا!! ووسط كلّ هذا الزّخم الإعلامي لم تتمّ إقالةُ وزيرٍ الزراعة أو محاسبته، أو حتى فتح تحقيق حول هذه الموضوعات الخطيرة، وفيما كان النّاسُ في مصرَ منشغلين بكلّ هذه البالونات الإعلامية، تمّ اعتقال الأستاذ الجامعي، الدكتور حسام محمود عبد اللطيف المصري.

العام ١٩٥٥

محمود عبد اللطيف، يقفُ بجسدِه العريض كعمودٍ فرعوني من الرّخام لا يطاوله أحدٌ في صحن الدّار، وبرغم مهابته لدى الجميع إلّا أنّه كان خائفًا قلقًا، يغلب على حركته التّوتر جيئةً وذهابًا، زائغ النّظرات، يحاول جاهدًا أن يتمالك أعصابه فيضغط بقوّة على حدقتيه بجفنيه في محاولة مستعصيةٍ للسّيطرة على مشاعره، هذه رابع مرّة تحمل زوجتُه، ولأوّل مرّة يكتمل الحملُ حتى الوضع، الجوّ مشحونٌ بالخوف والترقّب، فقد رقدت زوجتُه على ظهرها طويلًا، فقد هدّدها بأنّه سيتزوّج عليها في حالِ لم تستمعْ لأوامر الطبيب، وتُهمل كما أهملتْ في المرّات السابقة، ممّا كان يجعل أجنّتها لا تستقرّ في بطنها.

ساعاتٌ طويلة مرّت عليه، والقلقُ يأكله، وصراخُ زوجته متواصل لا ينقطع، ثمّ هدأ الصراخ وسكَنَ، ولكنّه لم يسمع حسًّا لمولود، وبينما هو في حيرته خرجتِ الدّايةُ ووجهُها مضطرب، فنظر إليها بعينين متّسعتين ملهوفتين:

- خيرًا؟

قالت، وقد أخذ الاضطرابُ منّها كلّ مأخذ:

- لقد ولدتِ الستّ ليلى مولودًا، ولكنْ يبدو أنّه نزل ميتًا، فلم يصدر منه صوتٌ أو حتى حركة!

صرخ في وجْهها صرخةً مدوّية كأنّها من قوّتها أوشكت على هدْمِ جدران البيت:

- سأقتلكم جميعًا يا أولاد الكلب.

فرّت المرأةُ من أمامه، فأسرعَ للغرفة فوجدَ النساءَ واجماتٍ سوداوات الوجوه كثيابهنّ، وامرأته تشيحُ بوجْهها الشاحب عنْه باكية، تلفّت يبحث عن المولود، فوجد أمّه وقد لفّتْه وحملته بين ذراعيْها، اقتربَ منها، نظرت إليه وبحروفٍ قوية:

- محمود، إنتَ إنسان مؤمن، ولا يصحّ أن تكفر بقضاء الله، صلِّ على النبي في قلبك، وارضَ بقضائه.

جدارٌ صلب، لا يسمع ولا يرى، ذهبت كلماتُها أدراج الرياح، عيناه لا تفارقان المولود، مدَّ يديه وحملَه برفقٍ بين ذراعيه، نظرَ إلى وجههِ الهادئ بسكونٍ ملائكي، ضمّه إلى صدره بقوّة حانية مشتاقة، ثمّ قبّله برفق، أوّل مرّة يحمل بين ذراعيْه مولودًا مكتملًا، ولكنّه ساكنٌ بلا حياة، ارْتعش جسدُه بنهنهة، وانْحدرت دمعةٌ تلتها أخرى ولحقتها دموعٌ غزيرة، أغرقت وجهَه ووجهَ الطّفل السّاكن، ربتت أمّه على كتفه:

- استرجعْ يا ولدي، واحتسبْه عند الله، لا يعزّ على خالقه.

وفجأة، عطس المولود، وتلاها عطسةٌ أخرى، ثمّ سكتَ هنيهة، وسكت معه الجميع من الذهول، وكأنّ الكون كلّه قد صمت معهم، ثمّ صرخ المولود خائفًا باكيًا، فتعالت في الدّار الزغاريدُ والبكاء، ومحمود يضحك والدّموع تتدفّق أكثر صارخًا:

- آه يا ابن الكلب.

ثمّ أخذ يضحك بهستيريا، ويكرّر:

- اللهمّ صلّ على كامل النّور، اللّهم لك الحمد.

وامتلأ البيت بالبهجة والأقارب والجيران، وأشرقت الشمسُ بعد ليلٍ طويل، وصفعت السّعادة وجه الحزنِ الجاثم على قلب الدّار ونفضته، واستعادتْ ليلي أنفاسها مع صراخ وليدها، وتدفّق الدّمُ في جسدِها الواهن لتدبّ فيها الحياة مرّةً أخرى.

يستعيدُ الحاج محمود أهمَّ حدث مرّ عليه في حياته، بكلّ تفاصيله، بعد هذه السنوات؛ مولد حسام، ترحلُ عيناه الدّامعة في المساحةِ الخضراء الشّاسعة أمامه، متذكّرًا هذا اليوم الذي غيّر مجرى حياتِه بالكامل بعد أنْ ضاقت به الدّنيا وهو مازال في ريعان شبابه.

زارَ الفرحُ دارَهم أخيرًا بعد ثلاث سنوات عِجاف، بدأت يومَ أن صادروا أرضهم بجرّة قلم على مجموعةٍ تافهةٍ من الأوراق بقوانين ما يسمّى بالإصلاح الزراعي.. ألفَا فدانٍ ورثَها أبوه عن جدوده، ذهبت في لحظةٍ أدراجَ الرياح، واكتستِ الحياة بالقهر، وهو يستيقظُ على مجموعة من ضبّاط الجيش يحتلّون دارهم ومعهم أوراقُ وخرائطُ ترسم حدود الأرض.. في لمح البصر، وجد هذه المساحةَ الهائلة من أرضه قد قُسّمت لقطعٍ صغيرة وعليها مُلّاك كانوا يعملون أُجَراء عند عائلته.

لم يستطعْ أبوه أن يستوعبَ الموقف، فسقط صريعًا لجلطة أدّتْ به إلى الشّلل، ثمّ توفّي بعد أشهر قليلةٍ من الحسرة.

لم ينسَ أبدًا، أنّه أيّد حركةَ يوليو منذ يومِها الأوّل، ودعّمها واستبشر بها خيرًا، رغم معارضة أبيه، عرف بعدها أنّ الحاج عبد اللطيف ثاقبُ النّظر بمجرّد أن تفرّس في صور الضباط في الجرائد، تحت عناوين صدور قوانين للإصلاح الزراعي، ثمّ قال في مجلسٍ ليليّ مع أسرته: يا ويلنا من السياسة وألاعيبِها، في سبيل تحقيق مكاسب سياسية، وعلوّ شأن هؤلاء الضباط، وازدياد شعبيّتهم؛ سيفعلون أيّ شيء مهما كان؛ صالحًا كان أم فاسدًا، وستتغيّر مصر كلّها للأسوأ، وأوّل ما سيتضرّر من هذه الحركة هي الزراعة.

وصدقَ حدسُه، ففي غضون أيّام قليلة من الثورة بدأت المقدّمات، فكثر الحديث في الجرائد والمجالس عن الإصلاح الزراعي وفوائده، والعدالة الاجتماعية الغائبة، وحقوق الفلاحين المسلوبة، وحقّهم الطبيعي في حياة كريمة، واختلف محمود مع أبيه اختلافًا حادًّا، فقد رأى أنّ ذلك لنْ يضيرهم كملّاك للأراضي في شيء، فالفلاحون في حيازتهم يأخذون حقوقَهم كاملة، وأنّ عائلتَهم تُعدّ نموذجًا يُحتذى به في هذه الأمور، حتى قال له أبوه ذاتَ مرّة: لا يغرّنّك الكلام الأجوف، فوراءه سمٌّ زُعاف، حتى روسيا نفسها أم الاشتراكية لم تفعلْ ذلك، وكلّ المستشارين الأجانب الذين يشيرون بتفْتيت الأرض ذئابٌ لا يبغون لمصرَ أن تكون قويّة وغنية، هناك ألفُ وسيلةٍ لإعطاء الفلّاحين حقوقهم ومنْحَهم حياة كريمة غير أنْ نهدم هذه القوة الاقتصادية التي تستند عليها مصر.

واشتدّ الصراعُ بين الأفكار المؤيّدة والرّافضة للقوانين في جنبات الصحف، وكثر الجدلُ بين النّاس، والكلّ مترقّب ومتلهّف، وكانت الكفّة الرّاجحة

تميل لرفض هذه القرارات، حتى الجبهة المؤيّدة وافقت بشرطِ تعديل هذه القوانين العمياء التي لا ترى سوى حصاد المكاسب السياسية في الصّراع بين الحرس القديم من العهد الملكي، والحرس الجديد من ضبّاط يوليو، وبغضّ النظر عمّا يحمله المستقبل من مخاوف فلم يمضِ أقلّ من شهرين على قيام حركة يوليو حتى صدّق محمد نجيب رئيس الجمهورية على قوانين الإصلاح الزراعي في مصر، متجاوزًا كلّ التّحذيرات والآراء المخالفة.

وفي بضعِ شهور، تلتْ توقيعَ تلك القوانين، تقلّصت أملاكهم إلى مائتي فدان فقط، وقضى الجَدُّ نحبَه مغصوصًا بالحزن والمرارة، وورثَ ولدُه محمود الأرض المذبوحة والحزن والمرارة كذلك.

ثلاثُ سنوات قضاها ناقمًا كارهًا لكلّ تلك الإجراءات، لا يُطيق أحدًا، ولا أحدٌ يطيقه، يثور ويغضبُ لأتفهَ الأسباب، ودخل في خصوماتٍ ونزاعات كثيرة مع كثيرٍ من أهل البلد، حتى صار مكروهًا وشبهَ منعزلٍ عن محيطه، أهملَ أرضه، لولا بقيّة ممّن كانوا يعملون عند والده لضاعت هي الأخرى، وضاقت الدّنيا بما رحبت، حتى أتى مولُودَه تلك الليلة، فأطلَّ صبحٌ جديد مختلف، فتبدّل حاله تمامًا، كأنّما استدارت الأيّام للوراء، وعادت له أرضُه التي اغتُصبت منه، رجع محمود عبد اللطيف كما كان بين الناس، وما مضى خلال الثلاثِ سنوات العجاف، كان مجرّد كابوسٍ مُزعج، صحا منه فجأة حين صرخَ ولده حسام صرختَه الأولى في الحياة، نبّهته الصرخة، فاستيقظَ من غفوته، وقرّر في تلك اللحظة أن يولَدَ من جديد مع ولده.

ذبح ولائمَ كثيرة، ودعا أهلَ البلدة في المسجد الكبير بعد صلاة الجمعة، وقفَ بنفسه وبصوتٍ ودود دعاهم لمسامحتِه لما بدرَ منه تجاهَهم في السنوات الماضية، بل وطلب كلّ مَن له مظلمة أن يلقيها عند عمدةِ البلد، وأخذ عهدًا أمامَ الناس بتنفيذ ما يحكُم به كبارُ البلد دون مراجعة، ثمّ ذهب بنفسه لدور مَن كانت معهم خصوماتٌ كبيرة ليطلب عفوَهم، وطيَّ تلك الصفحات المؤلمة بينهم، ووسط حالةٍ من اندهاش أهلِ البلد، وجدوا أنّه من العيب عدم التجاوب معه، لم يفكّر فيمن أخطأ في حقّه أو العكس، كان يُفكّرُ فقط في بدْء حياةٍ جديدة يملؤها حبّ الناس القديم له ولعائلته، وتجاوب معه الناس، وحضر أهلُ القرية كلّهم عقيقة ابنه حسام.

لم ينجبْ غيره، حمله بقلبِه قبل يديه، وغمسه في الأرض الطيبة، كبذرةٍ صحيحة تتهيّأ للنمو والعطاء، اعتبره- منذُ لحظة مولده- الأرضَ الحقيقية التي يجبُ أن يستثمرَ فيها، رعاه بعمره كلّه، لم يبخلْ عليه بشيء، كَبُرَ ونما وترعرع في الغيطان، أحبّها وأحبّته، ومنحتْه أسرارًا لم يكن يعرفُها حتى كبار الفلاحين، وعلا وتفوّق في دراسته، وصار نجمًا يُشار له بالبنان، حتى إذا استوتِ الثّمرة وحانَ قطافُها أتاه العسكرُ مرّة أخرى بخريطةٍ سوداء متّشحة بالقهر، ليصادروها بالاعتقال.

تنزوي الأمّ في رُكنٍ قَصيّ من البيت، ساهمةً، ذاهلةً، لا تصدّق أنّ ابنَها الأستاذ الجامعي الذي يعيش- فقط- لهدفٍ واحد، هو خدمة وطنه، فيكون جزاءُ كلّ ما قدّمه لبلده أن يلقيه في المعتقل، مشاعرُها متضاربة حائرة، لا تدري ماذا عليها أن تفعل؟ هل تطلقُ صراخها في الفضاء، وتشقّ ملابسَها، أم

تظلّ تبكي حتى تروي الأرضَ بملْح دموعها؟ تنظر حائرةً لزوجها ورجلها، انكسار عينيْه ودموعه التي تتسلّل متدفّقة على وجهه يذبحها، الرّجل القوي الذي يهابه الجميع ويحبّونه ويلجأون إليه في ملمّاتهم ومصائبهم ليحلّها لهم؛ يجلس هكذا عاجزًا لا يدري ماذا يفعل!!

غالبتْ حزنَها، وتحرّكت أخيرًا نحوه، وبصوتٍ حزين منكسر:

- بالله عليك يا حاجّ محمود، افعل شيئًا، لا تجلسْ هكذا، اتّصل بمعارفك من ضبّاط الداخلية، اتّصل بعميد الكلية، اتّصل بالجنّ الأزرق؛ أريد أن أطمئنّ على ولدي.

مسح دموعَه بظاهر كفّه، وربتَ على كتفها، ثمّ قام إلى الهاتف.

يونس وعزيزة

كان يجري باكيًا، لا يلوي على شيء بجسدِه النحيل وقدميْه العاريتين، غير عابئ بكلّ النداءات التي صرختْ عليه، حتى وصل إلى أبيه في آخر الغيط، ارتمى في حضنه حين رآه، وظلّ يصرخ ويبكي ويتكلّم في آنٍ واحد، فزع الأبُ وضمّه وأخذ يقبّله ويربتُ على جسده النحيل ويهدهدُه وهو لا يتوقّف عن البكاء، وأبوه حائرٌ جزعٌ، لا يدري ماذا أصاب ولده! وقف الجميع حولَهما لا يدركون ماذا حدث، حتى لحقه الصّبيّان عمرو ووليد، فالتفت إليهما الأبُ متسائلًا عمّا حدث لابنه، فقال عمرو:

- كان عمّ درديري وبعض العمّال يذكّرون النّخل، وأنت تعلم يا عمّي أنّ حسام حريص على تلقيح عزيزة من يونس، ولكنْ عمّ درديري لم يأبه لكلّ توسّلات حسام ولقّحها من فحل نخيلٍ آخر.

ضحكَ كلّ مَن كان في محيط الحكاية إلّا الحاج محمود الذي نهرَهم حرصًا على مشاعر ابنه، ثمّ ضمّ حسام:

- لن أترك عمّك درديري، سأعاقبه عقابًا شديدًا، كيف يفعل ذلك!!؟

قال حسام وهو ينهنِه:

- يا أبي، له أكثرُ من شهر يُلقّح عزيزة كلّ ثلاثة أيّام، واليوم فقط اكتشفتُ أنّه يكذب عليّ ويقول إنّه لُقاح يونس.

- وكيف عرفتَ أنّه ليس لُقاح يونس؟

- هي أخبرتني مساءَ أمس، مالتْ عليّ ووشوشتني وأنا خارجٌ من الدّار للعب مع الأولاد.

ابتسمَ الأبُ وهو يمسح على رأس ولده، وواصل حسام حديثه الباكي:

- وعندما قلت له إنّ عزيزة اشْتكت لي، ضحكوا عليّ حتى الأولاد والبنات الصغار ضحكوا هُم كذلك، وأخذوا يسخرون منّي.. وقال: عزيزة تكذبُ عليك، وعزيزة طيّبة وحنونة وصادقة لا تكذب أبدًا.

تدخّل وليد في الحوار:

- يا عمّ محمود، قلت له كلّ النخيلِ واحد، وليس هناك مشكلة أن نُذكّر النّخلات من أيّ فحلٍ طالما كان صحيحًا وقويًّا.

مسح محمود دموعَ ولدِه بحنوّ بالغ:

- ما رأيك فيما قاله صديقك وليد؟

- هذا ولدٌ غبيّ، ولا يفهم.

- لماذا؟!!

- يا أبي، هو لا يعرفُ أنّها تحبّه، والله إنّها تحبّه.

وظلّ يُردّد وهو ينهْنِه:

- والله إنّها تحبّه.

فضمّه الأبُ مواسيًا:

- أصدّقك يا ولدي، كُفَّ عن البكاء.

تدفّقت تلك الذّكريات دفعةً واحدة بكلّ تفاصيلها، حتى الصّغيرة منها، وملأت مشاعره، أحداثها حضرتْ أمامَه، بمجرّد أن أُغلق عليه باب الزنزانة، وجلس مستندًا إلى الجدار البارد، احتلّت عقلًا لا يستطيع التفكير في شيء محدّد، فالمفاجأة خارجَ حدود القياس. ابتسم بحركةٍ لا إرادية، وهو يتذكّر وجه أبيه المنْدهش حين أخبره أنّ عزيزة تحبّ "يونس"، ثمّ فجأة تذكّر أمّه، فغلبه البُكاء وهو يتخيّل وجهها وهي تتلقّى خبر اعتقاله!! بدأت الهواجسُ السيئة تتدافع إلى رأسه وهو يصدّها بالدّموع، تتوالى الأسئلة المصوّرة، هل أغميَ عليها من هوْل الصّدمة؟ أو ربما سقطت مشلولةً إثرَ ذبحةٍ صدرية، يكفيه وجهُها حين تبكي لأيّ سبب، يضعفُ أمامَها ويبكي، كلّ التّخيلات قاسية جدًّا، والدّموع تتدفّق أكثر كلّما تواردت صورها، حتى تعب، فاستسلم لسنة غريبة من النّوم بدأت تتسلّل إلى رأسه فأثقلته، وغلبت جفونَه فمهّدت لنومٍ ثقيل مصمط كجدار الزنزانة واستجاب جسدُه، فنام.

هل سمع أحدًا ينادي عليه فأيقظَه الصوت؟ مازال الظّلام يحيط به، وفي جوفه لا تستطيع أن تحدّد أينَ أنت، ويختلط الزّمن فلا تدري في أيّ ساعةٍ من اليوم، كم مِن الوقت مرّ عليه؟ خلط النوم إدراكه للزمن.

يحاول- عبثًا- أن يقيسَ الوقت، جاءوا بعد منتصفِ الليل بقليل، فيما كان ساهرًا عاكفًا على قراءة بحثٍ جديد، طرقاتٌ مفاجئة على باب الشّقة، تعجّب.. مَن سيأتيه في ذلك الوقت؟ سكن قليلًا ليتأكّد، عاود الطّرقُ مرّة أخرى، فتح الباب، وفي لمح البصر امتلأت الشّقة بأكثرَ من عشرة رجال يرتدون زيًّا مدنيًّا، ومثلهم اكتسوا بملابسَ عسكرية سوداء، مدجّجين بالسلاح.

- مساء الخير يا دكتور حسام.

قالها أحدُهم بدا كقائدٍ لتلك المداهمة، فيما انتشر باقي الرّجال دون إذنٍ أو استئذان في أرجاء المنزل.

حسام وقد أصابه فزعٌ مفاجئ:

- خيرًا؟

- سنحتاجك عشر دقائق فقط.

مازالت المفاجأة المغموسة بالخوف تُلْجمه.

- دكتور حسام.

- هه؟

- تفضّل بالجلوس حتى ينتهي الجميع من التفتيش.

تهاوى على المقعد مع ذهولِه، وفي محاولة للتماسك.

جلس الرجل أمامه وعلّق ساقَه على الأخرى بكبرياء وأشعل سيجارته:

- الرّائد ماهر من مباحث أمن الدولة.

- خير يا حضرة الضابط؟

- ستعرفُ كلّ الحكاية في مديرية الأمن، لن تمكثَ طويلًا، بعض الأسئلة وبعدها ستعود للبيت.

- ألم يكنِ النّهارُ مناسبًا لذلك!!؟

كأنّه لم يسأل، أخذ سيادةُ الرائد شهيقًا عميقًا من مبْسَم سيجارته، تبعه دخانٌ كثيف بالزفير الذي غطى وجهَه بغيوم كريهةِ الرائحة، ثمّ أشاح بوجهه يتابع حركة الجنود.

بعد ساعةٍ تقريبًا من التّفتيش الدقيق، كانوا قد جمعوا كلّ الأوراق والكتب والأبحاث، حتى الجرائد والمجلّات، لم يتركوا قصاصةَ ورقٍ إلّا وأخذوها معهم، حاول أن يعترض، فطمأنَه الضابط أنّه يستطيع استرجاعها بمجرّد الانتهاء منها، ولكنّه لم يطمئنّ، شعر أن روحه انْتُزعت منه.

الوجوه المحيطة به كالحةٌ، صامتة كالأموات، لا أحدٌ يتفوّه معه بكلمة، يتحركون كالآلات، ينتقل من يدٍ إلى يد، كأنّه جمادٌ بلا روح ولا حياة، أوقفوه في ركنٍ منزوٍ فترة طويلة، ثمّ جاء أحدهم وسحبَه من يدِه إلى غرفةٍ صغيرة بها

مكتبٌ وكرسي، جلس الرجل، أشعل سيجارة وفتح الدرج ببلادةٍ وأخرج منها أوراقًا بيضاء تميلُ إلى الاصفرار، وأمسك بقلمٍ وأشار به لحسام:

- اسمك بالكامل؟

- حسام الدين محمود عبد اللطيف.

- اسم الأب بالكامل؟

نظر له متنهّدًا:

- محمود عبد اللطيف المصري.

- اسم الأمّ بالكامل؟

حسام وقد انتابه غيظٌ مفاجئ:

- لماذا تريد اسمَ أمّي؟!!

ردّ الرجل بنفس البلادة:

- هذا الكشف سنكتبُ فيه أسماء عائلتك كلّها، أقاربك كلّهم؛ رجالًا ونساء وأزواجهم وأولادهم، من ناحية الأب والأم.

- مُمكن أعرف لماذا أنا هنا؟

قالها حسام وقد أصابه نوعٌ من التحفّز.

- أنتَ هنا للتحقيق معك في عدّة جرائم متّهم بها، وقبل التحقيق معك يجبُ أن نملأ كشف العائلة كلّه.

اتّسعت حدقتاه مندهشًا:

– عدّة جرائم مرّةً واحدة!! مثل ماذا؟

الرّجل وقد بدا عليه نفادُ الصّبر:

– لا علمَ لي بها، فقط سنكتبُ كشفَ العائلة، ومن ثمّ يبدأ التحقيقُ معك، لا تضيّع وقتًا كثيرًا، دعْنا ننتهي.

– أريد أنْ أرى مديرَ الأمن حالًا.

نظرَ الرجل إليه بعيونٍ ثابتة يملؤها الغضب، وصرخ في وجهه:

– ماذا تظنّ نفسك لتقابل سيادة اللواء مدير الأمن؟!

ردّ عليه حسام وقد ارتفعَ صوتُه كذلك:

– أنا مواطنٌ مصري، ولي حقوقٌ على الدولة، وأرفض هذه المعاملة وهذه الطريقة في القبض عليّ، وفي هذه المهانة التي تعاملني بها وأنا أستاذ في الجامعة.

– المجرمون ليس لهم حقوق.

– حتى المجرمين لهم حقوق، ولن أتكلّم بعد ذلك إلّا أمام مدير الأمن.

قامَ الرجل من مكتبه، ونظر إليه والشّررُ يتطاير من عينيه، ثمّ قذف بالأوراقِ والقلم على الأرض وترك المكتب وانصرف.

بعد قليل، جاءه رجلٌ آخر جذبه بغلظةٍ من يده، وألقى به في هذه الغرفة الحالكة الظلام تاركًا له ذكرياتِ يونس وعزيزة تقفزُ إلى واجهة عقله بكلّ التفاصيل التي نسيها في زحمة الحياة.

كان يحاول جاهدًا أن يُحاصر الوقت ليعرف كم مكثَ في الظلمة، لم يطلْ به الوقت في التفكير حتى انفتحَ بابُ الزنزانة وتدفّق معه الضوءُ قادمًا من الخارج ليملأها، ونُودي على اسمه فوقف بشكلٍ تلقائي، جذبه رجلٌ بزيّ مدني بغلظة، ثمّ وضع في يدِه قيدًا حديديًّا آلم رسغيه، وعُصابة على عينيهِ، ثمّ جذبه فمضى يتخبّط في مشيته كالأعمى، أدخله غرفة وأوقفه في زاوية وتركه وانْصرف، الكون صامتٌ حوله، بعد قليل أحسّ بصور تتّضح من خلال أذنيه، صوت حركة هامسةٍ في الحجرة لم يتبيّن كُنهها، أو خُيّل له ذلك، كالعادة، لم يعدْ يدري فقد اختلط عليه الشكّ باليقين منذ عاد إلى مصر، الوقت بطيء وطويل في انتظار المجهول، التّنميل بدأ في غزو قدميه، ثمّ بدأ يتسلّل إلى ساقيه، سمع صوت انفتاح الباب، ودخل أحدٌ ما، وأمسكه من ذراعه بقوّة وجذبه للخارج، ومن ثمّ أعاده للزّنزانة، فكّ القيد والعُصابة، ودفعه وأغلقَ الباب وانصرف، عاد الظلام مرّة أخرى، تحسّس الجدارالموحش البارد، ومع ذلك استند عليه وجلس.

هذه المرّة لم تعاودْه الذكريات، ولكنْ أحسّ أنّ عليه أنْ يتجاوزَ ذلك الخوف وتلك الرهبة التي ملأتْ كيانه من لحظة أنْ دخلوا عليه البيت، فقام وقدْ ملأه الغيظ، وتحرّك يتحسّس باب الزنزانة، ثمّ جمع قبضته وطرقَها بقوّة وهو ينادي على أحدٍ ليردّ عليه، برغم إحساسه أنّه يقف في قلب الصّحراء ينادي، إلّا أنّه طرد اليأس وأصرّ على المواصلة، جلس ليستريح عدّة مرّات، ولكنّه لم يتوقّف عن الطرق، حتى سمع صوتًا من الخارج يصرخ فيه:

- ماذا تريد؟!

- يا أولاد الكلاب يا فَجَرة، إفتحوا، لو لديكم رجلٌ أريد أن أكلّمه.

لم يرتّب ولم يخطّط لذلك، ولا يمكن أن يتصوّر فعل ذلك في هذا المكان بالذات، ولكنّ طوفانًا بداخله تدفّق فلم يستطع منعَ قذيفته من خلف باب الزنزانة.

لم يُجبْه أحد، سكتَ قليلًا، ولكنّه واصل الطّرْق، بعد قليل سمع صوتَ قفل الباب ينفتح، فتراجع للخلف، دخل عليه رجلٌ لم يتبيّن ملامحه من الضوء خلفه، ضخمُ الجثّة، اقترب منه ثمّ رفع كفّه وهوى بكلّ قوّته على وجهه، وهو يقول:

- نحنُ أولاد كلاب!!

ثمّ جرفه بسيلٍ من الشتائم والسّباب، خصّ فيها أمّه بأقذع الألفاظ.

الصّفعة طرحته أرضًا، برغم هوْل المفاجأة، قامَ إليه حسام يصرخُ في وجهه، يبادله شتائمه بمثلها، ولكنَّ الرجل كان أكبرَ وأقوى منه، فعاجله بصفْعات وركلات مُتوالية حتى تفجّر الدّمُ من وجْهه، وسقط مغشيًّا عليه، ينتفض مرتعشًا.

الآلام تكمل ما بدأه السّجّان، كصدى صوتٍ ينتشرُ في الأجواء حين تصرخُ فلا يردّ عليك سواه، تكوّم جسدُه بتلقائيّة دفاعية هاربًا مرتدًّا للخلف، مازال في حجر أبيه، يحوطه بذراعيه، ويضمّه ويقبّله، وهو ينهْنه برغم توقّف الدموع، ويقول له هامسًا حتى لا يسمعه أحد: مالتْ عزيزة عليّ أمس وأنا بجوار الدّار بعد صلاةِ المغرب وهمست: أنّها تتألّم من طريقة تذكير عمّ درديري، وتشعرُ بالمرض لأنّها تتلقّح من فحلٍ غير حبيبها.

تضرب أمّه صدْرها حين عادا إلى الدّار، وحكى لها أبوه أثناءَ العشاء عن أحاديث النّخلة لولدها، ألقت اللّقمة من يدها، وآياتُ الحفظ تخرج مُتسارعة من فمِها جزعًا على ولدها الذي تكلّمه النخلة، حسام يردّد بتلقائيّة نفسَ الآيات حين استيقظ من غفوته المتألمة.

لا يدري كمْ من الوقت مرَّ حين انفتح بابُ الزنزانة، ودخل عليه رجلٌ كبير في السنّ يسير نحوه يجرّ قدميه، ثمّ ناداه بهدوءٍ حانٍ، لم يردّ عليه فاقترب الرجل منه بهدوء:

- قمْ يا ولدي، تعال لا تخف.

قام باستسلام، وسار بجواره خارجًا من الزنزانة، ممرّ طويل ساكن كالقبور، وعلى اليمين واليسار غرفٌ مغلقة بأبواب سوداء، التفت للرّجل ليتبيّن ملامحه، وجهه أسمر، طويل ونحيف يرتدي زيًّا عسكريًّا، ربما يقترب من السّتين، تبدو مشيته مرهقةً من آثار السنين، في آخر الممرّ تركه الرّجل في دورة المياه.

غسلَ الدّماء التي غطت وجهه لكنْ بقيت آثارٌ كثيرة منها على ملابسِه، أعاده الرجل للزنزانة وأضاء النّور فيها وأحضر له طعامًا؛ خبز يابس وقطعة جبن وحبّة طماطم، وتركه وانصرف.

زنزانة مستطيلة، طولُها متران وعرضُها متر، جدرانُها سوداء قذرة، وأرضيتها إسمنتية غير مستوية، في نهايتها دلوان، واحدٌ مملوء بماءٍ نظيف وآخر رائحتُه كريهة، به بقايا بول.

بعد دقائقَ عادَ الرجل ووضع له كأسًا من الشاي، وحثّه على الأكل بطيبةٍ غير معهودة:

– تناول طعامَك يا ولدي قبل أن يأتي أحد، فربّما لن تأكل شيئًا لأيّام.

حاول حسام أن يستوضحَ منه، ولكنّ الرجل قاطعه:

– أنا لا أعرف شيئًا، سوى أنّك هنا لقضية كبيرة.

اندهشَ فأكمل الرّجل:

– لا يأتي أحدٌ إلى هنا إلّا وكان وراءه بلوى.

– ولكنني أستاذ في الجامعة!

ربّت الرّجل على كتفه:

– تناول طعامك يا ولدي.

ثمّ قام وأغلق باب الزّنزانة، وانصرف.

مرّ النّهار كلّه بطيئًا مملًّا ثقيلًا، لا صوت ولا حركة، وقرب منتصف الليل، كان حسام يقف في حجرةٍ معصوبَ العينين، مقيدَ اليدين من الأمام، حين وجّه له سؤالٌ محدّد وبصوتٍ عال:

– اسمك وسنّك وعنوانك.

برغم القشعريرة التي انتابته من الصوتِ الغاشم، لم يردّ.

أعاد الصوتُ عليه السؤال:

- اسمك وسنّك وعنوانك؟

واصل حسام صمتَه.

- يا دكتور حسام، أسألك عن اسمك وسنّك وعنوانك.

ردّ حسام:

- هل من المُمكن أن تفكّ قيدي؟

لحظة صمت، ثمّ تحرّك أحدُهم وأمسك بيديّ حسام وفكّ أصفاده.

- والعُصابة تؤلم عيني ورأسي، فكّها هي الأخرى لو سمحت.

صوتٌ يردّ بحزم:

- لا داعي، هذه اتْركها.

- لِمَ؟

- هذه دواعي أمنية.

- أيّ دواعٍ أمنية خطيرة تجعلك تهينُ إنسانًا لمجرّد أنّك تراه مجرمًا؟!!

واصل المحقّق استجوابه دون أن يلتفتَ لما قاله حسام:

- اسمك وسنّك وعنوانك؟

بإصرارٍ نافذ:

- لن أجيب على أيّ شيء حتى تخلع عن عيني هذه العصابة.

صرخَ فيه المحقّق بصوتٍ قاسٍ وحاسم لدرجة أنَّ جسد حسام كلّه ارتعد:

- اسمك وسنّك وعنوانك؟

- أنا لا أستطيع أن أتكلّم في هذا الوضع المُهين لأستاذ في الجامعة، المفترض أن يكون له شأنٌ في هذا الوطن بعلمه وأخلاقه وسيرته المعروفة في الجامعة.

صرخَ الصّوت:

- هل ستلقي عليَّ محاضرة عن سيرتك الذاتية؟ أنت هنا لنسألك وأنت تجيب فقط.

- وأنا لن أجيب على شيء في هذا الوضع.

- يبدو أنّك لا تعرف كيف نجعلك تتكلّم بسهولة، عندنا وسائلُ كثيرة جدًّا، تجعلك تتكلّم دون توقّف، هل تريد أن تجرّب شيئًا منها؟!

أصرّ حسام على صمته، وفجأة تلقّى عدّة صفعات قويّة وقاسية متتالية من اتّجاهات عديدة جعلته يترنّح، ولا يستطيع السيطرة على نفسه؛ فسقط أرضًا فانهالت عليه الرّكلات من أقدام كثيرة وهو يصرخُ من الألم، ثمّ سحبته يدٌ قويّة من ملابسه فأوقفتْه مرّة أخرى، فاقترب الصوت كفحيحِ الأفعى حتى شعرَ بأنفاسه الكريهة تلفح وجهَه:

- ما رأيك؟ أظنّ الاحترام أفضل.

حسام بعنادٍ يائس وجسدُه يرتعش من الألم:

- أنت إنسان جبان، ليس لديك ذرّة من الإنسانية أو الاحترام، ولن أتكلّم إلّا في حضرة مدير الأمن.

تلقّى سيلًا من أقذر الشّتائم التي سمعها في حياته، ثمّ تلتها صفعةٌ هائلة، ولكنّه تماسك ورفع يديه بإصرارٍ ليرفع العصابة على عينيه، فصرخ فيه الصوت:

- لو رفعتها سأصفّيك حالًا.

ثمّ سمع صوت سحبِ أجزاء مسدس وُضع على رأسه من الخلف.

لم يأبَه حسام لكلّ ذلك، ورفع العصابة وبهدوء ميت:

- اقتلني إذًا.

في الزنزانة، يحاول أن يفهم ما الذي يحدث، عقله أصبح فجأة مثل جدار الزنزانة البارد السميك المظلم، الأسئلة تتوالى عليه دونَ إجابةٍ واحدة تشفي غليله، جسدُه كلّه يتألّم من هول الضرب الذي تلقّاه بعد أن نزع العصابة ورآهم، لدرجة أنّهم اضطرّوا لحمله وإلقائه في الزنزانة بعد أن عجز عن المشي من وطأة الضرب.

يحتضنُ نفسَه برغم كلّ الألم الذي يغزو كاملَ جسده، يبحث عن جريمة ارتكبها، أو فعلٍ مشين بحقّ الوطن وقع فيه، ربما سلسلة التحقيقات التي سرّبها لجريدة المعارضة عن الزراعة التي تنهار في وطنه؟ هل هو تشابه أسماء مع أحدٍ له نفس الاسم؟ بالتأكيد هو ذاك، لا يمكن أن يكون غيرَ ذلك، هل هُم أغبياء لهذه الدرجة أن تختلط عليهم الأسماء فيخلطون بين أستاذ في الجامعة وبين مجرم؟ كيف يقعون في هذه الخطيئة؟!!

عدّة أيّام وهو في زنزانته المظلمة، يمرّ عليه الرجل الطيّب في الصباح، فيترك له قطع الخبز اليابسة، والجبن شديد الملوحة وكوبًا دافئًا من الشاي، ويوصيه بأنْ يأكل ويدعو الله بالفرج.

أخيرًا وجد نفسَه في غرفة واسعة، ويجلس على كرسي مقابلٍ لمكتب كبير يجلس عليه ضابط يبدو أنّه برتبةٍ كبيرة، تعلو وجهه ابتسامةٌ جافة، يقدّم اعتذارًا خاصًّا عمّا حدث له في الأيام الماضية، مع مجموعةٍ من الشتائم خصّ بها هؤلاء الأوغاد الذين استقبلوه في المعتقل.

غمرَهُ بعضٌ من الراحة، وهو يتناول كوبًا من عصير الليمون، وتهيّأت نفسه لإعلان حضرة الضّابط الكبير اعتذارهم عن الخطأ الفادح الذي وقعوا فيه، ويخبره أنّ الحكاية مجرّد تشابه في الأسماء، ثمّ يسمح له بالانصراف، هو حتّى مستعدّ نفسيًّا أن يتجاوز تلك التجربة الأليمة، غير أنّ الضّابط فاجأهُ بتغيير مسار الحديث:

– دكتور حسام، في الحقيقة نحن أمام مشكلةٍ كبيرة، ونرجو أن تساعدنا في حلّها، وتوفّر علينا وعليك الوقت والجهد.

علتِ الدّهشة وجه حسام:

– مشكلة كبيرة بالنسبة لي أنا؟!!

– نعم، وأكبرُ بكثير ممّا يمكن أن تتخيله.

– تصوّرت أنّ هناك خطأ ما، تشابه في الأسماء مثلًا، جعلكم تخطئون وتعتقلوني.

ضحكَ الضّابط الكبير ضحكة مجلجلة:

– هنا، الخطأ غير وارد.

بُهت حسام ولم يحرْ جوابًا، وواصل الرجلُ إطلاق قذائفه بواحدةٍ من العيار الثقيل:

- تحرّياتنا أثبتت أنّك تعمل لصالح إسرائيل.

ابتسم حسام لأوّل مرّة منذ قدومه لمديرية الأمن، وبتلقائية:

- هذه مزحة بالتأكيد.

صرخ الضابط وقد انقلب وجهُه وعلا صوته، وهو يضرب بكفّه على المكتب:

- نحن هنا لا نمْزح، تحرّياتنا أثبتت بما لا يدعُ مجالًا للشكّ أنّكَ تعمل جاسوسًا لصالح إسرائيل، ولدينا أحرازٌ ومضبوطات تُثبت ذلك وجدناها في بيتك، ولدينا علمٌ مُسْبق أنّه قد تمّ تجنيدك من قِبَل فتاةٍ يهودية كانت تدرس معك في أمريكا اسمها سارة، وأنّك تزود إسرائيل بمعلومات هامّة تمسّ الأمن القومي المصري، وتهدّد استقلاله.

- ولماذا تركتموني كلّ هذه السنوات طالما أنّني جاسوس وأعمل لصالح الصهاينة؟

- توقيت القبض عليك هو من صميم عملنا، ونحن الذين نحدّده، هذا وطنك الذي ربّاك ورعاك وأنفق عليك، هل هذا جزاؤه الذي يستحقّه منك؟ أن تخونه وتبيعه للأعداء!!

هل مات عقلُه لدرجة أنّه تلقى كلماتِ الضابط بهذا الصّمت المطبق الذي لم يبدِ معه أيّ ردّ فعل، كأنّه قطعةٌ من أثاث المكتب الذي يجلس فيه، هل

تماهى مع الكرسي الذي يجلس عليه، فأصبح وهوَ سواءً بسواء، هل استيقظ هذا الصباح فعلًا، أم أنّه مازال نائمًا ويمرّ عليه كابوس مخيف أقسى من كلّ الكوابيس التي مرّ بها منذ أنْ وطئت قدماه هذا المكان الملعون.

أفاقَ على صوت التنّين ينفث بألسنةِ النار في وجهه:

– ما رأيك يا دكتور حسام؟

هل الحياة مجنونة إلى هذا الحدّ؟ جحافل النّمل تخترق مخّه وتلتهمه بنهَمٍ مسعور، لم يعدْ قادرًا على السّيطرة وإدارة تفكيره، يشعر بطنين وأزيز وأصوات متداخلة لا يعرف مصدرها، هل هي أصواتُ الأطفال وهُم يصرخون أثناءَ لعبهم في الغيط، أم أصوات ماكينة دراس القمح؟ ربما أصواتُ الضّفادع في الليل، امتلأ رأسُه بضجيج مشوّش، وعليه أن يوقفه قبل أن ينفجر مخّه ويتناثر.. بعينين زائغتين، نَظرَ إلى الرّجل الجالس خلفَ المكتب، وتخيّلَ أنَّ مخّه انفجر فتناثر على وجهه، وعلى الأوراق التي أمامه، وكوب الماء فتغيّر لونه وتكدّر، وبالتأكيد طعمه صار مقرفًا، هل نقابل الجنونَ بجنونٍ مثله؟ أظنّ ذلك طبيعيًّا جدًّا، أن نكون أكثر جنونًا من الحياة!! بماذا سيفيد العقل والمنطق أمام هذه الأسراب الجائعة التي لا تتوقّف عن التهام عقله.

التفت حسام إلى حضرة الضابط الكبير، وبعينين ساكنتين اختفى منهما بريقُ الحياة:

– نعم، أنا أعمل جاسوسًا لصالح إسرائيل، بل وسأعترفُ بكلّ التّهم الموجّهة إليّ، ولن أنفي شيئًا منها.

بُهت الضابطُ الكبير من ردّ فعله، إجابة غير متوقّعة على الإطلاق، عليه أن يغيّر مسار التحقيق إذًا، لم يُجهّز نفسه بأسئلةٍ لهذا الموقف العجيب، تنحنح وتراجع إلى ظهرِ مقعده كأنّه يلجأ لسند قويّ يداري فيه اضطرابه، وقال بتردّد:

- وتعترف هكذا بكلّ بساطة؟!

- نعم أعترف؛ توفيرًا للوقت والجهد.

ما هذا المجنون الذي يكتسحني؟

- هل تعرف ما هي العقوبة التي ستواجهها أمام هذا الاعتراف؟

- الإعدام، أليس كذلك؟!

- نعمْ الإعدام طبعًا.

- تمام، وبناءً عليه سيتحوّل بالتأكيد محضر التحقيقات إلى النيابة، ومن ثمّ إلى المحكمة، أرجوك يا سعادة الباشا، أريد أن ينتهي هذا في أسرعِ وقت.

الضّابط الكبير مرتبك، يحاول لملمة نفسه، تناول كوبَ الماء وشربه كلّه دفعة واحدة، حسام ينظر إلى الماء ويقول في نفسه: كيف هو طعمُ الماء المغموس ببقايا مخّي؟ ثمّ انتبه على صوت التنين وقد بدأ صوته يرعد:

- الأمرُ ليس بهذه بهذه السهولة، عليك أن تسجّل لنا اعترافات كاملة وبالتفصيل.

باستسلامِ ميت يتهيّأ للدفن:

- اكتبوا ما تشاءون، وسأوقّع عليه، يمكنني كذلك التّوقيع على أوراق بيضاء، وتسجّلوا فيها ما يحلو لكم، يمكنُكم كذلك الاعتمادُ على مؤلّف سينمائي يكتب لكم الحبكة الدرامية لقصة الجاسوس الذي خان الوطن، وإنتاجها بعد ذلك كفيلم سينمائي، و...

قاطعه الضابط صارخًا في وجهه بسيلٍ جارف من الشتائم:

- اسكت، مَن تظنّ نفسك!!؟ هل تتصوّر أننا نزيّف الحقائق، وندّعي عليك بما ليس فيك، أنتَ جاسوس خائنٌ للوطن وتستحقّ القتل آلاف المرّات.

بادله حسام صراخًا بصراخ:

- واجهني إذًا بأدلّة الخيانة، إن كان لديك ذرّة صدق فيما تقول.

وقفَ الضابط وجسدُه كلّه ينتفض، وضغط على جرسٍ على المكتب:

- ستعرف يا كلب كيف أجعلك عبرةً لكلّ الخونة.

امتلأ المكتب فجأة برجال سود الوجوه، وفي لحظات كان حسام محمولًا ومعلّقًا كالذبيحة، والسياطُ تنهال عليه من كلّ جانب.

يتمسّك بحبلٍ متهالك من الأمل، حين اهتزّ كلّ شيء أمامه، وارتعش كخيط دخانٍ يوشك أن يتلاشى، يتشبّث فقط لأنّه يعلم أنّ هذه الذّبالة من الأمل لو انطفأت سيفقد عقلَه، ولن يستعيده مرّة أخرى.

هو لا يعرف– على وجه التحديد– لماذا يحدث كلّ ذلك معه، اعترف في لحظة جنون أنّه عميل لألدّ أعدائه، فقط ليخرجَ من هذا الكابوس، ليتأكّد أنّ ما هو فيه حقيقيّ وليس حلمًا، ربّما ليرى أناسًا آخرين؛ قضاة ومحاكم ومحامين، يمكنهم أن يثبتوا أنّه بريء، تفكيرٌ أقلّ ما يُقال عنه أنه ساذج، ربّما كان ردّ فعلٍ في لحظة كان فيها غيرَ قادرٍ على تحديد طريق للسّير في هذه الظلمة، مازال متمسكًا بنقطة الضوءِ البعيدة التي تُطلّ في رأسه لتقول إنَّ هناك شيئًا ما غيرُ مفهوم، لو عرفه ستتّضح الحقيقة أمامه.

دارت تحقيقات ليليّة طويلة سردَ فيها قصّة حياته عشرات المرّات، الأسئلة معادة ومكرّرة، ومع شخصيات مختلفة، كلّ شخصية تقابله تعيدُ عليه نفس الأسئلة، وهو يعيدُ عليها نفس الإجابات، الشيء الوحيد الذي كان يمنعه من الجنون، هو اختلافُ وجوه المحقّقين، لولا ذلك لظنّ أنّ الأيام تُعاد عليه.

مولدُه ونشأته، المدارس التي ارتادها، الشّخصيات التي عاش معها، دراسته في مصر، بعثته لأمريكا، وكلّ الذين يعرفهم، حتى لقاءه مع الرئيس السادات في السفارة، وحفل توقيع معاهدة السّلام، ورأيه في المعاهدة، والشّخصيات اليهودية، كثيرٌ من الأسئلة دارت حول سارة وعلاقتها به.

كان عليه– كذلك– أن يدوّن كلّ ذلك بخطّ يده، أحضروا له في كثيرٍ من الليالي أوراقًا، وطلبوا منه دونَ أن يوجّهوا له أسئلة أن يكتب كلّ شيء عن حياته.

الشيء الوحيد الذي لم يتكلّم فيه أحدٌ من المحقّقين على الإطلاق هو موضوع اتّهامه بالتجسّس لصالح إسرائيل، لاحظَ ذلك من أوّل ليلة، ولكنّه هو الآخر لم يتطرّق إليه، كان يتوقّع بعد كلّ هذه التّحقيقات أن ينتهي مسارها عند تلك النقطة، ولم يحدث، لا يعرف إلى أين سينتهي كلّ ذلك، الدّائرة المفرغة تتّسع، يدور فيها رغمًا عنه، من يوم أن علّقوه كالذبيحة، لم يعدْ يستطيع التوقف، استجاب لضغوطهم خوفًا من السياط، وطمعًا في أن يتوقّفوا وتبدأ الحقائق في الظهور، ولكنّها تذوبُ وتبتعد أكثر، ولم يتوقّفوا، بل ازدادت ضراوتهم، ولكنْ بشكلٍ نفسي.. ماذا يريدون منه؟ السّؤال الذي يرتطمُ برأسه كلّ ليلة كالحجر الضّخم ولا إجابة له.

الضّغط النّفسي يزداد ثقلُه، ويوشكُ خيطُ الدخان أن يتلاشى، ولكنّه يدرك نفسَه ببعض الأمل، قبل أن ينهار ويضيع للأبد، رغم أنّه مستعدّ لأن يصير مجنونًا أو مجذوبًا ويقضي بقية عمره في مستشفًى للأمراض النفسية، فقط يريد أن يفهم.

في بعض الأوقات يكون الاستسلام علاجًا، على الأقلّ يعصمك من التفكير، يوقف الماكينة التي تدورُ في رأسك بلا توقّف، كلّ شيء بالتأكيد له نهاية، قرّر الاستسلام لشيء ما مجهول، حتى يتخلّص من عذاب التّحقيقات وضغطها النفسي، ومن التفكير القاتل الذي يدور في الفراغ كلّما أغلقوا عليه بابَ الزنزانة، هذا القرار جعله يهدأ، الليالي طويلة لم يعدْ يدري عددَها، يتحرّك بين أيديهم كالميّت، بلا حول ولا قوّة، وفي الزنزانة لجأ إلى الله، أفرغ وقتَه في صلواتٍ كثيرة وأوراد ذكرٍ ودعاءٍ، وتلاوة ما يحفظ من القرآن.

هذه الليلة، انتبه– لأوّل مرّة– أنَّ شخصًا ما يحضر التّحقيقات، استعادت ذاكرته في وسط هذه الزّحمة أنّه كان دائمَ الحضور من أوّل يوم بدأت فيها، وجهٌ بعيد يختبئ في الظلمة، عرف أنّ هناك أحدًا من السيجارة المشتعلة والتي لا تنطفئ تقريبًا، هناك في ركن قصيّ، ضوءٌ شديد مسلط فقط على وجهه، يجعله لا يرى شيئًا حوله، ولكنْ في العتمة هناك مَن يجلس يتابع التحقيقات، يدخّن بشراهة، تشتعل نقطةُ النار في الظلام، ورائحة الدخان الكريهة، وعطر نفّاذ، شمّ رائحته قبلَ ذلك ولكن لا يعرف أين.

انشغل عقلُه مرّة أخرى بعد استراحة دامت لفترة، يحاول أنْ يستعيد هذا الاستسلام، ولكن عقله تمرّد، يحاول أن يبرّر له فيقول ربّما كان رتبةً كبيرة تتابع التّحقيقات، عقله لا يجادله في ذلك، فقط يبحث أين شمَّ هذا العطر النفّاذ من قبل؟!!

هو يعرف أنّه طالما التقط عقله شيئًا فلن يتوقّف حتى يعرف أصله، لن يستطيع السيطرة عليه، ولن يهدأ فكرُه حتى يحصل عليه، لا يريد أن يدور في رحى التّفكير مرّة أخرى، ولكنَّ شيئًا ما يقتربُ منه حتى إذا مدّ يده ليمسكه تلاشى في الهواء.

لم يجدْ بُدًّا أن يستجيب لعقله الذي بدا بشكلٍ تلقائي في ترتيب كلّ الشخصيات التي عرفها، وأعاد تقسيمها، وحصرها.

وقفَ في وسط الزنزانة مشدوهًا، لقد عرفه، إنّه عطرُ رجل السّفارة، قفز في الهواء عدّة مرّات، لا يدري لماذا يقفز، ولكنّه واصل كأنّه يريد أن يطير، أيكون هو!!؟ ما الذي سيأتي به في هذا المكان!؟ مستحيل أن يكون، بالتّأكيد

هو تشابه عطرٍ مثل تشابه الأسماء، ما الذي يمنع أن يكون هو؟ ولكنْ ما سببُ وجوده ومتابعة التّحقيقات معه؟ شيء محيّر فعلًا، حدسه الذي عادة لا يخطئ يميلُ إليه ويهمس: إنّه هوَ، وكلّ أبجديات البحث تقول لا يمكن قياس ذلك إلّا بالتجربة، فيجيب حدسُه بابتسامة: هل خذلتُك قبلًا؟ على العموم جرّب إذًا إنِ استطعت، انتبه على صوت صرير الحديد البشع، والزنزانة تُفتح عليه.

استعاد استسلامه المعتاد بسرعة، وهُم يقودونه إلى غرفة التحقيقات، يعرف أنّ طوفانًا بداخله بدأ في التّصاعد، ويستعدّ للفيضان، لن يستطيع أن يوقفه، لا يرتّب لشيء معين، ولكنَّ شيئًا سيحدث، دعّمَ ذلك يقينه أنّه لم يعدْ هناك ما يخسره.

بدأ التّحقيق بالأسئلة المعتادة، ولكنْ حسام هذه الليلة قد تحوّل، السيجارة المشتعلة في الركن القصيّ، والعطر النفّاذ يختلط برائحة الدخان، التفت إلى الضابط، قبل أن يسأله عاجله:

– أظنّ لم يعدْ لدي ما أقوله أو أدوّنه، لقد قلت كلّ شيء عشرات المرّات منطوقًا ومكتوبًا، علينا أن نصل لنقطةٍ محدّدة، ويقف عندها كلّ هذا الهراء.

– نحن مَن نقرّر متى يتوقّف كلّ شيء وليس أنت.

قالها الضابط محتدًّا.

– لن يقرّر من الآن في هذا الأمر أحدٌ سواي، من الليلة لم يعدْ لدي ما أضيفه أو أقوله، وعليكم أن تتّخذوا قرارًا ما بشأني، إمّا أن تقتلوني أو

تحوّلوني للمحكمة وهي التي تقرّر بماذا ستحكم عليّ بناءً على التحريات ومحاضر التحقيق التي كتبتها وقلتها عندكم.

سكتَ الضابط قليلًا، شعر بحركةٍ خفيفة في الظلام، يترقّب حسام بكلّ جوارحه، الضابط تحرّك من خلف المكتب واختفى في الظلام، وبحركةٍ تلقائية وقف حسام بهدوء دون أن ينتبه أحد، وأمسك المِصْباح الكهربائي المسلّط على وجهه وأداره للجهةِ الأخرى التي يجلس فيها العطر النفّاذ المخلوط برائحة الدخان.

كانت المفاجأة مذهلةً للجميع، همَّ الضّابط بالتحرّك نحوه إلّا أنّ رجل السفارة منعه بإشارةٍ صوتية، ثمّ قام من مكانِه بهدوء، بنفس الوجهِ الكالح والنّظرة الرمادية، واتّجه نحو مفتاح النور، فأضاءَ الغرفة كلّها، ثمّ اتّجه إلى المكتب وجلس عليه بتؤدة وأشار إليه بالجلوس.

جلس حسام وقد استعاد ثقتَه في حدسه لدرجةٍ جعلته يبتسم، ويعودُ بظهره ليتمكّن في جلسته على الكرسي متهيّئًا ومتأهبًا للقادم.

فتح الرجل درجًا كبيرًا في المكتب وأخرج كومةً من الأوراق وفوقها أجندة أمريكا الحمراء وأجندته الأخرى بمصر، ثمّ بصوت آمر:

- دعْنا نُنهي هذا الأمر إذًا، عليك أن تكمل كلّ هذه الأفكار وكلّ المعادلات التي دوّنت أجزاءً منها في هذه الأجندات.

بُهتَ حسام ووقف ينظرُ لكومةِ الأوراق، كانت كلّها أوراقه البحثية التي لم تكتمل، وأفكارَه الزّراعية التي كان يحلم بها، ثمّ قال:

- كُلُّ ما تمّ معي كان من أجل ذلك؟!!

صدرَ الصوت من رجل السفارة كأنّه صريرُ بابٍ لم يفتح منذ قرن:

- نعم، كان من أجل ذلك، وسنأخذ ما نريد، شئتَ أم أبيت، خذْ وقتك.

- ولماذا فعلتم كلّ ذلك من بداية الأمر؟!

- لا شأنَ لك بما نفعله، نحن نعرف ما يتوجّب علينا فعله، هنا فقط نأمرُ وعلى الجميع التنفيذ.

- مَن أنتم؟

- لا تلقِ عليّ أسئلة، فقط ستكملُ باقي هذه الأبحاث والمعادلات، وسَتُخرج كذلك من عقلك ما لم تدوّنه هنا.

- الآن عرفتكم، كلّ ما أردتم أخذَه برشْوتي ستأخذونه بالقهر، أنت لا تعرفني، وواهمٌ جدًّا وواثقٌ لدرجة الجنون.

- نعم واثقٌ كما تقول لدرجة الجنون.

- لصالح مَن كلّ هذا؟!

- لصالح الوطن.

- أيّ وطنٍ هذا الذي تكذبون باسمه ليلَ نهار؟ لقد رجوتكم جميعًا أن أجري تلك التجارب ورفضتُم، بل ودمّرتم، بدم بارد، مجموعَ المشاريع التي أوشكت أن تنجح، الآن تقول لصالح الوطن!!

- نحن مَن نقرّر مصلحة الوطن لا أنت، أنت مجرّد باحث.

- لا يا سيّدي أنا لست مجرّد باحث، أنا عالم، وعبقري في تخصّصي، وأنا كذلك مواطن مصري، لي حقوق يكفلُها الدّستور ليس من بينها كلّ ما تمّ معي هنا.

أخيرًا تحرّك جبلُ الجليد البارد وانفجر ببركان فتدفّقت مياهه العفنة في وجه حسام بوابلٍ من الشّتائم القذرة والتهديد والوعيد.

لم يأبهْ حسام لكلّ ذلك، فردّ بتحَدٍّ:

- لم يعدْ لديّ ما أخسره، أقسم أنّني لن أكتب حرفًا لو قطعتم أوصالي قطعة قطعة.

بصوتٍ كالرعد:

- بل لديك ما تخسره.

باستهزاء:

- ما هو؟

- أبوك وأمّك.

صمتٌ مطبقٌ حلَّ بثقلهِ كانْهيار بنايةٍ ضخمة فجأة على رأسه، فغمره الظلامُ والغبار والموت، هل لأنّه اكتشف فجأة أنه ابن الإنسان؟ وله أبٌ وأمّ مثل باقي البشر؟ أم فاجأته تلك الخسّة اللامتناهية التي تجعل إنسانًا يهدّد آخر بأبيه وأمّه؟!!

انعقد لسانه، واصفرّ وجهه، وارتعشت شفتاه وهو عاجزٌ عن الكلام، التفت إلى الرجل والسؤالُ يطرق رأسه، مَن هذا الرجل المنحوت من صخرةٍ صمّاء قاسية، أي قلب يدقّ في صدره!!

كان رجلُ السفارة يسدّد له نظرةً واحدة لا يرمش لها جفن، يرقب بإصرارٍ ردَّ فعله، قرب انْهياره واسْتسلامه، ثمّ لَمّا طال الصمتُ أشار بيده، فأخذه رجلان وألقيا به في الزنزانة لينخرط في نوبة من البُكاء لم تتوقّف حتى غلبه التعب والنوم.

في اليوم التالي، أخذوه إلى أحد المكاتب وأجلسوه وحيدًا لدقائق، ثمّ انفتح الباب ودخل ضابط وخلفَه أبوه وأمّه.

الحاج محمود

كانت كلّ محاولاتِ الحاج محمود للوصول لابنه أو معرفة مكانه تبوءُ بالفشل لأكثر من أسبوع، حتى فاجأه المحامي بأنّ ابنه محجوزٌ لدى جهة أمنيّة عُليا، وأنّه سيسمح له بزيارته قريبًا، برغم الألغاز التي قالها المحامي إلّا أنّ الحاج محمود لم يلتفتْ إليها، وجعله يُقسم بأغلظِ الأيمان بصحّة ما يقول، وطمأنه المحامي بثقةٍ على وجودِ حسام على قيْد الحياة، مع تأكيد ألّا يثير أيّ ضجّة أو يقدّم بلاغات أو إرسال برقيّات إلى مكتب الرئاسة أو النائب العام أو مخاطبة أيّ جهة أيًّا كانت.

هدأتْ نفسُ الأب قليلًا، أمّا الأمّ فلم تتوقّف عن البكاء قائلة إنّها لن تطمئنّ على ابنها حتى تراه بين يديْها وتلمسه وتشمّه.

كان الحاجّ محمود يتلقّى لأسابيع وبشكل مُنتظم- عن طريق المحامي الذي ينقل له- المعلومةَ التي تردُ له، مع تأكيدٍ جازم برؤيته قريبًا، حتى هدأت نفسُه وبدأت الأسئلة الطبيعية تبرز بصورةٍ أكبر دونَ إجابة مريحة،

حتى اتّصل به المحامي وأخبره أنّه سيرى ابنه خلال هذا الأسبوع، ولكنْ عليه أنْ يأتي إلى مقرّ أمْن الدولة لإجراء المقابلة هناك.

في الموعد المحدّد، ودون أن يخبرَ زوجته، كان الحاج محمود جالسًا في مكتب كبير، وحوله ثلاثة ضبّاط منهم رجلُ السفارة، رحّبوا به بودٍّ مُصطنع، وأخذوا يمتدحون ابنه "حسام" في أخلاقه وعلمِه، والرجلُ يملؤه الاضطراب أكثرَ حتى قطع حديثهم ليختصرَ المسافات وسألهم عن حسام.

تولّى رجلُ السفارة الحديث إليه:

- باختصار يا حاجّ محمود، ابنك متورّط في مشكلة كبيرة تمسّ الأمن القومي، ولدينا أدلة تثبت تورّطه في التّخابر مع إسرائيل، وهو يرفض التعاون معنا، وإذا وافق واستجاب لنا أعدُك أنْ تنتهي هذه الأزمة ويعودَ إلى بيته وعمله، وكأنَّ شيئًا لم يكن، وقد استدعيناك اليومَ لتراه وتطمئنّ عليه وتجلس معه لتقنعَه بأنّ التعاون معنا هو أقصرُ طريقٍ لإنهاء هذه المشكلة.

أعرفها، مهْما تلوّنت تلك الأفاعي، سمومُها لا تخفى عليّ، أعرف فحيحَهم، ولدغاتها المميتة، كانت أبخرةُ دماء الحاج محمود تحدّثه وهي تغلي وتتصاعد إلى مخّه، فنسي كلّ المخاطر المحيطة بابنه، وقال بغضب:

- إذا تصوّرت أنّني سأصدّق كلمةً واحدة من هذه الأكاذيب؛ فأنت واهمٌ، ابني لا يفعل شيئًا يضرّ بوطنه، ابني الذي رفضَ أن يبقى في أمريكا من أجل بلده والانتفاع بعلمه، وتأتي اليومَ لتقول إنّه متورّط في قضية تمسّ أمن الوطن..

قاطعه الرجل بحدّة:

- حاول يا حاجّ أن تدرك خطورةَ المشكلة التي وضع نفسَه فيها، ابنك بينه وبين حبل المشنقة خطوةٌ واحدة، عليه أن ينقذ نفسَه بكلمة واحدة، لا تضيّع الوقت، غدًا ستأتي مع أمّه لتقابلاه وتقنعاه بالتّعاون معنا، وإلّا ستفقد ولدك للأبد.

كان اللقاءُ بين الثلاثة مفجعًا، ومؤلمًا، لم يستطع الأب تمالكَ نفسِه حين وقعت عيناه على ابنه فسقطَ مغشيًّا عليه، وتولّت الأمّ إطلاق صرخة مدوّية، فيما انْهار حسام بالبكاء، وكان ذلك هو المطلوبَ بالضّبط.

حسام وعزّة

على كورنيش الإسكندرية، كانت الشّمس قد أذنتْ بالمغيب وتسلّلت العتمة، وتركتْ لأعمدة الإنارة مهمّة إضاءة الطريق، تجمّعت سحبٌ كثيفة في السّماء بمجرّد خروجهما من المنتزة، انسابت السّيارة منسجمةً مع هسيس الفراشات المُتراقص بينهما، دفءُ سكينةٍ يغمرها برغم برودة الجو، بجوار رجلها.. تشعر بأمانٍ ورحمة، هكذا تراه وتوقنُ به، وتعيش لذلك وتحلم، ومازال يملؤه صمتُ الحيرة من هذا الحبّ الذي تسلّل لكيانه فأحكم قبضتَه على كلّ مداخل ومخارج قلبه، فلم يعدْ يستطيع أن ينكره، شيء ما بداخله يجعله يقاوم لسببٍ لا يعرفه، وحين بدأ المطرُ في الهطول، تحوّلت عزّة فجأةً إلى طفلةٍ صغيرة، لا تُسيطر على نفسها ولا يُسيطر عليها شيء حين تفرح، قطعتِ الصمت الدافئ بينهما بصراخ طفولي وتقافزٍ على المقعد، فذعرت فراشاتُ الحبّ الحالمة التي تجول بينهما:

- حسام، حسام، حسام.

التفتَ إليها بتعجّب شديد، ومبتسمًا، وجاوبها بسرعة:

– نعم، نعم، نعم.

– أوقف السّيارة أرجوك، أوقفها.. أوقفها.. أوقفها.

– عزّة! الوقوف هنا مَمنوع.

برجاءٍ صارخ:

– أرجوك أوقفها، أرجوك.. أرجوك.

اضطرّ حسام أن يهدّئ من سرعة السيارة تدريجيًّا حتى وجد مكانًا لموقف للباصات فدخل فيه، وضغط على زرّ الانتظار، وبمجرّد أن وقف قفزت عزّة خارج السيارة، واتّجهت مسرعة تتقافز إلى شاطئ البحر، أسرعَ إليها فوجدها قد ضمّت يديها إلى فمِها لتتدفّأ بأنفاسها، تغمرها سعادة وحُبور، وعلى وجهِها ابتسامةٌ متّسعة، توشك أن تتحوّل إلى ضحكة، وسأل نفسَه وقد تدفّق إلى قلبِه حنانٌ غامر، ماذا عليّ لو حضنتُ هذه المرأة؟!

تسارعت زخّات المطر أكثر، ففردتْ ذراعيها كأنّها جناحان يرفّان للطيران، ورفعت وجهَها للسّماء، كأنّها تستقبل فيضانًا من القُبَل، وهي تقفزُ من شدّة السّعادة، ضاحكة بصوت عالٍ.

– عزّة، الدنيا برد عليك.

– أرأيت يا حسام كمْ هو جميلٌ المطرُ!؟ إنّني أعشقه حين يتدفّق هكذا للأرض العطشى، وأنتظرُه بلهفةِ حبيب ينتظر حبيبَه طولَ الوقت.

كانت تتكلّم بسرعة، وبسعادةٍ غامرة كأنَّ المطرَ يهطلُ لأجلها دونَ سائر الكون، احتار حسام خائفًا عليها من البرْد والليل، فخلع سترتَه وأحاطها بها، ثمّ ضمّها فاستكانت وجسدُها يرتعد تحت ذراعه.

عادا للسيارة واستكملا المسير، ولم يتوقّف انْهارُ كلام عزّة عن المطر، وظلّت تسرد له الكثيرَ من المواقف المُضحكة لها تحتَ المَطر، ومشاعرها وإحساسها بالأمان والنّعيم وهي تستقبل حبّاته التي تنقذها من الخوف ورهبةِ البرودة، وعن كميّة نزَلات البرد التي أصابتها بسبب ذلك، وتجاوب معها بكلّ كيانه، فبادلها ضحكًا بضحك، واستمتاعًا بحكايتها كأنّه هو الذي عاشها، حتّى هدأ الكلامُ وانسحب، واستجابتْ عزّة للدّفء المحيط بها، وانتظمت أنفاسُها مع انتظام سرعتها، وارتختْ جفونها فأسندتْ رأسَها للمقعد ومالت قليلًا، واستسلمت للنّوم، التفت إليها ونظر لوجهها بحنانٍ، وابتسم وهو يسأل نفسه: ماذا عليّ لو ملتُ عليها، فخطفتُ من جبين القمر قبْلَةً قبل أن يستسيقظ!!؟

كان يومًا جميلًا استثنائيًّا على شاطئ المنتزة، راح يستعيدُ الذّكريات الطازجة، كأنّ كيانه يريد أن يحفرَ يومَه معها على جدار الذّاكرة، فلا ينساها أبدًا، ودّ لو طال الوقت وتأخّرت الشمس، وقضى العمرَ كلّه بجوارها هناك، كم يحبّ تجاوبَها معه، واهتمامها بكلّ التفاصيل التي يحكيها، ومقاطعته لتسأله، وتعبيراتِ عينيها، وارتعاشاتِ وجنتيها، والدّموع التي تسيل على خدّيها متجاوبةً مع أحداثِ حياته، لا ينسى شهقتَها ولهفةَ عينيها وهو يحكي لها عن تهديد الضّابط بأبيه وأمّه:

– لهذا الحدّ!؟

- وأكثرَ ممّا تتخيّلين، كانت هذه آخرَ وأقسى ورقةٍ لعبوا بها معي، لقد استطاعوا كسرنا، لدرجةِ أنّ أبي بعدما أفاق ظلّ يرجوني أنْ أعطيهم ما أرادوه، وكذلك أمّي التي جثت على الأرض تقبّل قدمي ألّا أفجعَها فيّ، لم أستطعْ مقاومة توسّلاتهم، حاولت إقناعهم أنّ قتلي أهونُ بكثيرٍ من موتي وأنا بين الأحْياء، تتصوّري يا عزّة، كان أبي يفهم ما أريدُ قولَه تمامًا، ولكنّ الأمرَ كان أصعبَ من قدْرته، فصمتَ منكسرًا حزينًا حائرًا بين أن يشنق ابنه بتهمةٍ جائرة، أو يعيش ميتًا بين الأحياء، حيرةُ الآباء هذه أصعبُ حيرةٍ خلقها الله.

سكتتْ هنيهة، ثمّ قالت دامعةً من أثر الكلمات:

- لقد كنت أتصوّر أنّني أعيش مأساة ليس لها مثيل.

ابتسم:

- كُلٌّ منّا يعيش مأساته.

- أكمل، ماذا حدث بعد ذلك؟

- استجبتُ لهما وجلستُ بعد انصرافهما أمام ضابط السفارة مستسلمًا، وقلت له: إنّني مستعدّ لإعطائه كلّ ما يريد، ولكن مَن يضمن لي الخروج بعدها!!؟ قال: ما الذي يدعونا لاحتجازك!!؟ سنغلق الملفّ ونمحوه كأنَّ شيئًا لم يكن، لا قضية ولا اعتقال، وستعود إلى عملِك في الجامعة وانتهى الأمر، بدا كلامُه منطقيًّا بالرغم من الرّيب الذي أصابني، ولكن ربّما كنت أودّ تصديق ذلك.

سكت حسام وهو يتنهّد بحرقة:

- سيظلّ الطريق الصعب دومًا في حياة الإنسان هو أصحَّ الطرق للوصول، مهما كان طويلًا وعرًا وقاسيًا، وسيظلّ الواحد منّا بلا قيمة حتى يدفع ثمنًا لكرامته وحريته غاليًا.

سكتَ، وطال الصمت، حتى قطعته عزّة بلهفةِ مَن يريد أن يستمع لبقية الحكاية:

- أكملْ يا حسام.

- قلتُ للضابط: الآن عرفتك، أنتَ مجرّد عميل لعدوّنا، المفروض أن يُقبض عليك لا أنا، وكلّ التّهم الباطلة التي وجهتموها إليّ ستصير حقيقيّة بمجرّد أن توجّه إليك، كان الرجل باردًا بدرجة لا تُصدّق، لم يتأثر ولم يردّ سوى أن ألقى الأوراق أمامي، وطلب تفسيرًا علميًّا لكلّ ما دوّنته في أوراقي الخاصة.

- وهل صدّقوا ما كتبت لهم؟

- ليسوا ساذجين لهذه الدّرجة، توقّعت أن تُعرض على جهات متخصّصة، وبالطبع ستكون جهات صهيونية، لكنّ القدر كان يحمل لي مزيدًا من المفاجآت الصادمة، فقد جاء وفدٌ من أساتذة الكليّة التي أعمل بها ليراجعوا ما دوّنته، وعلى رأسهم عميد الكلية الذي كان يساومني.

- مستحيل يا حسام! معقول أن يحدث ذلك؟

- وكانت تلك إحدى أهمّ مكاسب معاهدة السلام أن تُقنّن الخيانة، ويصير الإنسان عميلًا للعدو برخصة من الدولة، وبهذا المنطق تمّ تعْيين أغلب رجال حسني مبارك، وتمّ اختيار كلّ المقرّبين والمتعاونين معه بهذه الطريقة.

فترةُ صمتٍ تحاول فيها استيعاب ما يقوله، ثمّ قطعتها متسائلة:

- اسمحْ لي، أنا غير مستوعبةً أن يحدث لك كلّ هذا لمجرّد استكمال أفكار حول الزراعة وأوراق بحثيّة ومعادلات لم تكتمل، هل كنت تصنع الذرّة مثلًا!!؟

قالتْ جُملتها الأخيرة وهي تبتسمُ في محاولةٍ لكسر الشّجن العام الذي يغلف حديثهما.

جاوبها بابتسامة:

- نعمْ ما قلته يبدو منطقيًا للوهْلة الأولى، هناك آلافُ الباحثين حول العالم يقدّمون أفكارًا جديدة بلا توقّف، ولكنّني لم أكن مجرّد باحثٍ متفوّق، ولكنْ كانت أفكاري عبقرية، وجريئة وعمليّة، ويمكنها تقديم حلولٍ نظيفةٍ لسدّ الفجوات الغذائية ليس في مصر وحدها ولكنْ في العالم.

- ماذا تقصد بالحلول النّظيفة؟ هذه كلمة أسمعها لأوّل مرّة.

- سأشرحُ لك، وبعيدًا عن المصطلحات العلميّة أو الخوض في تفاصيل ربما تكون صعبة الفهْم؛ الحلول النظيفة هي تطويرُ الزّراعة لتنتج المحاصيل بكثافة زراعية في مساحة أرض صغيرة، فإذا كان فدان أرض ينتج طنًّا من محصول معين، فيمكنه إنتاج أربعة أطنانٍ على نفس المساحة، وبنفس كميّة المياه، ويتمّ إنتاج هذه الكمية بطريقتين، واحدة آمنة والأخرى غير آمنة؛

الطريقة الآمنة تعطي طعامًا صحّيًّا، والطّعام السليم ينتج صحة عامّة لدى الناس قوية، قادرةً على العمل والإنتاج، تستوعب الزراعة ملايين المزارعين، ووراء المنتج الزراعي مجموعُ صناعات ضخمٌ يستوعب كذلك مئات المصانع ومئات الآلاف من العاملين بها، وبالتالي حركة تصدير عالية لدولٍ كثيرة تبحث عن منتجات آمنة لشعوبها، والنتيجة فائضٌ كبير في ميزانية الدولة، فتستطيع القيام بواجباتها نحو مواطنيها من تعليم وصحّة وسكن، إلى آخر كلّ المصالح الحيوية للدولة وشعبها، هذه واضحةً!؟

– واضحة، والطريقة غير الآمنة؟

– والطريقة غير الآمنة، تنتج كذلك كمياتٍ كبيرة من المحاصيل، ولكنْ بذورها معدّلة وراثيًّا بشكلٍ لا يراعى فيها الآثار المترتّبة على التربة وصحة الإنسان، ويستخدم لذلك مبيداتٍ مسرطنَة قاتلة لكلّ شيء، وهذه مصيبةٌ أخرى، فنحن نستوردُها سنويًّا بمليارات الدولارات من إسرائيل، أو من خلال شركات عالمية، مستثمروها يهود، أو تأتي عن طريق التّهريب، منها ما هو منتشرٌ بالأسواق دون أن تُسجل في لجنة المبيدات، وتباع دون رقيب ولا حسيب، وهذه تسبّب السرطان بشكلٍ قاطع، ومنها ما هو مسجّل مع الإشارة إلى احتمال تسبّبه في إصابة الإنسان بالسرطان، ولدينا مُبيد مثلًا اسمه كوينالثوس، يحتلّ التّرتيب الأوّل فى قائمة المبيدات المحرّمة دوليًّا، ومحظورٌ دخولُه مصر، وهو غير مسجّل من قبل الوزارة ولكنّه موجودٌ بالأسواق، وتستطيعين الآن الاتّصال بالمستورد وتطلبي الكمية التي ترغبين فيها، والنّكتة أنّ أغلب هذه المبيدات القاتلة حاصلة على تصريحٍ من وزارة الزراعة بتداولها رغم أنّها محرّمة دوليًّا.

شهقتْ ووضعت يدَها على فمِها، غير مستوعبة، وواصل حسام:

- هذه المبيدات تُدمّر التربة ابتداءً، وتقتل كلّ ما يتحرّك على الأرض، تملأ ثمارها الأسواق بكثافة، وبأسعار في متناول الفقراء، فيُقبل عليها النّاس بشراهة، فتنتشر الأمراض المُهْلكة، مثل الفشل الكُلوي، والكبدي، والسرطان وغيرها، والمصيبة أنّ هذه الأمراض المستعصية بدأت الانتشارَ بمراحل سنيّة صغيرة في الأطفال والشباب لم تكنْ موجودة بها، فضلًا عن الكبار، لتُدار تجارةُ المرض، لتنهش في أجساد الناس وجيوبها، يشرف عليها اللّصوص من مسئولين المُفترضُ أنّهم يخدمون الشعبَ، ولكنّهم يتاجرون فيه.

ظلّت عزّة ساهمةً مُتفكرة في كلام حسام الذي انطلق كاللّهب المتتابع على رأسها، وحارت كيف تتجاوب معه، وواصل:

- هل تعرفين مثلًا أنّ هناك محاصيلَ زراعية نستورد بذورَها من إسرائيل ونتناولها يوميًّا وتحمل كثيرًا من المخاطر على صحتنا؟!

قالت بانتباه:

- لا.

- هل تعرفين حتّى ما هي هذه الأصناف؟

- لا.

منتصف العام ١٩٨١

تلّ أبيب– وزارة الزراعة والتنمية الريفية

قاعة الاجتماعات، الملحقة بمكتب وزير الزراعة الإسرائيلي، متوسّطة الحجم متواضعة الأثاث، يتوسّطها طاولة مستطيلة، تتّسع لعددٍ قليل من المجتمعين، وعدّة كَراسي حولها، أبرز ما يميّزها اللّون الأبيض، يسير في منتصفها خطّان بلونٍ أزرق على كامل الجدران الأربعة للقاعة، منتصبة على الحائط بإطارٍ ذهبي صورةٌ كبيرة لمؤسس الدولة الصهيونية تيودور هرتزل، بلحيته الكثّة، ونظرتِه المُطّلة على أملٍ عاش حياته كلّها من أجله، خلف الكرسي الذي يجلس عليه وزير الزّراعة أثناء الاجتماعات التي تنعقد بشكلٍ شبه يومي منذ عدّة شهور، وعلى يسارها النجمة السّداسية بحجمٍ كبير يتناسبُ مع حجم الصورة، بنفس اللون الأزرق للخطّين اللّذين يرمزان للنيل والفرات، في حلم دولة إسرائيل الكبرى.

– منذ أكثرَ من عام، بدأنا في إجراءات التّطبيع مع مصر، وفي كلّ المجالات تقريبًا التي حدّدناها معهم، وبالرّغم من توقيع معاهدة السلام مع السادات، والترويج الإعلامي المصري لها، إلّا أنّ الرّفض الشعبي لنا في مصر لم يتزحزح، والصورة الذهنية التي رسّخها التاريخ عنّا أمرٌ صعب تجاوزه، خاصّة مع المصريين.

بهذه الكلمات، استهلّ أرائيل شارون وزير الزراعة الإسرائيلي كلمتَه مع الوفد الإسرائيلي الذي سيرافقه لزيارة مصر خلال ساعات، بسحنةٍ جادّة، وعيون حادّة، تعرف تمامًا كيف تحدّد هدفها برغم الحَوَل البادي فيها، قلّب في بعض الأوراق أمامَه، ثمّ أكمل حديثه:

- كلّ هذه التفاصيل الخاصّة بالرّفض الشعبي لا تزعجني، ولا يجب تضييع الوقت بالالتفات لها، فقد بدأنا بالفعل في التطبيع الزراعي على الأرض، وهو عملٌ هادئ ومؤثّر وبعيدٌ عن الضّجيج الإعلامي، كلّ الأمور في مصر تجري لصالحنا بشكلٍ مُدهش، فالسادات يبذل أقصى مجهودٍ في التعاون معنا، وتوجيهاته كلّها للفريق الرئاسي المعاون له والوزارات المُختلفة بتذليل كلّ المشكلات والعقبات التي تقف أمام تنفيذ بنود المعاهدة، ليثبت أنّه كان على حقّ في توقيع الاتّفاقية منفردًا معنا، وليواجه المعارضة الضارية في الداخل والخارج، والسيد مبارك نائبه، أبدى استعدادًا رائعًا في التعاون معنا، كلّ إمكاناته الشّخصية مناسبة جدًّا، بل وتؤهّله لتولّي قيادة مصر بعد السادات، فهو الرجل الأمثل لكلّ طموحاتنا، محدود التّفكير، بلا طموحات قوميّة، بلا رؤية واضحة، في عهده القادم ستدار مصر تقريبًا برؤيتنا، وقد جهّزنا له الشخصيات الرئيسيّة التي ستعمل معه في حالة غياب السّادات، المناخ في مصر الآن مهيّأ لنا تمامًا، بشكلٍ لم يسبق له مثيل، ويجب أن نستغلّ هذه الفرصة بأقصى طاقةٍ لنا.

قطعَ شارون كلامَه برشفةٍ من فنجان القهوة الموضوع أمامَه، ثمّ التفت إلى حاييم مندوب المخابرات والمسئول عن ملفّ الزراعة المصري، وطلب

منه إطلاعَ الحضور على آخر تقارير حول الشّخصيات المتعاونة من الجانب المصري، اعتدلَ الرّجل وفتح الملفّ الموضوع أمامه:

– يجب أولًا أن ندرك جيدًا أنّه، وبفضل معاهدة السلام، هناك مفاهيم وقناعات كثيرة تغيّرت لدى الشّخصيات المؤثرة في السّلطة المصرية، وقد عملنا على ذلك كثيرًا، ولكن المعاهدة وضعتْ حدًّا فاصلًا في تغيير أداء هؤلاء، وبسرعة لم نتوقّعها، فيما كُنّا نبذل مجهودًا للتّواصل بحذرٍ مع الشخصيات الهامّة عن طريق وسطاء، الآن وما بين ليلةٍ وضحاها أصبْحنا نتواصل معهم بشكلٍ علني وباسْم السّلام والتعاون، الوفود من الدّولتين بدأت في تبادل الزّياراتٍ، وسوف تستمرّ وتتواصل بكثافة خلال الأعوام القادمة، يهمّنا في المقام الأوّل الخبراء والمتخصّصون في المجال الزراعي، الموافقون منهم على التعاون معنا باسْم السلام، سنعمل بقوّة على دفعهم إلى الواجهة، وفي الأماكن المؤثرة بوزارة الزراعة المصرية، من أعلى قمّة الهرم فيها، وإلى كلّ مراكز البحوث الزراعية، لقد رصدنا كلّ الأسْماء الموجودة في الجامعات الرئيسية، عين شمس، وجامعة القاهرة، وبالطبع الإسكندرية، والزقازيق، وغيرها، حتى جامعة الأزهر نفسها، حائط الصدّ الرئيسي أمام التّطبيع، بما لها من قيمةٍ دينية لدى المصريّين والمسلمين في العالم، لن تقاوم طويلًا، ستجلس معنا إنْ آجلًا أو عاجلًا، هؤلاء ليسوا مجرّد متعاونين، ولكنهم سيتبنون مشاريعنا الزّراعية في مصر بالكامل.

قاطعه أحدُ الحاضرين:

– كيف وصلتمْ إلى هذا الكمّ من الخبراء في هذا الوقت القياسي؟!

– لدينا كشوف كاملة بأسماء كلّ الشخصيات الموجودة سواء في كليات الزراعة والعلوم أو مراكز البحوث الزراعية، مع معلوماتٍ كاملة عنهم وعن حياتهم الشخصية بكلّ تفاصيلها، ونقاط ضعْفهم، وإمكاناتهم العلميّة ومستوياتها وتخصّصاتها، استطعنا جمعَها على مدار سنوات، كذلك هناك شخصياتٌ رشّحتها لنا هيئة المعونة الأمريكية في مصر، سواء كانوا في مصر أو مُبْتعثين خارجها، وهناك شخصيّات جنّدناها، عملنا وتواصلنا معها مباشرة من خلال البعثات الدراسية، نستطيع أن نقول: لدينا قائمة طويلة من الخبراء المصريين، وبعدَ تصنيفهم في مجالاتهم المختلفة، تمّ استبعاد جزءٍ منهم، واستبقينا مَن هو مستعدّ للتّعاون معنا بصورة مباشرة وغير مباشرة، وقد حدّدنا أفضل العناصر منهم، خبراء مؤمنين بالسّلام والتّطبيع مع إسرائيل، علينا أيّها السّادة ألّا نضيّع ثانية واحدة، فلدينا خطط واضحة وخطواتٌ طموحة للسّيطرة على الزراعة في مصر، ودونَ هذه السيطرة ستظلّ مصرُ مصدرَ إزعاج دائم، وخطر كبير علينا، فالخطّة ستأخذ عدّة سنوات، حتى نصل لأهدافِنا كاملة، ساعتَها ستكون عنقُ المحروسة بين أيدينا.

خيّم صمتٌ متفائل على الجميع لثوانٍ حتى قطعه شارون بسؤالٍ مفاجئ:

– وماذا عن الدكتور حسام عبد اللطيف؟

تلفت الحاضرون لبعضهم البعض مِن ذكر ذلك الاسْم، ناوله حاييم ملفًّا، وقال:

– هذا الملفّ به كافّة التفاصيل عنه، ومرفق به التّوصيات اللازمة للتعامل معه.

أحدُ الحاضرين:

– مَن حسام هذا؟!

بنظرةٍ يملؤها الغلّ تطلّع حاييم إلى الأفق:

– هذا أهمّ شخصية زراعية في مصر، ومن المعدودين في العالم، يمتلكُ عبقرية نادرة في مجاله، حاولنا الوصولَ إليه أثناء بعثته في أمريكا بطرقٍ كثيرة، ولم نحصلْ على شيء سوى السّراب، التقارير التي كانت تردُ أثناء دراسته قالت إنّه نزل بمستواه الدراسي إلى الطّلاب الفائقين، ورجّحت التقارير أنّ ذلك كان عن عمْد، وبنت شَكّها في أنّه ترك أجندته الحمْراء فجأة مُباحة للجميع بعد أن كان يحرصُ على إخفائها، ولم يعدْ يقدّم أفكارًا استثنائية أو مميّزة كالتي كان يفاجئ بها أساتذته وزملاءه، وممّا دعّم هذا التفكير، حين استطعنا الدّخول إلى سكنه الخاص، اكتشفنا أجندةً أخرى كان يدوّن فيها أفكاره، غير أنّها لم تكنْ مكتملةً، وقد تركناه فترةً على أملٍ أن يكملها، ولكنّه لم يفعل، سارة زميلتُه في الفريق دفعنا بها للسّيطرة عليه، وهي طالبةٌ يهودية تعمل من خلال الموساد مباشرة، تقول إنّ حسام كان أوّل رجل تتعامل معه ولا تستطيع السيطرةَ عليه، على عكس فريقه، كان دائمًا قريبًا جدًّا، وفي نفس الوقت لا تستطيع أن تمسكَ به، بل كانت تشعرُ في كثيرٍ من الأوقات أنّه مَن يسيطر على علاقتهما، مارستْ معه كلّ الأساليب التي تعلّمتها، وكان يبدي تجاوبًا وانفتاحًا ظاهرًا، ولكنّها لم تستطع اختراقَ الدّائرة التي ضربها حول نفسه بسياج قوي، تاريخُه يقول إنّه لم ينتمِ إلى أيّ تنظيمات متطرفة، ولكنّه يحمل عداءًا استثنائيًا لإسرائيل كأغلبِ الأَجيال في مصر، وصورٌ ذهنية قاتمة عن اليهود ودولة إسرائيل، تجعله يحمل لنا كراهيةً ونفورًا وعدمَ ثقة، منحه السّادات– مؤخّرًا– مجموعةَ أراضٍ ليجري عليها تجاربه الحقليّة، منذ فترةٍ

قصيرةٍ ونحن نتابع هذه التجارب عن كثب، وقد بدأت نتائج هذه التجارب في الظّهور، ومبشّرات نجاحها باهرة جدًّا، وهو ما يمثّل - بالنسبة لنا - حالةً شديدةَ الخطورة، فكلّ ما يفعله حسام هو ضدّ مشاريعنا في مصر.

- وماذا اقترحتم للتعامل مع هذه الحالة؟

- هناك حالةٌ من الخلاف داخلَ الجهاز المختصّ بتتبّع حالته، ولأنّنا في مرحلة تتجنّب فيها إسرائيل الدخولَ مع مصر في مشكلاتٍ بشأن بعض الأفراد، فلم نصلْ لقرار نهائي حتى الآن، ولكنْ بالنسبة لمشاريعه في مصر نحن نتتبّعها بدقّة حتى مرحلة معينة، ثمّ سنقوم بوقْفها في اللحظة المناسبة.

خَيّم صمت عامّ على الاجتماع قطعه شارون بإخراج بعض الأوراق مغيّرًا الموضوع ورفعها أمامَ الاجتماع:

- خلال العام الماضي، وبعد توقيع اتّفاقية التطبيع الزراعي مع المصريين، تبع ذلك كما تعلمون، سلسلةٌ من الاتفاقيات الزراعية الأخرى الملحقة، وكانت كلّها مساهمات منّا للجانب المصري، وكان لذلك أهدافٌ لاحقة، الاتّفاقات خاصّة بالصوب الزراعية، والري بالتّنقيط، وإنتاج اللّقاحات البيطرية، وكذلك زراعة مناطق صحراوية، وهذه الأشياء التي ابتدأنا بها كانت مهمّة للغاية، فلكلّ منها ما بعده في عملنا على الأرض المصرية، ورحّب الجانبُ المصري بالفعل بالتّعاون معنا، دون أيّ مشكلات تُذكر، وفي زيارتنا اليوم تمّ التّرتيب مع السيد وزير الزراعة المصري للقيام بجولةٍ بطائرة رئاسية، لتفقّد مناطق صحراوية بعينها، موضوعة في خطّة استصلاحها.

ابتسم شارون منتشيًا، وأكمل حديثَه للمجتمعين:

– وهذه أوّل مرّة سنرى مصر كلّها بأنفسنا، ومن خلال طائرة رئاسية، لحظات استثنائية حلمنا بها طويلًا ستتحقّق بعد ساعات.

صفّق الحاضرون وقد غمرتهم السّعادة، واتّسعت ابتسامةُ شارون وهزّ رأسه شاكرًا لهم:

– أخيرًا أودّ أن أقول إنّ التّعامل في المشاريع الزراعية والحيوانية، سيكون بالتعامل معنا بشكل مباشر، حسب اتّفاقية السلام الموقّعة، ولدينا كذلك مجموعة بدائل، عددٌ من الشركات متعدّدة الجنسيات نُديرها في الخفاء، بينما يملكها في العلن رؤوس أموال عربية وأوروبية.

ثمّ نظر شارون في ساعتهِ:

– لم يعدْ لدينا وقتٌ كثير، علينا بالبدءِ في التحرّك؛ فالقاهرة تنتظرنا.

دخل سكرتيرُ الوزير:

– شحنة الفواكه وضعتْ في الطائرة، والطاقم في انتظار سيادتكم.

التفتَ شارون إلى الاجتماع:

– هذه هديّة مميّزة للرئاسة المصرية، من الخوخ والمشمش والتفاح الإسرائيلي ليتعرفوا على المستوى المتقدّم للزراعة الإسرائيلية، ولكسبِ مزيدٍ من الثقة والأنصار، استعدّوا للحصول على مصر كلّها من الآن دون إطلاق رصاصةٍ واحدة.

حسام وعزّة

وفي البيت تحمّمت على عَجَلٍ من أثر السفر، وأسرعت تصلّي فروض جمع التأخير، ثمّ قفزت إلى فراشها، تتلهّف لأنْ تتلحف بدفء صوتِه، تلقّفت الهاتف، تحاول اللّحاق به قبل أن ينام.

حسام لم يعدْ ينام كثيرًا، الحبّ قد زاره، واستعدّ للمكوث، والصّداع الذي لازمه لسنوات، بدأ يُلملم آلامه استعدادًا للمغادرة، وتمدّدت خلايا الوجْد في قلبه، وعالجت أوجاعَ السنين الماضية.

يتمدّد في فراشه بتؤدة، يسحب الغطاءَ على مهلٍ ليغطّي سائر جسده حتى حدود أنفه، يضع كفّيه على صدره كأنّه في صلاة، يغمضُ عينيه، لا للنوم؛ بل ليذهب بمشاعره إليها، إلى نخلته عزيزة، ودّ لو ناجاها بسرّه الدّفين كما كانت تختصّه وحدَه بأسرارها، يسترخي جسدُه في محاولة للاسْتسلام للحبّ، رائحة الأرض التي ذهبت منذ سنواتٍ طويلة عادت تتودّد له، تعاود الحنين إليه، يشمّ رائحتها كثيرًا هذه الأيام، ما الذي أتى بها الآن؟ ترتسم ابتسامةٌ ناعسة على شفتيه، وترتخي جفونُ القلب، يحاول أن يستسلم أكثر، آه يا عزّة لو تدرين.. كيف قفزتِ فجأة إلى قلبي، هذا ليس حبًّا، إنّه احتلال بكلّ معنى الكلمة، استباحة لكلّ حياتي، توغّل فاشيّ لكلّ شراييني حتى الدّقيقة منها، وبرغم الرّجفة العظيمة التي أصابتني، والخوفِ الذي ارتعش له قلبي؛ أحببت ذلك من أوّل لحظة، وأُغرمت وتلذّذتُ به، هذا الاحتلال وهذه الاستباحة، وهذه البعثرة التي أعجز عن لملمتِها، حتى الأسئلة المرهقة التي تأتي متواليةً

على رأسي ومشاعري بلا إجابات، وتتركنا واقفينَ على أرصفة الحيْرة، وحتى في الليل لا نتَقلّب بسببها إلّا على أسرّةِ السّهد؛ أحببتها كذلك.

كيفَ لإنسان مغموس في رحايا الموت لسنوات طويلةٍ تسعى لعشرين سنة، فتأتي خفقةٌ قلب واحدة لتحْييه، خفقة تُذْهل العقل وتَذْهب به كلّ مذهب، فكأنّه ما خفق قبل ذلك، ولا عاش في الدنيا، ولا تنعّم فيها لحظة، هل هذه هي كلمةُ الله في الخلق، كُنْ فيكون؟ هل الحبّ هو نفخة الله في القلوب؟ كُن.. فيُبعَثُ القلب بنبضةٍ من كهرباء عيني الحبيب، مِن سكون العدم إلى ضجيج الحياة؟ سبحانك ربّي، ما هذا القلب الذي خلقتَه في صدورنا!! وجعلت نبضاتِه تتحكّم في كلّ أفعالنا وتصرفاتنا، في صمتنا وكلامنا، في ابتسامنا ودموعنا، وفي النّظرة الحارّة المنبعثة من بركان الحبّ في عيني المحبّ، فتوقد مراجلَ الأشواق في قلب الحبيب.

قطع سيلَ الحيرة جرسُ الهاتف، فارتعش جسدُه بقشعريرة عاشق خائف أن يكتشفه الجميع، مدَّ يدَه وهو يبتسمُ ليُمسك بالهاتف، يعلم أنّها عزّة، مالت عليه بصوتٍ هامس كقبْلَةٍ قصيرة، لامستْ شفتي الحبيب معطّرة بالدفء، توشك أن تذيبه حتى التّلاشي:

- حسام.

ذُهِلَ القلبُ، هل كان ذلك صوتَ عزيزة، حين مالت إليه في ذلك المساء البعيد، تناديه، وتناجيه، لتشكو إليه لواعجَ روحها، وتبثّه اشتياقًا حارقًا للقاح يونس؟ ما هذه اللّذة الخدرة التي أيقظت دماءه، ففرّت إلى سائرِ جسدِه حتّى

ارتعشت أطرافه بحركاتٍ لا إرادية، وترجرجت، وراحت تعبثُ وتوقظُ الحياة فيه بنزقٍ وتهوّر، تدفّق الصّهد إلى وجهه، وتهيّأت له صورة عزّة لأوّل مرّة، كأنثى يشتهي وصلَها، فجأة طرقتْ مريم بابَ الغرفة، انتفض جسدُه وجلس من فوْره في السرير، كمراهقٍ يخاف أن يفضحَه وجهُه، أغلق الهاتفَ بسرعة، وألقاه بجواره، وتناول كوبَ ماءٍ موضوعًا بجواره، وارتشفَ منه رشفاتٍ متتالية، يرجوه أن يطفئ النّار التي تصاعدت لوجنتيه فأنبتت قطراتِ عرق لا تتلائم مع برودة الجو، تنحنح، وبصوتٍ متحشرج:

- تفضّلي.

هلّت عليه مبتسمةً كالياسمينة، كيف تنبت النّساء هكذا في حياتنا بكلّ هذا الألق، وتعطّر أرواحنا بنعيم طلّتها؟ ابتسمَ لها بحنان، وقد هدأتْ هواجسه لعزّة، واستيقظت أبوّته لمريم، أقبلت عليه فحضنتْهُ وقبّلته، وبطفولة تأبى أن تغادرها:

- أبي، أشعر أنّك متغيّر هذه الأيام.

جفلَ مبتسماً ليداري اضْطرابه:

- أنا!! كيف ذلك؟

- تجلس وحدك، وحين تجلس معي لا تكون معي، لم تعدْ تسهر لمساعدتي في المذاكرة، أحدّثك كثيرًا فلا تسمع ولا كلمة ممّا أقوله لك.

قاطعَها حسام، قبل أنْ تسترسل:

- كلّ هذا؟!

- نعم، كلّ هذا وأكثر، هل تعلم كمْ مرّة طرقت عليك البابَ الآن، ولم تجبْ؟!!

ابتسم حسام بتردّد:

- معذرة حبيبتي، شغلتني أمور في العمل.

- أشعرُ أنّ الأمر أبعدُ من الشغل.

قطبت جبينها، تتزعّم الجدّ:

- هل هناك أمرٌ كبيرٌ يشغلك؟ يمكنني مساعدتك، قلْ ولا تخشَ شيئًا.

- ما رأيك يا مريم لو تزوّجت؟

بُهتت الفتاةُ، آخرُ شيءٍ يمكن أن يطرأُ على بالها، أن يقول أبوها ذلك؛ فقالت، وقد اتّسعت عيناها بغلالةٍ رقيقة من الدّموع:

- تتزوّج وتتركني؟!

ضحكَ حسام وقد رقَّ لها، فجذبها برفقٍ وضمّها مبتسمًا:

- أنت التي ستتركيني بالتأكيد يومًا ما قريبًا، اسأليني أنا عن البنات، سرعان ما يتبخّرن في الهواء كالأحلام الجميلة.

ضمّته إليها بقوّة، كأنّما سينتزعه أحدٌ منها:

- لن أتركَك أبدًا يا حبيبي، أنت كلّ حياتي.

فجأةً رنَّ الهاتف، فارتج جسدُه كأنّما بُغت بمفاجأة، مدّ يدَه وأغلق الجرس.

لا يدري حسام كيف خرج منّه السّؤال لابنته، (ما رأيك يا مريم لو تزوّجت؟)، ما الذي جعله يقول ذلك دونَ ترتيب؟ تنهّد نادمًا لعدم السّيطرة على كلامه، تمدّد مرّة أخرى بعد انصراف مريم، وعاود الهاتفُ الرنين.

تتلهّف عزّة أن يكمل لها حكايته، تريد أن تعرف ماذا حدثَ له في المعتقل، وفي غابة الأنثى تقف كاللّبؤة المتوثّبة تترقّب، تتلهّف أن تعرف بقيّةَ حكايته مع هناء ابنة خاله التي خطبها قبل اعتقاله، هل هي أمّ مريم، أم امرأة أخرى؟ وأين هي؟ هل ماتت؟ أم انفصلا؟ لم يذكر اسمها أبدًا في حكايته عن المُعتقل، لا تريد أن تسبق الأحداث أو تقفزَ عليها، تودّ أن تتركه يحكي على سجيته، ولكنّها متلهّفة، تتذكّر حين كانت تحكي له حكايتَها مع هاشم، كانت تضغط كثيرًا على كلمات حكايتها، وتقفُ على تفاصيل حبّ هاشم لها، وولعه بقربِها، وتبحث في عيني حسام عن غيرةٍ تشعل قلبه لأجلِها، لكنّه لم يكنْ ينظر إليها، كان يلتفتُ كثيرًا إلى السّماء ويتنهّد في صمت، أو يخفض رأسه بعمق إلى الأرض، أسئلته كانت قليلة، لم تستطعْ أن تحدّد مشاعره، فقد كان صامتًا كالبحر، ولكن هل كان قلبُه يهدر مثله؟

ستحاول أن تفعل مثله، فلن تبدي له غيرتَها، رغم أنّها تعرف أنّه لو حكى لها شيئًا يثيرُ غيرتها، ربّما لا تتمالك نفسَها، فتصرخ في وجهِه لتسكتَه، أو ربّما تهجم على ذراعه فتعضّه، تبتسم ضاحكةً لتلك الصورة التى أتتْ لها وهي تعضّه في ذراعه وهو يصرخ، ولكنّها ستحاول، ستحاول بكلّ قوّتها، السّيطرة على مشاعرها حين تأتي الحكاية عن المرأة المجهولة أمّ مريم.

- عزّة.

- نعم.

تنحنح بتردّد، ثمّ تشجّع قليلًا:

- كان زوجك هاشم رحمه الله مثالًا للزوج الذي تتمنّاه أيّ امرأة.

ارْتجفتْ لتلك المقدّمة، توجّست وتحفّزت، ولكنّها تركتْه يواصل:

- كان يُحبّك، بل يعشقك بكلّ ما تحملُه الكلمة من معان، رجل متدفّق بالحياة والحيوية، ما الذي يدعوك لأنْ تحبّيني، وأنا أعيش كالأمْوات، وليس لديّ رغبة في معاودة الحياة؟

أتاه صوتُها حادًّا كصافرة قطار في محطّة انتظار، يعلن عن رغبتِه في الغضب، ولكنّها تماسكت وضغطتْ على حروفها:

- حتّى هاشم نفسه لم يخفقْ قلبي له هكذا، فقد تزوّجني صغيرة، لا أعرف في الحياة شيئًا سوى القفزِ والضّحك والصّراخ والمشاغبة، أسعدني أن يختارني دونَ سائر البنات، هاشم اختارني وأنا اخترتُك، ذلك هو الفرقُ عندي، هل تدرك ذلك الفرق؟

- ألَا تخشين؟ ربّما كان اختيارُكِ خاطئًا.

- حتّى لو كان خاطئًا يا سيّدي، فلن أندم، حتى لو انتهى الأمرُ بالفراق، يكفيني أنّني عشت تلك اللحظة التي حلمت بها كثيرًا، يكفيني تلك النّعمة التي أعيشها بالحبّ، تلك الرغبة الحلوة التي تغمرني ولم أشعرْ بها في حياتي

ناحية أحد، كنت مع هاشم ملكة، يدورُ في فلكِها، وأنتِ كَوْني الذي أدورُ في فلَكِه، ذلك إحساسٌ أنثوي خاصّ، تحلم به كلّ امرأة، لا أظنّ أنَّ رجلًا في الوجود يمكن أن يفهمَه، الحبّ الذي أعيشُه معك، لم يطرقْ بابي من قبل، لم يتلهّف قلبي هكذا لرجل أبدًا.

– لمْ تتساءلي يومًا، ربّما لم أحبّك، لا أريد تلك العلاقة، ولا ذلك الحبّ، أنت اخترتني وأنا ربّما لا أرغب فيك؟

صمتتْ عزّة، لم يصلْ إليه سوى أنفاسِها اللاهثة كأنّها تعدو في صحراءَ شاسعة، وكأنّه يسمع وجيبَ قلبها يخفق بشدّة، همس:

– عزّة.

منشارٌ غاضبٌ يشقّ الشجرة لنصفين:

– تدري ما الفرق بيننا؟

لم يردّ، ولم تعطِه فرصةً حتّى للتفكير، وأجابت على سؤالها بنفسها:

– الفرقُ أنّني كالأرض التي كنت تحبّها، وتعشقها، ومازالت تتشوّق لها، ولكنّك خائفٌ متردّد، أمامك ولا تستطيع الاقترابَ منها، تتلهّف أن تمدّ لها يديك لتحرثها وترويها، وتبذرها حُبًّا وحنانًا وعشقًا، لتحيا هي الأخرى وتُثمر، تناديك.. تصرخ فيك.. ترجوك، ولكنّك تصمّ أذنيك عنها، تطعنُ قلبك الذي يهواها ويحبّها ويتمنّاها، حتى لا ينبض لها، تُميتُ أجملَ ما تمنحُه الحياةُ لك، تقتل بدمٍ بارد كلّ الفرصِ النادرة التي تأتيك لتحيا، أن تعيش إنسانًا، أمّا أنا..

سكتتْ هنيهة، ثمّ واصلت وهي تبكي:

- أمّا أنا، فقد تعبت من طولِ الانتظار والوحدة، والهواجس والوساوس، والخوف من نفسي، ومن أمّي، ومن أولادي، وأهل زوجي، وزملاء العمل، والناس أجمعين، تعبت... الكلّ يدْهسني، يسحقُ مشاعري ببلادةٍ مُتناهية، والرّجل الذي أحببته، وأمّلت أن يحييني بقربه، للأسف الشديدِ خائفٌ، مرتعشٌ، جبانٌ، ابتعدْ عني، لا أريدك، سأذبحُ قلبي هذا الذي يحبّك.

قالت ذلك بحرقةٍ كاملة، وأغلقت الهاتفَ وألقته على الأرض، وذهبتْ إلى وسادتها ودفنت فيها وجهَها، في وصلةِ بكاءٍ منتحبة.

أمّا حسام فقد ظلّ الهاتف معلّقًا على أذنه لفترةٍ من الوقت، ثمّ أنزله بهدوءٍ ووضعه بجواره، وصداعُ الليل يستعدّ للعودة من جديد.

هل تدرين ما حدث لي؟

أنا مجرّد بقايا إنسان، رغبتي في الحياة ماتتْ منذ زمن بعيد، لقد جرّفوني بالكامل؛ عقلي.. وروحي.. وجسدي، لو كُنتِ هناكَ حين اغتالوني لَمَا قُلتِ ذلك، لَمَا ذبحتني مثلهم، ولفتحت ذراعيْك باتّساع الكوْن لتضمّيني، وتُهدْهدي جروحي التي لا تريد أن تلتئم، لقد كان الموتُ أشرف لي، ولكنّها خطيئةُ الخوف، حين لا يليق الخوف، اللهفة للبحْثِ عن مخرج حين يكون المخرج هو الموت، تَصوّرتُ أنّني بمجرّد أن أعطيهم ما يريدونَ سأخرجُ من المعتقل، الذي ضاقت نفسي به لأبعدِ حدّ، وأُنقذ أبي وأمّي من القهر، ونفسي من العذاب والتّعذيب، ولكنّ التنازل أغلق كلّ الفرصِ المُتاحة للحرية، فيما

نتصوّر أنّ الأمر هيّن، تفجؤنا قوانينُ الحياة بقسوتها، أنّنا اخترنا السّجنَ وراء قضبان الوهْم في الخلاص، نعم منحتهم كلّ شيء، وجاءوا بكلّ زملائي وأساتذتي، الذين باعوا الوطن بدعوى السّلام، ليراجعوا ماكتبت، بل ويسألوني بكلّ بجاحة، فيما غَمُضَ عليهم، بل ثمّ ينصحونني بأنْ أدورَ في فلَكِ السّلام الذي سيجلب الخير، كانوا يقصدون الخير لأنْفسهم فقط، هل كان ثمّةَ فرقٌ بيني وبينهم؟ لا فرق، كلّنا تنازلنا، الفارق الوحيد أنّهم قبضوا ثمن تنازلِهم أموالًا ومناصب، وأبقوني في سجنٍ انفراديّ لخمس سنوات، بلا ورقة واحدة ذات قيمة، تُثْبت أنّني مُدانٌ بجريمة حقيقية، ليضيع عمري، وتتبعثر حياتي، ويغتالونني معنويًّا.

لم تكوني حاضرةً تلك الليلةِ السّوداء التي حاولوا فيها قتلي، والسكونُ يهمس بالموت، وأنا في منتهى الضّعف والوهن، ضاقت روحي بالحياة، فبعد أن أخذوا ما يريدون، فجأة لم أجدْ أحدًا أكلّمه، اختفى الجميعُ؛ رجلُ السّفارةِ، والضابطُ الكبيرُ، وكلّ مَن حقّقوا معي، بقيتُ في زنزانتي أيامًا طويلة، وأسابيع كثيرة، تعبتُ من عدّها وحسابها، طَرقتُ بابَ الزنزانة كثيرًا، ولا أحد يجيبني، سوى ذلك الرّجل الصامت الذي يأتيني بالطّعام مرّةً واحدةً في اليوم، لا فرق بينه وبين الجِدار، لا يعرف شيئًا، لا يتكلّم كثيرًا، ولكنْ عيناه تتكلّم، تخبرني بالخوف.

كان أبي في الخارج، قد أقام الدنيا ولم يقعدْها، لم يلتفتْ لتحذيرات المحامي، ولا الهواتف الليلية التي تأتيه بالتّهديد بتصفيتي إن تحدّث إلى أحد، مع وعدٍ بخروجي القريب، ولكنْ بإحساسه الذي لا يخيبُ فيهم عرف أنّهم

كاذبون كعادتهم، فخاطب كلّ جهة لها عنايةٌ بأمر اعتقالي؛ رئاسة الجمهورية، النّائب العام، صحف المعارضة، وبدأت إحدى الصحف في الحديث عنّي في مقال طويل، قصّوا على القرّاء رحلة حياتي العلميّة، من أوّلها حتى انتهتْ باعتقالي، جنّ جنونهم، فقرّروا تصفيتي.

حتى كانت تلك الليلة، لاحظتُ أنّ الرعب يعلو وجهَ الرّجل، نظر إليّ وهو يضعُ الطعام والماء، وقال هامسًا: انتبه لنفسك يا ولدي، كان الله في عونك. ثمّ وقفَ واستدار للانصراف، فأمسكتُ بذراعه مرتعبًا متسائلًا: لماذا يقول ذلك؟ ربتَ على كتفي وحاول أن يطمئنني بابتسامة تكسّرت على تعاريج وجهِه، ثمّ انصرف، لم أستطع تذوّق الطعام، وجلست خلف باب الزنزانة، وقد استبدّ بي رعبٌ مجهول، غير أنَّ غفوةً أثقلت رأسي، فملتُ على الجدار ونمْت، فما استيقظتُ إلى على رجلٍ ضخم الجثّة يرفعني من رقبتي بيدٍ واحدة، كأنّها قُدّت من صخر، من فرط صلابتها وقوتها، ويطيحُ بي على الأرض، ثمّ يتقدّم نحوي بخطى بطيئة مُستهترة، كأنّه سيتسلّي بذبيحته قبل قتلها، وقفتُ بسرعة، وشيء ما بداخلي استيقظ، هل هي الرّغبة في الحياة، أم الإصرار على أن أستعيد ذاتي وأموتَ بشرف، ما أن اقتربَ منّي حتى هجمت عليه وأنا أصرخُ في وجهه فلطمته لطمةً قويّة، لم يتوقّع هذه المباغتة الجريئة منّي، فطار صوابه، فأمسك بتلابيبي، وظلّ يضربني حتّى تدفّق الدّم من كلّ فتحات وجهي، وأنا على ذلك أحاول الإفلاتَ والمقاومة، ثمّ أرداني على الأرض وجثَمَ على صدري بثقلٍ كالجبل، ثمّ بيدٍ واحدة التفّت أصابعه حول رقبتي يعصرها كثعبانٍ مُميت، يستعدّ لابتلاع فريسته بعد خنقها.

لو رأيتني يا عزّة تلك اللحظة، وقد انقطع الهواءُ عن رئتيَّ، وأظلمت الدنيا فوق ظلام الزنزانة، وذراعاي وساقاي تضربان في الهواء، وحياتي كلّها تدور أمام عيني في لمح البصر، من أوّلها لآخرها، مجرّد قطرةِ ماء هطلتْ من السماء لتتسرّب بين شقوق الأرض، فاختلطت بها بذرتي، لتنبتَ هشيمًا هشًّا ضعيفًا بلا قيمة، ستذروه الرّياح بعد قليل مخنوقًا، مذبوحًا في زنزانة باردة سوداءَ مظلمة، كأنّه ما كان، غامت الدنيا، تتلاشى الحياة شيئًا فشيئًا، يخفتُ صوتُها بداخلي، يطلّ وجهُ أمّي الحزين المنْكَسر قبل أن تُسدل الستارة السّوداء ببطء، ثمّ لم أعدْ أرى شيئًا غيرَ الخواء، جوارحي بدأت في الارْتخاء، وبدأ سلطانُ الاستسلام للموت يُهيمن عليّ، ثمّ كان آخر ما سمعت، طلقٌ ناريّ مكتوم، ارتخت على أثَرِه اليدُ الغليظة التي تخنق رقبتي، ثمّ انتفض جسده وسقط فوقي ودماءُ رأسِه تتدفّق على وجهي، بصعوبة أزاحه أحدٌ آخرُ من فوقي، ليعود الهواء إلى رئتيّ، فتحتُ فمي على اتّساعه ليبتلع الهواء، ليتسرب مرّة أخرى إلى رئتي، وأتنفّس مرّة أخرى طعم الحياة، فتحت عيني بوهنٍ، لأجدَ السّجان العجوز ينظر إليّ ويبتسم.

أجلسني لألتقط أنفاسي، ثمّ ساعدني على النهوض، اتّكأت عليه متهاويًا، أخذني وغسل لي وجهي من الدّماء، وسقاني بعضَ الماء، ثمّ أجلسني خارجَ الزنزانة لأستريح، وجلس أمامي ساكنًا مطمئنًا، حتى شعرت أنّ تجاعيد الزمن اختفت من وجهه، وأنا لا أدري ماذا أقول، ولا أفهم ما يحدث، نظرتُ إليه وعلى وجهي مليونُ سؤال، وهو يتطلّع إليّ هادئًا مبتسمًا يملأ عينيه رضا وسكينة، كأنّ جبلًا من الهمّ قد انْزاح عنه، ثمّ قال بهدوء: سيأتون الآن، لا عليك، احكِ ما حدث بالضّبط، أنا الآن في راحةٍ نفسية شديدة،

عسى الله أن يُكفّر عنّي ذنوبي التي اقترفتها، ثمّ انْحدرت دمعةٌ مسحها على أخاديد وجهه، مسح عينيه كأنّه يكره البكاء، ثمّ ما لبث أن أتى ضابط برتبة كبيرة، نظر إليّ بدهشة، كأنّه تفاجأ بوجودي حيًّا، ثمّ التفت إلى العجوز الذي لم يقفْ له ولا أدّى التّحية العسكرية، تبادلا نظرةً قويّة، ثمّ تحرّك الضابط إلى الزنزانة ليجد جثة القاتل، فخرج غاضبًا وأخذ يسبّ الرجل ويهدّده ويتوعّده، توافد حينها عساكرُ السّجن مسرعين مع بعض الضّباط وانتشروا في المكان، وأحاطوا بنا، ثمّ أخذوه وأخذوني إلى مكانيْن متفرّقين، وكانت تلك آخرَ مرّة أراه فيها، ثمّ ألقوا بي في زنزانةٍ أخرى، وأنا غير مصدّق كلّ ما حدث، كأنّه حلم، بل كابوسٌ مرعب.

بعد تحقيق قصير، نُقلت إلى سجنٍ عمومي، وفي زنزانة انْفراديّة أيضًا، ومعي ملفٌّ وأوراق، وضعوا فيها قضيةً، وأحكامًا وأختامًا، ثمّ سمحوا لأبي وأمّي بزيارتي.

خمسُ سنوات يا عزّة، أسكنُ أربعةَ جدران، لا أكلّم أحدًا ولا يكلّمني سوى الصمت، قدّم أبي التماساتٍ كثيرةً لنقلي حتى لزنزانةٍ عادية، أعيش فيها مع بشر، حتى لو كانوا مجرمين، كلّ مطالباته ذهبت هباءً، حتى جاءه اتّصال ذات مساء، وقيل له: احمد الله كثيرًا أنّ ابنك مازال حيًّا، لقد كتب الله له عمرًا جديدًا، فلا تفتحْ عليه أبواب جهنم مرّة أخرى، مع وعودٍ كالسراب يحسبه الظّمآن ماء بالإفراج القريب عنّي.

رأيت يا عزّة كيف تبدّل بنا الحال، ودارت رحى الدنيا فطحنتنا بقسوةٍ مُفرطة، تخيلي كيف ينكسر أبٌ وأمّ لهزيمة ابنهما الوحيد؟! أظنّ أنّها كانت أضعاف ما أعاني، كنّا نلتقي ثلاثتنا في الزيارة، فيضمّني أبي بعمقٍ، ودموعُه

سيّالة كالنّهر الحزين، ثمّ يجلس صامتًا مدّة الزيارة، وأمي تمطرني بالقبُلات، ثمّ تجلسُ بجواري تحدّثني دونَ توقّف، عن أيّ شيء وكلّ شيء، وتصرّ على إطعامي بيديْها، وترفض أيّ تمنّع منّي، وتظلّ اللقمة معلقةً في يدها، ولا تتوقّف عن رجائي بلا كللٍ حتّى أفتحَ لها فمِي، وهي تمطرني بالدعوات، ثمّ ينصرفان يجرّان حزنهما ويتركاني لظلام الوحدة.

خرجتُ بعد خمس سنوات تقريبًا، أيّامٌ توقّفت عن عدّها، ومواسم بردٍ وخوف وعزلة، تمرُّ عليّ، لم تعدْ تعني لي شيئًا، تركتها تمضي بي.. إلى أين؟ لا أدري، لم أعرف ما مضى من عمري إلّا حين خرجت، استقبلني يومَها أبي وأمّي في هدوءٍ تامّ دون ضجيج، كأنّهما كانا مسجونيْن معي، ولم يقبلا زيارات كثيرة للبيت على الأقلّ في الأيّام الأولى لعودتي.

كنت أتصوّر أنّني عشت أسوأ أيّام عمري في المعتقل، ولكنّ الحياة مازالت حبلى بالألم، ولم تشبع الأيّام منّي بعد، كانت فترة قاسية، في أيّامي الأولى بعد خروجي جلست في حجرتي فترة طويلة، كأنّني أخاف من الاتّساع، أو أنّني تعوّدت على الصمت والوحدة، أبي يدخل لي في الصباح يدعوني للخروج معه فأعتذر له، وفي المساء للاطمئنان عليّ، وأمّي لا تتركني؛ تدخل وتخرج عليّ، ولا تتوقّف عن الحديث واحْتضاني وتقبيلي، حتى أبكي من فرْط حنانها.

جاءني عمرو ووليد بعد أيّام بمجرّد أن علمَا بخروجي، أوّل من استجبت لهما، ابتسمت لمرآهما، وتحرّكت مياه الحياة التي أسِنَت بداخلي، حتى أنّ أُمّي قفزتْ من الفرحة حين رأت ابتسامتي، استعانَ بهما أبي بعد ذلك على مساعدتي في الخروج من الدار، وفعلًا استجبت سريعًا لهما، وبدأتُ في الخروج إلى مجلس أبي شيئًا فشيئًا، ثمّ طلب منهما التحدّث معي عن مواصلة الحياة، فأخذا أبي

إلى الجامعة في محاولةٍ لعودتي لممارسة عملي بالجامعة، ووعدهم العميدُ البتَّ في الأمر، ثمّ جاءني فجأة استدعاء إلى أمْن الدولة، وعاد الخوف يُطّلُ من جديدٍ علينا، أنا فقط الذي لم يعدْ لديّ ما أخاف عليه، سواء عشت في البيت أو عدت للزنزانة، لا فرق عندي.

وهناك استقبلني أحدُ الضبّاط في مكتبه بوجهٍ جاف، وقدّم لي قهوة لم أتذوّقها، وقال كلامًا غير قابلٍ للجدال، وعليّ تنفيذه: لا تذهب للجامعة، ولا تقدّم التماسًا لأيّ جهة رسمية، ولا ترفع قضية لعودتك للتّدريس، يمكننا فقط- ومراعاة لتاريخك العلمي- أن نُعيّنك مدرسًا ثانويًّا لتدريس الفيزياء مثلًا، أو الكيمياء، أو الأحياء، حسب ما تختاره، وأعط دروسًا خصوصية لتحسين دخلك إن أحببت مثل باقي المدرسين، لا تختفي في البيت كثيرًا، نريد أن نراك دائمًا في الحياة، ونتأكد أنّك تفعل ما نريده منك، لا علاقة لك بالزراعة أو الأبحاث العلمية من قريب أو بعيد، ولا السياسة طبعًا، حتى صوتك لا تضعه في أي انتخابات.. تغيّر صوتُه لنبرةٍ ساخرة وهو يواصل حديثه، صوتُك أمانة عندنا، سنضعُه نحن حيث تدورُ مصلحة الوطن، عُدْ إلى حياتك، حاول أن تتزوج وتنجبَ أطفالًا تسعى عليهم، وعشْ كما يعيش النّاس، ثمّ قال جادًّا: ستظلّ تحت أعيننا دائمًا، وكلّ فترةٍ سنستدعيك لمتابعتك، وأرجو أن تكون متجاوبًا معنا، وحافظْ على أبيك وأمّك، ولا تعرّضهما مرّةً أخرى للمصاعب، ظللتُ أستمع إليه صامتًا، محاولة داخلية أخيرة لأنْ أتشجّع وأردّ عليه، ولكنْ تلك الذّبالة من الضوء تعرّضت بسرعة لرياح شديدة، حين مرّ أمامَ عيني كلّ ما عشته، فانطفأت في مهْدها، فهززتُ رأسي بالموافقة، وانتهتِ المقابلة وانصرفت، وقد عرفت كيف سأحيا باقي عمري.

هذا أنا يا عزّة، حطامٌ يمشي على الأرض، يتماسك فقط لأجل ابنته، أمّا رفاهية الحبّ، فلا أملكها، قلبي تصحّر، وجفّ كلّ ماء الحياة فيه منذ زمنٍ بعيدٍ، أحاول معه أن يتجاوز الهوّة السحيقة التي سقط فيها ولكنّه لا يستطيع، نعم.. هو ضعيفٌ ومتردّد وجبان كما قلت، أعترفُ لك بذلك، لقد أتعبني فوق ما أستطيع وأحتمل.

لنْ أنكر أنَّ قلبي أحبّك، ومال إلى روحك، وتشهّى تنفّس الحياة معك، وجهُك الذي ملأ حياتي فجأة بالنّور والبوْح الودود، كأنّه مجرّد حلم جميل يراودني، ولكنّه لن يتحقّق، عيناك المكتنزتان بالدّفء تغرّد كالعصافيرً في الصّباح كلّما نظرت إليّ، تحدّثني في غيابك وفي حضورك، أمّا على مستوى الفعل فأنا تقريبًا مشلول، لا أستطيع أن أخطو ناحيتك، خوفًا من مجهول يسيطر عليّ، أرجوك دعينا نتوقّف هنا، فأنا أشعرُ أنَّ القادم سيكون مؤلمًا لنا، ولم أعدْ أحتمل مزيدًا من أحزان الحياة، أرجوك يا عزّة.

أغلقتِ الرّسالة التي وصلتها عبْرَ بريدها الإلكتروني من حسام، والدّموع تغطي وجهَها، تأثرًا بكلّ تفاصيل الرّسالة، ولكنّها- رغم ذلك- قامت وتناولت الهاتف واتّصلت به، ولكنه لم يردّ، أصرّت على مواصلة الاتّصال عدّة مرّات، حتى فتح الخط، فجاءه صوتُها مرّة أخرى قويًّا هادرًا:

- تدرينَ يا حبيبي، كلّما أصررتُ في الابتعاد عنّي، تمسكتُ بِكَ أكثر، لا أدري لماذا، أنا أريدُك، وجودك في حياتي أصبح أساسيًّا، وواجبًا، وفرضَ عين عندي كالصلاة والصيام، أنا أتنفّسك، أعيش بك، وأنتظرُ تلك اللحظة كي أعيشَ لك، وجودُك هو أملي الأخير في استعادة عمري وعمرك، غيابُك

يعني النهاية، الموت، حضورُكَ أحياني مثلما أحياك حضوري، لقد انتزعتَني من ليلِ الحدادِ الطويل الذي لا يريد أن ينتهي، عادت عزّة، ولن أفرّط في عودتِها مرّةً أخرى، أنت لا تعرفها حين تُريد شيئًا، لن يوقف إرادتي لك شيء في الوجود، أنا أحبّك، وأرغب أن تتزوّج بي، وأن أكملَ باقي العمر معك، ولن يوقف هذا أحدٌ من البشر، حتى أنت، فكّر في حلٍّ لتلك المعضلة قبل أن يذهب بي الجنون بك إلى أبعدَ ممّا تتخيّل، أرجوك يا حسام، لا تتركني.

ثمّ أغلقت الهاتف، وتمدّدت على سريرها راضية، وأغمضت عينيها، تاركة ضمّتها القوية لحسام، وقبلة الحياة التي وضعتها على شفتيْه؛ أن تحييه ويستجيب لها.

أمّا هُوَ، فقد ظلّ الهاتف على أذنه كالعادةِ لدقائق، ثمّ أنزله برفْق، وقام ليسهر قليلًا مع مريم، وهو يقول لنفسه، كيف أوقفُ هذه المرأة التي تأتيني في كلّ مرّة كالإعصار لا يقف دونها شيء.

وانقطع الاتّصال بينهما لعدّة أيّام ولم يصل مرّة أخرى إلّا بعد أسبوع تقريبًا، حين انْحنت الشمس للمَغيب، دقّ الجرس في منزل عزّة، فتح أسامة البابَ ليجد أمامه رجلًا طويلَ القامة، متناسقَ الجسد، يميلُ للنحافة، شاحبَ الوجه تعلوه ابتسامة حلوة متردّدة، يرتدي بدلةً أنيقة، يفوح منه عطرٌ أخّاذ، نظر إليه أسامة مستفهمًا، تنحنح الرجل ثمّ قال:

- هلّ يمكنني لقاء الحاجة فاطمة؟

- أهلًا وسهلًا، أقول لها مَن؟

- حسام عبد اللطيف.

قبل أسبوع من الزيارة..

بعد مكالمة عزّة الأخيرة، وجد حسام نفسَه قابعًا في ركنٍ لا يعرف كيف يخرجُ منه، فلم يجدْ بدًّا من لقاءٍ عاجلٍ مع صديقيْه في القاهرة، وامتدّت بهم السّهرة، فقد كان الأمر لدى حسامٍ أشبه بحالة حربٍ، قصَّ عليهما كلّ التفاصيل التي حدثت مع عزّة، وهما ينصتانِ باهتمامٍ شديد، ثمّ صمت الجميعُ قليلًا حتى قطعه عمرو بسؤالٍ مفاجئ:

- حسام، قل لي كم مرّة استدعاك أمنُ الدولة من آخر مرّة ذهبت إليهم؟

نظرَ حسام بضيقٍ إلى عمرو وقد شعرَ أنّه يأخذه بعيدًا عن الموضوع:

- ما علاقة هذا بكلامنا الآن!!؟

تدخّل وليد:

- أجبه يا صديقي، لنرَى إلى أين يريد أن يأخذنا.

أجاب وهو يزفر متنهّدًا:

- ولا مرّة، وأنتما تعرفان ذلك، فلماذا السؤال؟

عمرو:

- هذا ما أريد أن أنبّهك إليه، إنّهم تركوك تمامًا، وربّما لم يهتموا لأمرك بالصورة التي تصوّرناها كلّنا، هم يعرفون أنّك ستعيش في الزنزانة التي وضعوها في اللاشعور، وهم متأكّدين إلى درجةٍ كبيرة أنّك ستعيش باقي عمرك فيها وستخافُ أن تبرحها.

ازدادتْ عصبيّة حسام، وقبل أن يردّ قاطعه وليد:

- حسام، حاول أن تهدأ قليلًا، عمرو ينبّهنا لأمر مهمّ جدًّا نعيشه تقريبًا كلنا، وأنت تعيشه أكثرَ بصفة خاصّة.

نظرَ إليه حسام وقد قطب جبينه في محاولةٍ لفهْم ما يُقال، وواصل وليد:

- تلك هي الحقيقة، جميعنا نعيش في سجن داخلي كبير، ندور ونحيا فيه بحدود مهْما اتّسعت، الفرق بيننا أنّنا نعيش في سجنٍ جماعي، وأنت تعيش في سجن انفرادي.

خيّم الصّمت على الثلاثة، كأنّ أفكارهم تتجمّع في نقطة التقاء لتتوحّد في الطريق، ثمّ قال حسام وقد بدا مقتنعًا بكلامِهما:

- نعم، تحليلُكما صحيح، أصاب كبدَ الحقيقة، ولكنْ يبقى أنّني مازلت غير قادرٍ على الحركة، أشعر أنّني مسلوب الإرادة، عقلي سيجنّ من عجزي هذا الذي أعيش فيه.

قال عمرو:

- قلْ لي يا حسام، متى كانت آخر مرّة تفقّدت فيها أرض والدك؟

انتفضَ جسدُ حسام وارتعش داخلُه وهو يلتفت إلى عمرو، ثمّ مسح وجهَه بيديه ونظر إليهما، لم يستطعِ الهرب من عيونهما المتربّصة التي تريد إجابة:

- ولا مرّة منذ عشرين سنة.

- ما رأيك أن تزورها غدًا، تخرج مع أبيك في جوْلته الصباحية للأرض.

حسام يعرف أنّ صديقيْه سيدفعانه بإصرارٍ إلى نهايةِ الطّريق طالما اتّفقا عليه.

حلّ صمتٌ قصيرٌ مرّةً أخرى، قطعه عمرو:

– ما الذي يخيفك؟ أو بمعنى آخر ما الذي ستخسره؟ اكْسر حاجز الخوف واقتلِ الرّهبة التي تسيطر عليك وتشلّ أركانك، وإنْ حدث شيء، فلن يعدو الأَمرَ من استدعاءٍ للتذكير كقرصة الأذن.

التفت حسام لوليد كأنّه يستنجدُ به:

– كلام عمرو منطقي جدًّا، البداية الصحيحة من هناك، الأرض.. لتستعيد عافية روحك وعنادك القديم.

حسام:

– تختلفان دائمًا كالعادة، ولا تتّفقان إلّا علي.

ردّ وليد:

– تدري، لقد وضع الله عزّة في طريقك، فكّر في هذا القَدرْ بعمق، كأنّها مصباح أضاء لك الطريقَ الصحيح في عتمة الحياة، كنت تمضي ببطء قاتلٍ نحو الموت، حتى جاءت عزّة، فقلبتْ كلّ شيء رأسًا على عقب، يا لها من فرصةٍ لتستعيد حسام الذي عرفناه قبل ثلاثين عامًا.

قال عمرو مواصلًا شحذ حسام:

– حسام، أرجو أن تدركَ، ونحن صديقاك المخلصان المحبّان، أنّنا نعاني ونتألم لك، ونفتقد حضوركَ القديم، وطلّة عقلك المتوقّدة، ومحبّة قلبك الطيّب لنا، وأنّك حلقة الوصل الدائمة بيننا، وقد شقّ كلّ منّا طريقًا مختلفًا في الفكر والحياة، وأننا تقريبًا لا نلتقي ولا نتّفق دائمًا إلّا في حضورك.

تبادل حسام ووليد الابتسام:

- هذه وصلةٌ عاطفية عميقة أسعدتني والله يا عمرو.

وليد متجاوبًا مع العاطفة التي غمرت المجلس:

- صدق عمرو في كلّ ما قاله، وأرجو أن تدرك أنّنا نريد استعادتك، وحاولنا وكلّ محبّيك مرارًا وتكرارًا بلا فائدة، حتى جاءت عزّة، وأحْيت فيك الإصرارَ على لملمة نفسك وإعادة ترْتيبها مرّة أخرى، ولكنْ بطريقتها لا بطريقتك.

خفقَ قلبُه لذكْر عزّة، يشعر الآن بحبّ جارفٍ لها، كبرعمةٍ صغيرة تريد أن تشقّ الأرض، لتتحوّل إلى نخلةٍ قويّة باسقة تطاول السماء.

نظرَ حسام لساعته:

- الوقت تأخّر كثيرًا، بقي على صلاة الفجر ساعات قليلة، دعونا نذهب.

وليد:

- لم تقلْ لنا ماذا ستفعل؟

- سأفكّر بالأمر.

- ستفكّر بالأمر!! لم يعدْ هناك وقتٌ لتضيعه أكثرَ من ذلك، لا تفوّت هذه الفرصة وتخذلنا وتخذل نفسَك، إذا كنت تخاف من جنون عزّة؛ فاعلم أنّنا كذلك لن نفوّت الفرصة، ويمكن أن نتحوّل لمجانين، وتفاجأ أنّنا خطفناك وأجبرناك على الزّواج.. شئت أم أبيت.

وانفجروا ضاحكين.

الحاجّ محمود

برغم بلوغه الثّمانين عامًا إلّا أنّه مازال يستيقظُ في نفس الموعد قبل الفجر بساعة تقريبًا، ويوقظ زوجته، يؤدّي طقوسه المعتادة من التهجّد والتبتّل والدّعاء في الصّلاة، ثمّ يخرج إلى المسجد القريبِ من الدّار قبل نداء الفجر بدقائق، ثمّ يجلس بعد الصّلاة لتلاوة أذكار الصّباح ثمّ يمسك بالمصْحف ويقبّله ويضعُه على جبهته ويبدأ في قراءة وِرْدِه القرآني مع بعض روّاد الفجر حتّى تطلع الشّمس، يعود للدّار ليجدَ زوجته قد أعدّت له اللّبن الرّائب، فيتناوله على مهلٍ برشفات قصيرةٍ، كأنّه يتذوّق كلّ معنًى للحياة فيه، هذا الصّباح قال لزوجته وهو يتناول الرّائب:

– اليوم يا أمّ حسام، قال لنا إمامُ المسجد في خاطرة ما بعد الصّلاة، إنّ الرّجل إذا بلغ ثمانين عامًا فقد صار ضيفَ الله، أعجبني هذا الشّعور وملأ روحي، أنّني أجلس في حضرته، غارقًا في كرم ضيافته، فتمنّيت على الله وقد ارْتقيت لمقام عطائه أن يعيد إليّ "حسام".

ابتسمت زوجته:

– الحمد لله ابنك بخير، ويأتيك دائمًا، ولك منه أجملُ حفيدة.

تنهّد العجوز:

– الله يعلم ما أريد وما أتمنّى.

ثمّ قام يتكئ على عصاه، وقد أوْهنته السنون والأحزان، ولكنّه يصرّ على الخروج اليومي ليطوف بالأرض ليتفقّدها، يشعرُ بدبيب الحياة الحقيقيّة حين

يطلّ عليها كلّ صباح، وعلى الرّغم من إشفاق زوجتِه عليه من المشي الكثير إلّا أنّها تستسلم لإصْراره على الخروج، فتساعده في ارتداء ملابسه النّظيفة التي تحرصُ على إعدادها له، وتشيّعه إلى الباب، وتصحبه بالدعوات.

رفّت على وجهيْهما نسمةٌ صباحيةٌ نديةٌ، عطّرها وجهُ حسام حين أطلّ عليهما فجأةً مبتسمًا، واقفًا بالباب، والتقى النّدى بالزّهور، ضمّه أبوه فرحًا ضمّةً كبيرةً، وأمّه تقف بلهفةٍ خلفهما تتعجّل انتهاء الحضن لترتمي بين ذراعي ولدِها كأنّها طفلته، ثمّ دعاه أبوه للدّخول، فقال له ليكمل فرحته:

- اشتقت للأرض، جئتُ اليوم أريد أنْ أراها.

التفت الحاجّ محمود لزوجته مبتسمًا برضا كبير:

- رأيت!! استجاب الله لرجاءِ ضيفه، فمنحه ببالغ كرمِه، سبحانه وتعالى اللطيف الكريم.

ثمّ ناولها عصاه ووضع يدَه على ذراع حسام، وبزهْوٍ غامر:

- سأتّكئ على ولدي.

- وأنا سأعدّ المشلتت، حين تعودان ستجدانه ساخنًا، والعسل، والزبد.

سارا صامتيْن، حسام يتنفّس الهواء بعمق، وكلّما تغلغلت رائحة الأرض والزرع والأشجار في جسده يشعرُ كأنّه يبعث من العدم، كان يملأ عينيه من اتّساعها الأخضر المبهج، ويتفقد كلّ التّفاصيل فيها، يشعرُ بأنفاس الصّبح فيها، وهي تُسرّه بفرحتها العارمة لعودته بعد غيبته الطويلة، أمّا الحاجّ

محمود، فقد كان يرى النّخل المصفوف يميلُ إلى ولده بالتّحية، وأشجارَ الكافور الطويلة تحيّيه من هناك، وشجرةَ التّوت العتيقة نثرت عليه كميةً كبيرة من التوت حين مرَّ من تحتها فَرِحةً سعيدة، وتذكّره حينما كانت تظلّه وهو في حجْر أمّه من الشمس، وتدور الفروع مع الشمس حتى لا تمسّه، أمّ الشّعور مازالت تميل بغوايةٍ أنثويّة محبّبة إلى النيل لتغسل شعرَها، ويوقن أنّ زهور الصّباح المتهيأة للثمار تبتسم لحسام وتهتزّ بفرحة راقصة وهو يمرّ بجوارها يبادلها الابتسام، وكلّما انحنى ليمسّ ثمرة ما يشعرُ بوجعٍ فيها، مالت إلى يدِه الثّمار المجاورة لها، تريد أن يمسّها كذلك، هو يعرف سرَّ ابنه في الأرض مِن يوم أنْ قال له عن عزيزة ويونس: والله إنّها تحبّه، وظلّ يردّد يمينَه وهو يبكي، وقتَها أسرَّ له عمّ درديري وقال له: يا حاجّ محمود إنّ لابنك هذا سرًّا.. أدعو الله أن يحفظه، لا تحدّثوا أحدًا به، وكأنّ الزروع كلّها قد تناقلت مقدمَ حسام فاهتزّت جميعها بالحُبور، وطارت عصافيرُ كثيرةٌ حولهما، واليمام يحطّ بجواره، وهو الذي ينفر من الناس، وحسام يبتسم ويهزّ رأسه للطبيعة حوله وهو في قمّة السعادة.

أبوه يشعرُ براحة استثنائية، وهو يلهجُ بالحمد والثّناء على الله، وأنّ السنوات استدارت، وأنّ فرصةً جديدة للحياة تعود إليه، فيختم حياتَه هانئًا بجوار أرضه وولده، كان سعيدًا لهذا الإحساس، ويطربُ له، لطالما حلمَ بذلك منذ مولد حسام؛ أنْ يتّكئ على ذراعه في كبره، ويستندَ عليه حين تولّي قوّته، وتتركه.

– ما أخبار القطن يا أبي؟

قطب الحاج محمود جبينه، وظلّ صامتًا لبرهة، ثمّ تنهّد:

- غبتَ كثيرًا يا ولدي، تبدّلت الدنيا كثيرًا في غيابك.

- كيف تبدّلت؟!

- في زمن السّادات، بدأت في شراء أراضٍ زراعية، انتهزتُ فرصة تبدّل الحال وقتها، والانفتاح الاقتصادي الذي جعل كثيرًا من الفلاحين يهجروا أراضيهم، أو يهملوها إمّا بالسّفر للخليج أو العراق، فأصبحت كلّما تيسّر الحال من محصول، أبدأ في ضمّ أرض جديدة لحيازتنا، ولم أجدْ كثيرَ مقاومة في البيع من الفلاحين، أصبح فجأة بيع الأرض سهلًا، والتفريط فيها شيئًا عاديًّا؛ فاشتريت.

- لم تقلْ لي يا أبي قبلًا مثلَ هذا الأمر.

- كنت أدّخرها لك مفاجأة، ودارت بنا الأحداث، استطعت زيادة الأرض من المائتي فدان التي تركهم لنا عبد الناصر إلى أكثر من ألفِ فدّان.

الحاجّ محمود يحكي وعيناه تفترشان الأرض بنظرةٍ حيادية، لا أملَ فيها ولا بريق، فهو في الثّمانين، وأمله الوحيد على أعتاب الخامسة والخمسين، ولا حفيد ذكر يحمل اسمَ العائلة، كلّ أحلامِه على مدار عمْره، كانت تسقط قبل حصادها بلحظة، تنهّد العجوز وواصل كلامه:

- بعد انتقالك إلى السّجن العمومي، أجّلت طموحي لحين خروجك كما وعدوني سريعًا، ولكنّه مات مصلوبًا على ألم الانتظار الطويل، حاولت إحياءه بعد خروجك، ولكنّ ظروفك النفسية كلّها أجهزت عليه تمامًا.

حاول حسام أن يعتذرَ بالضغطِ بحنانٍ على يد أبيه ويقول شيئًا، ولكنّ أباه ابتسم وقاطعه:

- لا عليك يا ولدي، يكفيني أنّك عدتَ إليّ اليوم كما تمنّيت على الله قبل أن ألقاه.

- ولكنّي تأخّرت كثيرًا يا أبي.

- يأتي كلّ شيء دائمًا في موعده المقدّر.

عادَ الصمت ليحلّ بينهما قليلًا، ونسماتٌ باردة نشيطة تتغلغل إلى رئتيهما، تنحنح حسام ملاطفًا أباه:

- كنت أسألك عن القطن يا أبي، كنت تحبّ ذلك المحصول، وتقول إنّ الأرض حين تكتسي باللّون الأبيض تُبْهجك، وتملؤك بالسّعادة الغامرة كأنّها عروس ليلة زفافها إليك.

ابتسم الأب:

- نعم يا ولدي، كانت الأرضُ عندي كعروسٍ تُزّفُ إليّ كلّ عام حين نجني القطن، لم يكن أجمل عندي ولا أروع من هذه المساحة البيضاء على مدّ البصر، كان الخير يهطل علينا من كلّ جانب.

- والآن يا أبي؟!!

- بعد اعتقالك أهملت الأرض كثيرًا، وتحمّل عمّك درديري العبء عني، حتى توفي رحمه الله قبل خروجك بوقتٍ قصير، ثمّ اضطررت للعودة

للأرض، وثقل الحِملُ عليّ، وأمّلت أن تخفّف عنّي، ولكنْ جرتِ المقادير بسفنها بعيدًا عن مرادي فيك، وقتها جاءت شركة زراعيّة وطلبت تأجير الأرض منّي بعرض إيجاري مغرٍ جدًّا يتجاوز ثلاثةَ أضعاف ما كنتُ أحصل عليه من الزراعة، يتجدّد العقد كلّ عام مع زيادة إيجاريّة معتبرة.

- أيّ شركة هذه يا أبي؟

- شركة أجنبية، ولها شركاء عرب ومصريّون.

عاد الصمتُ من جديد، ولكنّه طال هذه المرّة، وذهب برأس حسام إلى عزّة، قائلًا لنفسه، لو يمكنني القدر من إنجاب ولدٍ منها ربما يكون ذلك نَفَسًا جديدًا للأرض، ويتحقّق به حلم أبي.

التفت إلى أبيه الذي كان يتلو بعضَ التّسابيح بهدوء مستسلمًا لأقداره:

- والقطن يا أبي؟!

- لم يعدْ هناك قطن يا ولدي، لقد استبدلت كلّ المحاصيل الأساسية التي كنّا نزرعها بمحاصيل أخرى، اهتمّوا بزراعة أصنافٍ من الفواكه كثيرة لا طعم لها ولا حتى رائحة، وبعض المحاصيل الدوائية للتصدير، هدموا المنْحَل، وأقاموا مكانَه مزرعة لتسمين العجول، يأتون لها بلقاحاتٍ من أمريكا، ويطعمونها بأعلافٍ مستوردة، مع خلْطها بأعلاف أخرى، حتى اللّحم يا ولدي صار بلا طعم.

- والقطن يا أبي؟!

تنهّد الحاج محمود:

- كانت مصر تزرع ثلثَ مساحة الأرض الزّراعية بالقطن، ما يعادل ثلاثة ملايين فدانًا، هذه النّسبة الكبيرة قد انخفضت إلى أقلّ من مائتي ألف فدان؟

توقّف حسام مشدوهًا مذهولًا:

- يا للْهول، مائتي ألف فدّان فقط!!؟ وكيف تُدار مصانع الغزل!؟

- كيف تدار!! لقد انْهدمت صناعة من أهمّ الصناعات في مصر بسبب انْهيار إنتاجيّة محصول القطن، فضلًا عن انْهيار جودته.

- معنى هذا توقّف مئات المصانع التي تعمل في الغزل والنسج عن الإنتاج، وتشريد وبطالة آلاف العمّال.

فأكمل الحاجّ محمود:

- وتحقيق خسائر ماليّة سنوية كبيرة، تتكبّدها خزينة الدولة لتبيع تلك المصانع باعتبارها خاسرةً لمستثمرين أجانب وعرب بأبخس الأثمان، ويأخذون بضمانها قروضًا بتسهيلات مهولة، ثمّ يعيدون تقسيم الأرض وبيعها.

سكت الحاجّ محمود قليلًا، ثمّ قال بأسى:

- هيّا نعود يا ولدي.

وعلى طعام الإفطار، اجتمع ثلاثتهم بعد سنواتٍ طويلة لم يجتمعوا فيها بهذه السّعادة، فقد كان حسام يذهب لزيارةٍ رتيبةٍ لوالديه كلّ أسبوعين، ولكنّ هذا الصباح أتى في غير موعده، وكان وجهُه مختلفًا، وروحة الشّابة تستعيد حضورها بينهما لحدّ الدهشة، حتى أنّ الأب والأم تبادلا نظراتٍ كثيرةً متعجّبة من تغيّر حسام المفاجئ، فقد تحدّث كثيرًا أثناء الطعام، وضاحكهما ومازحهما على غير المعتاد.

دخل غرفته، واتّصل بمريم ليطمئنها عليه، ثمّ ذهب لسريره واسْتلقى عليه وهو يتذكّر ليلة أمس، وسهرته الصّاخبة الطويلة مع وليد وعمرو، ثمّ ابتسم لنفسه، لقد تركهما ليعودَ إلى بيته، فيتفاجأ أنّه يقود السيارة إلى أبيه وأمّه، ويقول قبل أن يزحفَ النوم إلى رأسه لينام بعمق، هل كنت أقودُ السّيارة، أم هي التي كانت تقودني!!؟

لم يدرِ بالوقت، فقد نام حتى شبع، تركتْه أمّه- على غير عادتها معه- نائمًا، وانشغلت بتجهيز طعام الغداء واتّصلت بمريم ودَعَتها للمجيء على أملٍ أن يبيت حسام عندها الليلة.

اجتمع الأربعة بعد صلاةِ العصر على الغداء في جلسةٍ حميمية افتقدها الأبوان، تكلّم كذلك على الغداء ومازح أمّه كما كان يفعل في الماضي، وتركها تطعمُهُ بيديها، كان الحاجّ محمود سعيدًا هانئًا، ويشعر أنّ ابنه لديه سرٌّ وقد أتى ليبوحَ به إليه، كما كان يفعلُ في الأيام الخوالي، أمّه- كالعادة- تخاف من السّعادة حينما تفيض عليها فتمسِكُ قلبها، وتظلّ تذكرُ الله بآياتِ حفظه حتى يهدأ، ويا ليته يهدأ.

في مجلس أبيه، جلسا هادئيْن، يرتشفان الشّاي، همّ الحاجّ محمود بسؤاله عن السرّ الذي يقرؤه في عينيه، ولكنّ حسام سبقه بالحديث:

– لاحظتُ صباح اليوم أنّ التربة في الأرض مُرهقة، كذلك نسب مكوّناتها الأساسية مختلّة جدًّا، ورائحتُها تنبئ عن وجود أمراضٍ كثيرة.

تنهّد الحاجّ محمود:

– كلّ شيء تبدّل تقريبًا، لاسيّما في الأرض والفلاحة، الزراعة في مصر تديرها شركات عالمية بشكلٍ مباشر وغير مباشر، والتي لا يهمّها سوى مصلحة نفسها فقط، وللأسف ساهمَ الكثيرُ من ملّاك الأراضي والفلاحين في ذلك جريًا وراء الربح السريع.

– الشّركات العالمية تديرها إسرائيل يا أبي!!

– ما لنا والسياسة يا ولدي، أغلقْ هذه المواضيع، فقد جرّت علينا الوجع الذي عشناه ونعيشه.

– أنا لا أتكلّم في السياسة يا أبي، كلامي عن التّجارة التي تدير السياسة الآن في العالم، لقد صنعَ الاقتصاد الغربي دوائرَ خبيثة بدأت في زرع رجال أعمال متنفذين في الدوائر السّياسية ومراكز اتّخاذ القرار، يعملون كمندوبين لهُم في أوطاننا، يتحكّمون من خلالها في مقدّرات الشعوب وإرادتها وقراراتها، بدأت عملَها من هنا يا أبي، من البذرة المريضة، لتقضي بعد ذلك على كلّ إرادةٍ حرّة يمكن أن تنهض بالوطن.

– كأنّي بك قد عدتَ ثلاثين سنة للوراء.

ابتسم:

– أحاول يا أبي.

– ألا تخاف يا ولدي؟

– الخوف كلّه أن أموتَ على حالي من الخوف والتردّد والسّجن الذي أحيا فيه، أتمنى أن يكون لديّ القدرة على تجاوز خطيئة الاسْتسلام، ويأتي عليّ اللّحظة التي أموت فيها بشرف، أموت وأنا راضٍ عن نفسي، وضميري مستريح.

ابتسم الحاجّ محمود برضا:

– أطال الله عمرَك، ومتّعك بالعافية يا ولدي، يسعدني ما تقول، فقد أخطأت يومًا في حقّك، ومازال ضميري يعذّبني بك، وقد اشتهيت قبل أن أموتَ أنْ تعود إليّ، وها أنت تبادر بالعودة.

فهِمَ حسام إشارةَ أبيه فقام إليه وانْحنى فقبّل يديه ورأسه:

– أنتَ شرف لي وتاجٌ على رأسي، ولطالما كُنّا صديقيْن، فلا تقلْ ذلك يا أبي.

– نعمْ ومازلنا، ولذلك هاتِ ما عندك يا ولدي، احْكِ لي، ما الذي غيّر حالك هكذا؟ وكأنّي بروحك القديمة الوثّابة قد عادت مرّة أخرى، هاتِ ما يعتمِلُ في صدرك، وتنطق به عيناك، وجئتنا على غير موعدٍ لأجله.

ابتسم حسام ثمّ قال بتردّد:

– أفكّر في الزّواج.

كانت هذه الجُملة كافيةً لأن تهزّ وجدان الحاجّ محمود بسعادة استثنائية، فابتسم ابتسامةً عريضة، وغلالة رقيقة من الدّموع تتلألأ في عينيه، تأثّرًا وفرحًا في آن واحد.

أفرغ كلّ ما عنده في حجر أبيه؛ هواجسه، مخاوفه، رغبته، والأبُ يستمع له بإنْصات، حتى إذا انتهى قال له دونَ تفكير:

– لا أريد أنْ أضيّع الوقت في نقاشات وتفاصيل لا جدوى منها الآن، نرجئها قليلًا، ودعنا نتقدّم خطوة على خير الله يا ولدي، لا تتردّد، ما حكيتَه عن هذه المرأة يجعلني أقول لك، تمسّك بها؛ فقد أرسلها الله إليك في هذا الوقت ليتبدّل حالك فلا تفوّت هذه الفرصة، وأنصحُك أن تذهب لزيارتها في بيتهم والتعرّف على أهلها، فإن استقامَ الحال، ورأيت الأمرَ مُقبلًا عليك، فسآتي معك أنا وأمّك، وبالنسبة لمريم دعْها لي؛ فهي حبيبة جدّها، وسوف أقنعها.

يومان قضاهما حسام ومريم في ضيافة أبيه، طاف خلالها على أراضٍ كثيرة مجاورة لأرضهم، لم يكنْ حالها بأفضل حالًا منها، إنْ لم تكن أسوأً، وقف يستعيدُ ذاكرته، وتتجدّد خلاياه، كان كلّ ساعة يقضيها بين الفلاحين يتحدّث إليهم، ويستفسر، ويعرف ماذا يدور في الأرض، يستعيد ذاكرتَه أكثرَ وأكثر، وترتوي شجرةٌ بداخله قد يبستْ أوراقها مع الأيام، ولكنّها مازالت قادرة على اسْتعادة ربيعِها، وقف يطرحُ أسئلة على الفلاحين، ويشير عليهم بما يتذكّره من علوم، الأرضُ التي يقفُ عليها سوف تحتاجُ لسنواتٍ طويلة قبل أن تستعيد عافيتها.

عادتْ مريم إلى البيت لتواصلَ دراستها، وعاد حسام إلى القاهرة مرّةً أخرى للقاء وليد وعمرو.

سارع الاثنان بشغفٍ للقائه غيرَ مصدّقين لهذه السّرعة في طلب اللّقاء مرّة أخرى خلال ثلاثة أيام، وقد شعرا أنّ هناك شيئًا مهمًّا قد استدعى ذلك.

عندما أهلّ عليهما حسام في المقهى المعتاد للقائهم في الحسين، وقفا مشدوهيْن، عاجله وليد:

– هل ذهبت للأرض؟

– بالتّأكيد يا وليد، هذا الوجهُ الذي أتى به الآن لم نرَهُ منذ أكثر من ثلاثين عامًا.

سلّم عليهما بحرارةٍ وحبور، ثمّ جلس وتنهّد بعمق، وهو يتلفتُ حوله ويتطلّع للبيوت العتيقة:

– نعمْ ذهبت من هنا مباشرة لبلدتنا، ولا تسألوني كيف ذهبت، اسألوا السيارة، هي التي قادتني.

– الله أكبر، ولله الحمد.

صرخ بها عمرو، فالتفت إليه وليد:

– يبدو أنّنا سنحملك على الأعناق نقومُ بمظاهرة نطوفُ بها الحسين نهتفُ لك فيها.

ضحكوا لمازحة وليد، ثمّ هدأت الضحكات، وتوقفت الأسئلة على العيون في انتظار إجابة حسام لها.

تنهّد حسام:

- أبوح لكما بسرّ؟

- قلْ يا موْلانا، أي شيء تبردُ نارَ قلوبنا.

- لم أكنْ أعلم أنّني أُحبُّ عزّة بهذا القدر الكبير إلّا وأنا في الأرض، لقد ذوّبني حبّ تلك المرأة لدرجة لم أتخيّلها، وتدفّقت نحوها عاطفة لم تتدفّق لامرأةٍ قبلها، وتمدّد حلمي معها باتّساع الكون، شعورٌ لم يَخْبُره قلبي من قبْل، حتى بتّ أتساءل.. هل هذا هو الحبّ الذي يُحي القلب من عدم؟

تبادل وليد وعمرو نظراتٍ متعجّبة، ثمّ التفتا إليه ليتابعا ما سيقول.

- لا أدري، هل الحبّ فصلٌ من فصول السحر، أم هو سحرٌ قائم بذاته يجمع كلّ فصول السّحر؟!!

- الله.. الله.. الله.

كان عمرو يردّدها وهو يميلُ برأسه كأنّه يستمع لموال.

- لقد لبثت عمرًا، تصوّرت أنّه يمكن أن أتغيّر لو تحرّك جبل من مكانه، ثمّ تأتي تلك المرأة، فتدخل حياتي في لحظة فتعبث بكلّ محتوياتي، وتبعثر ملامحي الحزينة، وتعيد ترتيبها لتبتهجَ حياتي بالفرح، فيتحرّك جبلُ الأحزان بداخلي، فيصير كالعهن المنفوش، كأنّه ما كان، لا أنكر أنّني قاومت كثيرًا هذا الشعور، ولكن حتّى هذه المقاومة ندمتُ عليها لأنّها كذلك أخذتْ من عمري.

كان وليد وعمرو يستمعان لحسام باستمتاع، كأنّهما يستمعان للحن كلاسيكي شديد الرومانسية، أخذ بلبّهما، في لحظةٍ ساحرة أفاقَ منها وليدٌ سريعًا:

- لا تأخذنا لنهاية الطريق فجأة، احْكِ لنا عن زيارة الأرض.

ابتسم حسام:

- مهْما أصفُ لكم سعادتي لن أستطيع التّعبير عنها، آه.. نسيت أن أقول لكما إنّ عزيزة مالت عليّ وأنا عائدٌ في المساء وقبّلت خدّي، وهمست لي أنّها مازالت تحبّ "يونس"، ولا ترضى بلقاحِه بديلًا، وقالت أيضًا إنّها ستطرح العامَ المقبل أفضلَ ثمار أنجبتها، فرحًا وسعادة بحبي لعزّة.

نظرَ إليه وليد وقد رفع حاجبه وقال لعمرو:

- يبدو أنّ صاحبك توقّف عن أخذ الدواء، هل مازلت تحتفظ بأرقام تليفونات مستشفى المجانين!؟

وتلألأ الضّحك بينهم.

- مازلتما لا تصدّقان حكاية عزيزة!؟ معنى ذلك لو قلت لكما إنّ الأرض همست لي وأسرّت لي بكلّ أسرارها بمجرّد أن وصلت لها، وقبل أن ألمسَ تربتَها؛ لن تصدّقاني؟!

- اطمئنّ، سنصدّق كلّ خرافاتك، احْكِ لنا فقط.

ذهب الابتسام، وقال حسام بلهجةٍ جادّة:

- بقدر سعادتي في تلك الزّيارة برمّتها، إلّا أنّ الآلام ازدحمت على قلبي، تدريان؟ ممّا شاهدته وعرفته من أبي ومن الفلاحين، أستطيع أن أقول إنّ أغلب

أرض مصر الزراعية ميتة تقريبًا إكلينيكيًّا، وتدور في نفس الدّائرة المفزعة التي تدور فيها الصّحة العامة للناس، بعد كلّ محصول تحتاج التربةُ لمعالجات من أمراض أصابتها وانتشرت فيها بسبب البذور الملوّثة والكيماويات المسرطنة، فتُعالج بطرقٍ لا تعيدُ لها عافيتها، ولكنْ لتتهيأ فقط لإنتاج محصولٍ جديد، تنفق الدّولة مليارات الدولارات في استيراد كلّ مستلزمات الزراعة تقريبًا، يدخل فيها وسطاء وسماسرة، يمكنهم المتاجرة في كلّ شيء، بلا وازع ولا ضمير، تضخّمت ثرواتهم على حساب صحّة الناس، وكلّما توسّعوا ازْدادوا نهمًا وشراسة.

تنهّد حسام بألم، ثمّ واصل حديثه:

- استهدفوا منذ البداية ضربَ الدذورة الزراعية في مقتل، عملوا بدأب، حتى توقّفت وانتهت، رغم أنّها كانت العمودَ الفقري للزراعة في مصر، تلك التي كانت تنظّم الزراعة من مختلف المحاصيل، فتنسّق ما بين حجم الاحتياج الداخلي والتصدير، فترتبط الزراعة بخطّة الدولة وموازنتها ورؤيتها التي تستهدف المواطن، كانت تساهم بشكلٍ كبير في استعادة عافية الأرض وصلاح التّربة، بزراعة الأرض الواحدة بأكثرَ من محصول مختلفٍ في نفس العام، محصولٌ يأخذ من التّربة، ومحصولٌ يعطيها، فتستعيد التربة خصوبتَها، وتتجدّد بشكلٍ دائم على مدار العام، فالمحاصيل مثلًا ذات الجذور العميقة تمتصّ العناصر الغذائية من الأعماق لتستفيد منها بعد الحصاد مزروعاتٌ ذات جذور سطحيّة، كانت تساعد على بناء التربة، والحفاظ على قوّتها وعافيتها وخواصها التي تحتاجها مختلف المزروعات، كانت تساهم

إلى حدٍّ كبير في مقاومة الكثير من الآفات الزراعيّة والحشرية، والأمراض الفطرية، والحشائش الضارة والأعشاب، دونَ اللجوء لاستخدام المبيدات المُسَرطنة، وأيضًا تساعدُ على تنظيم الري، وتنظيمه يحميها من التّجريف والغسيل، تخيّلا أنّنا كنّا ننتج البذور والغراس من أجود الأنواع في العالم، وبشكل اقتصاديّ جدًّا يغنينا عن الاستيراد، كانت الأرض مهيّأة تمامًا لكلّ تطوّر علمي آمن لزيادة إنتاجية الأرض دون الدخول في هذه الدوائر الخبيثة، الدورة الزراعية- على بساطةِ التعبير عنها- كانت تدور خلفها مئات المصانع، يعمل بها آلاف العمّال، صناعات كثيرة، وإنتاج حيواني وافر.

تنهّد حسام بأسى كبير وهو يواصل:

- كان لديّ مشروعٌ كامل ورؤيةٌ طموحة للزراعة تبدأ من تطوير الدورة الزراعية، كانت بالنسبة لي نقطةَ البداية للانطلاق، ومشاريع توسّع زراعي في الصحراء، وإنتاج زراعي بماء البحر، كان سيجعلنا سلّةَ غذاء العالم بلا منازع، العمل الجادّ الحقيقي يجلب استثمارات حقيقيّة وضخمة؛ أمّا خيانة الوطن فلا تجلب إلّا الفسدة واللصوص، ومصاصي الدّماء، أصبحت كلّ القيم الجميلة عندنا مجرّد أغنية وطنية، أو نكتة سخيفة.

كان وليد وعمرو يستمعان بإنصاتٍ واهتمام كبير لحسام، كأنّهما يحثّاه على الاسترسال في أحاديثه التي افتقداها منذ سنواتٍ طويلة، سعيدَيْن مبهورَيْن بالمعلومات العميقة على بساطة عرضها، وحسام يتحدّث بحماس متدفّق:

- أصبحنا بعد ثلاثين عامًا من معاهدة السلام في قاع التّصنيفات الدولية في كلّ المجالات، الفلاح الآن وبعد إغراقه في الديون التي تمتصّ دمه؛ يضطرّ

مجبرًا على الدخول في تلك الدّائرة الخبيثة، تدرون مثلًا أنّ أغلب الطماطم التي نأكلها بالكامل هي من بذورٍ مُنتجة في إسرائيل، وكلّ الأصناف المصرية اختفت تقريبًا، وقسْ على ذلك: الفلفل الأخضر، والخيار، والفراولة، والخوخ، والتفاح، والكنتالوب، وحتى البطيخ، وغيرها من المنتجات الزّراعية؛ وكلّها قنابل موقوتة، هل أحدٌ يتذكّر البطيخ الشيليان؟!

– نعم، من أشهر أنواع البطيخ في مصر وأحْلاها.

– متى آخر مرّة أكلتماه؟

– لم نعدْ نراه منذ فترة طويلة.

– لقد انتهى للأبد، اختفى ولم يعدْ له أثر، تمّ القضاء عليه مثل كثير من المنتجات الزراعية ذات الأصل المصري.

سكت حسام، ولكنّ صدره يعلو ويهبط كأنّه في سباق ماراثون:

– فلا عجب إذًا أن تتحوّل مصر إلى متسوّل كبير يستجدي الصدقات لعلاج الأمراض القاتلة التي انتشرت بغباتنا؟ أمّا عن القمح..

قاطعه وليد بسرعة، قبل أن يسترسل:

– أرجوك كفى يا صديقي، يمكنني أن أحدّثك أنا عن القمح المسرطن، والفساد الذي يزكم الأنوف، والعمولات، والرّشاوى المقنّنة، من الرأس إلى الذيل، لقد أصبحنا مكبًّا لنفايات العالم، لقد تحدّثت الصحف على مدار سنواتٍ عن ذلك، ولكنّ الفساد قد كبرَ واستطال لحدّ التبجّح، فلا الحكومة

حاربت الفساد، ولا الشعب تحرّك حتى من أجل اللقمة المسمومة التي يتناولها، يبدو أنّنا متنا منذ زمن بعيد، وشبعنا موتًا.

سكتَ الثلاثة، فلم يعدْ شيء يمكن أن يُقال، ولاحظ حسام كمّ الكآبة التي غطّت مجلسهم بسبب حديثِه عن الزراعة، فابتسم لهم، وغيّر مسار الحديث:

- على العموم، لقد قضيت يومًا جميلًا في الأرض، الحاجّ محمود في غيابي، ومع تقدّمه في العمر، ترك الأرض لشركة أجنبية استأجرتها، وقد طلبتُ منه أن ينهي العقدَ معهم، وسوف أتسلّم الأرض منهم لأقوم بزراعتها مرّة أخرى.

- جميلٌ ما فعلت، وأظنّها فرصة طيبة لاستعادة ذاتك.

دمعتْ عينا حسام:

- لقد تعذّب أبي كثيرًا، لو رأيتها فرحتَه التي كانت تعلو وجهه في اليومين الماضيين، كنت أشعرُ أنّني وأمّي وأبي نُبعَثُ من جديد.

سكت هنيهة ثمّ قال:

- ما قلته ربّما يدعو لليأس، ولكنّني أشعر أننا لم نعدْ شعبًا، مجرّدَ قطيع، يسير هائمًا بلا صاحب، تتنازعه وحوش مفترسة، شعبٌ تغيّر نمط استهلاكه، وتبدّلت أولوياته، مقصود إفقاره، وإذلاله، وتغييب عقله ووعيه، يتصارع طول الوقت للحصول على لقمةِ عيشه، ويصارع أمراضًا تحاصره، وتحيط به من كلّ جانب، هل هذه هي مصر أمّ الدنيا، وخزائن الأرض؟ هل هناك أملٌ في أن نتحرّر من الفساد وتستعيد مصر مكانتَها مرّة أخرى؟

وليد بحماس:

– بالطبع، يمكن أن يحدث ذلك إذا قامت ثورةٌ شعبية، تقضي على كلّ شيء فاسدٍ في البلد.

– قيام ثورةٍ شعبية في العالم الثالث له مخاطرُ كثيرة، لا بدّ من أن يسبقها حالةٌ من الوعي، وإلّا ستتحوّل إلى مأساة.

نظر وليد لعمرو:

– سنظلّ إذًا محلّك سرْ، لن نتقدّم خطوةً واحدة، ونحن نتحسّسُ طريقنا بكلّ هذا التردّد والتّنظير الفارغ، السماوات فُتِحت على آخرها، وحالة الوعي التي تتحدّث عنها زادت عند النّاس بشكل رهيب، بقي فقط شرارةٌ صغيرة، لتقوم ثورة.

حسام:

– وهل ستتركنا الدّول الكبرى وشركاتُها العابرة للقارات، التي تتحكّم في اقتصاد العالم؛ أنْ نتحرّر منها ونبدأ؟!!

– ستتركنا في حالةٍ واحدة.

– أيّ حالة!!؟

قال عمرو قبل أن يردّ وليد:

– نعم إذا قامت ثورة، هذه حقيقة لا يمكن أن نجادلَ فيها، المشكلة فقط، أنّ الثورة كائنٌ أعمى، وأعداؤك مبصرين جدًّا، أعداؤنا الحقيقيون ليسوا مَن

في الداخل، هؤلاء مجرّد أذناب لدائرة عالمية جهنميّة، هذه الدائرة تعمل من خلال مراكز بحثيّة تدرس كلَّ شيءٍ بعناية، ويمكن أن تتحوّل الثورة لمأساةٍ مثل الأعمى القوى الذي يصارع مبصرًا أقلّ منه في القوّة، إنّها معركة عقولٍ وعلم.

عاد وليد ليؤكّد بقوة:

- هذا كلامٌ حقيقي، ولكنْ يجب أن يشعل ذلك الفتيلَ الناسُ، الشعبُ.. أنت تحتاج لحاضنة شعبيّة كبيرة وقوية ومؤثرة.

حسام:

- لا أظنّ مِن وجهة نظري أنّ الثورة الشعبية هي الحلّ، خاصّة في مصر، تاريخ الثورات في العالم، وفي الدول الفقيرة بالذات، يقول إنّ المخلصين عادةً هُم مَن يقومون بالثورة، ويملكون القدرة على التّضحية حتى الفداءِ بالأرواح، وعندما تنجح يقفز عليها الثعالب، لتعودَ واجهة الفساد والمصالح لتتصدّر المشهدَ مرّة أخرى ولكن بعد تدوير وجهِه، ليبدو في صورةِ المخلصين الحريصين على الوطن، حتى يتمكّنوا مرّة أخرى فيصيروا أكثر شراسةً، في وأدِ معارضيهم، والعودة للمسار الأول من السيطرة والاحتكار.

وليد:

- نعم، ربّما كان ما تقوله صحيحًا، وحدثَ ذلك بالضبط في الثّورة الفرنسية، لدرجة أنها استغرقتْ ما يقرب من عشْرِ سنوات لاستعادة الثورة مرّة أخرى، ولكن هذه التجارب لا تعني أنّه يمكن الاستفادة منها، وتجاوز أخطائها.

ردّ حسام:

- لا أظنّ أنّ المعارضة عندنا لديها القدرةُ على تثوير الناس فهي مجرّد معارضة كرتونية حنجوريّة، يمكنها فقط تصدّر المشهد في التّلفاز، وعلى صفحات الجرائد.

وليد:

- لا تكنْ متشائمًا هكذا، هناك قطاعاتٌ من الشباب المعارض للنظام على درجة عالية من الوعْي، ولديهم اندفاعٌ قويّ للتغيير، لو توفّر المناخ لذلك.

عمرو:

- نعم ألاحظ ذلك من خلال شبكات التواصل الاجتماعي، وقد قاموا بفعلٍ جميل جدًّا، وهو إنشاء ما يسمّى بالبرلمان الموازي ردًّا على تزوير انتخاباتٍ مجلس الشعب الأخيرة بالكامل؛ لإعلان شرعيّة الشعب الحقيقية، ويمكن لهذا البرلمان الموازي أن يتحرك في اتّجاهات دوليّة ومحلية كثيرة متعدّدة، خاصّة وأنّه قد اكتسب غطاءًا شعبيًّا لا بأس به، خاصّة بعد أنْ قال مبارك في افتتاح الدّورة البرلمانية، (خلّيهم يتسلّوا) إلّا أنّ الشباب لم ييأسوا، واعتبروا هذا التّصريح يؤهّل لمناخ أكثر قوّة لتفجير ثورة شعبية.

حسام مبتسمًا باستهزاء:

- تدرون.. النظمُ الاستبدادية تمتلك مخزونًا من الغباء لا نهاية له، وفيما يظنون بأفعالهم الغبيّة أنّهم يحافظون على دولتهم؛ يأتي انْهيارهم مِن تلك الأفعال.

سكتوا، ومازالت الأسئلة معلّقة بلا إجابة، حتى قطع وليد الصمت:

- دعونا من هذا الآن، وقلْ لنا.. ما هي خطوتك القادمة؟

- سأتقدّم لعزّة للزّواج منها.

- رتّبت لهذا الأمر بشكلٍ جيد؟

- لا، لم أرتّب لشيء، بنفس التلقائية التي اقتحمت بها حياتي سأفاجئها، وأعلم أن ذلك سيعجبُها منّي.

- ومريم، هل تحدّثت معها؟

- لّمحت لها، وكان ردّ فعلها صعبًا، ولكنّ جدّها قال إنّه سيكلّمها، بصراحة لن أفكّر في أيّ مشكلات قبل التقدّم للزّواج، وإلّا سأقف من جديد وأنا لا أريد ذلك.

- ماذا سترتدي؟

- لا أعرف، ولا مشكلة، سأرتدي أي شيء.

- ستفضحنا إذًا.

ضحكوا ثلاثتهم، ثمّ قال عمرو:

- هيّا نذهب إلى وسط البلد أعرفُ محلًّا منتجاتُه رائعة وأسعارُه منخفضة، لا يليق أن تذهب في أوّل زيارة دون استعدادٍ لائقٍ بالحدث الكبير.

حاول حسام التمنّع، ولكنْ أمام إصرارهما استجاب لهما.

قبل الزيارة بيوم

تلقّت عزّة إشارةً من هاتفِها بوصول رسالة، الهاتفُ تقريبًا كان في حالةِ غيبوبةٍ منذ أسبوع، ولكنّها كانت تدرك أنّه سيحيا برسالةٍ أو اتّصال، لم تشأ- بعد مكالمتها الأخيرة لحسام- أن تتواصل معه ثانية، ألقت بكرةِ النّار في حجره، وعليه أن يطفئها، مرّت الأيام بطيئة، ولكنّها كانت مُصرّة على أنْ تكون الخطوة القادمة منْه لا منها.

أسرعتْ لهاتفها، وفتحت رسالتَه بيدٍ مرتعشة وروحٍ ملهوفة، فوجئت بكلمةٍ واحدة منه:

- تنتظريني؟

- كُلَّ طرفةِ عين.

هكذا جاء سؤاله، وهكذا مضتْ إجابتها، تلقائيّة وعفوية، ودون تفكير، وعادا إلى الصمت، حتى دقّ جرس بيتها في اليوم التالي.

فاطمة

جلسَ حسامُ في غرفةِ الاستقبالِ، واسعة رحيبة، ونظيفة، كأنّها على وعدٍ باستقباله.

طارَ خبرُ وجود حسام في اتّجاهين؛ أسامة ذهب لجدّته يخبرها أنّ هناك ضيفًا يريد مقابلتها، فتعجّبت واندهشت من ضيفٍ غريب يأتي للبيت بلا موعد، وخفقَ قلبُها حين ذهب تفكيرها إلى عزّة مباشرة؛ وسلوى أسرعت

إلى أمّها لتخبرها أنّها رأت أخاها يستقبل ضيفًا، ويجلسه في غرفة الاستقبال، وعندما سألته، قال: رجلٌ اسمهُ حسام طلب مقابلةَ جدّتها، اصفرّ وجه عزّة، وخفق قلبُها بسرعة من شدّة المفاجأة، حتى لاحظت سلوى، استدارت ودخلت غرفتها بسرعة، لم تظنّ أبدًا أنّ حسام بهذه القوّة لأن يقتحمَ بيتها دون حتى أن يرتّب معها، أغلقت الباب وظلّت مستندة عليه وقد اختلطت السّعادة والخوف بداخلها، وتصارعَا عليها.

دخلتْ فاطمة بوجهٍ مختلِط المعاني، متجهّم، متحفّز، متردّد، لا تستطيع أن تحدّد.

وقف حسام لاستقبالها، وعلى وجهِه ابتسامةٌ خفيفة، جلست فاطمة على طرف الكرسي بعد أن رحّبت به بوجهٍ جادّ، ثمّ دخل أسامة وجلس مجاورًا جدّته، فيما تسلّلت سلوى خلف باب الغرفة لتتسمّع الأخبار.

دخل حسام في الموضوع بعد مقدّمةٍ قصيرة معتادة في مثل هذه المواقف، فقال:

- أودّ أن أطلب يدَ الأستاذة عزّة للزّواج.

تدارك حسام أنّه لم يعرّفها بنفسه بشكلٍ أوضح، وطلب يدَ عزّة من استعجاله وتوتّره، فابتسم ابتسامةً باهتة واستغلّ الصمت الذي خيّم على المجلس؛ فسارع بتعريفهم بنفسه:

- حسام محمود عبد اللطيف، مهندس زراعي، عمري خمس وخمسون عامًا، أرمل ولديّ بنتٌ وحيدة اسمها مريم، في الثانوية العامة، أسكن في بيت أملكُه، وأنا ولدٌ وحيد لأبي وأمّي، ولدينا أرضٌ زراعية كبيرة.

ثمّ صمت، كأنّه يتذكّر شيئًا ما فاته في التّعريف، ولكنّ عقله توقّف عن الاسترسال، فنظر إلى فاطمة، والتقتْ عيونهما في نظرةٍ غريبة، كانت تتطلّع إليه بتجهّم شديد، وكانت نظرته تختلط فيها المعاني حتى صارت بلا معنى.

بعد صمتِ دقائق، قُدّمت فيها التّحية لحسام، قالت فاطمة بصوتٍ صخري:

- مِن أين عرفت عزّة يا أستاذ حسام؟

لم يتوقّع هذا السؤال ليعدّ له إجابة، فردّ بتلقائيّة:

- كانتْ لدَى مريم مشكلة في مدرستها، وجاءني خطاب استدعاء، فذهبت لمراجعة المشكلة، والتقيتُ بها.

ثمّ سكت، فحثّته فاطمة على الاسترسال بعينيها الصّلبتين، تناول رشفةً من العصير، ليبلّل حلقه الذي جفّ:

- الحقيقة، أعجبتُ بأخلاقها وأدبها، وسألت عليها، وعرفتُ ظروفها، فقرّرت أن أتقدّم للزّواج منها.

- ولم تلتقيا، أو تتحدّثا معًا؟!!

جفّ حلقه تمامًا، تنحنح، ومع ذلك خرج صوتُه متحشرجًا:

- نعم، التقينا عدّة مرّات، في أماكن عامة، و...

- غريب أنّ رجلًا في مثل سنّك يواعدُ أرملة غنية تصغرُه بأكثر من خمسة عشر عامًا، ولها أولاد ليوقعَها في حبّه ليضحك عليها، ثمّ يأتي لدارها، متصوّرًا أنه سيأخذها هكذا ببساطة.

كان آخر ما يتوقّعه أن تعلن فاطمة عليه الحربَ من أوّل لقاء، وبهذه الفظاظة، ربّما كان أسوأ توقّعاته أن ترفضه، لا أنْ تهينه في بيتها هكذا، وأمام أسامة لتستميله في صفّها، غير أنّه تمالك نفسَه أمام ردّ فعلها، فقال:

– أنا رجلٌ كبير في السنّ، ولي مقام اجتماعي لا يليقُ معه أن يتحدّث إليّ أحدٌ هكذا، وقد جئتُكم من باب الدّار لأخطب عزّة، لا أرى أنّ هناك داعٍ لكلّ هذه الأسئلة، ولا هذه الطّريقة في مقابلتي أو التحدّث بها معي، التي تحمل اتّهامات مبطنة لا تليق بي ولا بابنتك، أنا في النهاية ضيفٌ يجلس في بيتكم، وللضيافة أصولٌ أظنّها لا تخفى عليك، يمكنكم أن تسألوا عنّي، سأترك لكُم العنوان، وأرجو أن تفكّروا في الأمر بشكلٍ عملي، وتردّوا عليّ.

ثمّ بنبرة متوتّرة تعلن تحدّيه لكلمات فاطمة:

– على أنّني في جميع الأحوال سأتزوّج عزّة.

ثمّ وقف واستأذن في الانصراف، ظلّت فاطمة جالسة دون أن تنبس بكلمة، فيما وقف أسامة، ليفسحَ له الطريق للخروج.

خيّم بعدها صمتٌ كئيب على البيت، جلس كلّ منهم منعزلًا عن الآخر ليفكّر في تلك الصخرة التي سقطتْ فجأة وبعنف من أعلى قمّة جبل حياتهم السّاكن الرتيب إلى المياه الراكدة التي تحيط بهم، لينال كلّ واحدٍ منهم نصيبه من قوّة الاصطدام.

أسرعتْ فاطمة إلى حجرتها، وأغلقتِ الباب خلفها بقوّة ليصدر صوتًا هادرًا في البيت فينتفض الجميع في محاولةٍ للبحث في أعماقها عن السببِ في

ردّ فعلها تجاه حسام، قامت بتلقائيّة دفاعية لتبرّر لنفسها كلّ ذلك؛ إلى خزانة ملابسها فتمدّ يدها إلى مكانٍ تعرفه جيدًا لتخرج حزمةَ أوراق، موضوعة بعناية، كانت خطابات إبراهيم، والتي كسرت بها عزّة كلّ أملٍ لها في الحياة، لماذا لم تستطعْ أن تسامحها حتّى الآن؟ سؤال لم تستطع الإجابَة عليه برغم أمومتها ومحبّتها وعطفها عليها، إلّا أنّ الأنثى بداخلها تكره عزّة وجبروتَها، وتشعر أنّ بداخلها ثأرًا يجب أن تأخذه، وقد جاءَ لها على طبقٍ من ذهب، نفسُ الموقف يُعاد من الماضي، ولديْها مبرراتها.

أغلقتِ الخطابات وخبّأتها ثمّ عادت، وجلستْ على كرسي التّسريحة، تتصارع بداخلها مشاعر غريبة، نظرت إلى وجهِها في المرآة، آخر مرّة نظرت بتمعّنٍ إلى وجهها ليلةَ أن تلقّت خطاب إبراهيم الذي يطلبها للزّواج، كم كانت جميلة، مليحة، أرضًا عطشى للمْسَة رجل، دفء رجل، حضن رجل يحتويها، كانت في أوْج أنوثتها وطغيانِ رغبتها، لم يكن رجلٌ يناسبها آنذاك أكثر من إبراهيم، ربّما لم تحبّه مثلما أحبّت "حسن"، ولكن لكلّ مرحلة عمرية مذاقُها الخاصّ في الاحتياج العاطفي، طعنتْها عزّة بجبروت طفولتِها التي لا تدرك خطورة ما تفعله.

تطلّعت فاطمة للمرآة، تحاول أنْ تستحضر ملاحتَها القديمة، ولكنْ هيهات، تتحسّس وجنتيها، كم ذابتْ نعومتها في ألم السّنين، انهدل حاجباها، وانطفأ بريقُ عينيها، جذبت خمارَها، فلم يبدُ في المَرآةِ غير حفنةٍ من الشعر الأبيض المختلط ببقايا الأسود، احترق العمر في غربة الوحدة، لم يبقَ لها إلّا الرماد، لا رغبة، ولا حنين، ولا اشتياق، فقط نارٌ خامدة تحتَ الرماد، استعرتِ اليوم، تريد أنْ تطفئها بعنادها مع عزّة.

انفردَ أسامة في حجرته، وهو غير مصدّق للمشهد الذي حدثَ أمامه بالكامل، أمّي؟ يتقدّم لها رجلٌ للزّواج منها؟ ماذا يعني أن تتزوّج أمّي؟ أن يختلي بها رجل، وتصير ملكه، و.. أوقف عقله عن التّفكير، فلا يريد أن يتخيّل هذا المشهد أبدًا، أين سيسكنان؟ هنا؟ أمامنا؟ غرقَ أسامة في دائرة من الحيرة محكَمة، لا تريد أن تتوقّف، لماذا الآن؟ وفي هذه السنّ، تأجّجت النار في صدره، ولكن ماذا سيفعل!! جلس حائرًا مكتوفَ الأيدي والتفكير.

سلوى أسرعت لأمّها:

- أمّي، هل تعرفين حسام هذا الذي جاء ليخطبك للزّواج؟!

- نعمْ يا سلوى، أعرفه.

- وهل أنت موافقة على هذا الزّواج؟

سكتتْ عزّة وخفضت رأسَها، وقد بدأت تشعرُ من أوّل جولة أنّ الموجة ستكون أكبرَ من كلّ توقّعاتها، لم تنتبه لسلوى وأسامة، فكّرت فقط في عقبة أمّها.

- وهل ستتركينني؟

ضمّتها إلى صدرها:

- لا يا حبيبتي، مَن قال ذلك؟

كان عقلُها يفكّر في أسامة، فسألت سلوى:

- أينَ أسامة؟

- بعد أن ذهب الضّيف، ذهب مباشرة إلى حجرته، وأغلق الباب عليه.

تضمّ سلوى برفق، فيما يدور عقلُها في أعْلى درجات السّرعة، تشعر أنّ حسام ألقى بكرة النار مرّة أخرى لحجرها، لا تدري هل أخطأ، أمْ أصاب فيما فعله الليلة! توقيت زيارته، تحدّيه لأمّها في ردّ فعله على كلامها، هل كان يجب عليه أن يرتّب معها الأمور قبل دخول البيت؟ على كُلّ، انفجرَ الوضع الذي كان سينفجر إنْ عاجلًا أو آجلًا لمجرّد التفكير في زواجها، لم تنسَ عزّة تحذيرات أمّها المتواصلة والدّؤوبة لها من الرجال، على مدار العشر سنوات منذ رحيل هاشم، وإحاطتها بحصار كسورِ السّجن العالي، وكيف كانت تغضبُ حين يتقدّم أحدٌ طالبًا الزواج منها، غضبٌ غيرُ مبرّر، فطبيعي أن يتقدّم أحدٌ للزّواج، وطبيعي أن يُقبل أو يُرفض، ولكن فاطمة كانت تعطي للطلب بُعدًا أعمقَ وأوسع، عليها وعلى الأولاد، كانت تشعرهم أنّ مجرّد الاقتراب من عزّة جريمةٌ كبرى وانتهاكٌ لحُرمتها، حتى ألقيَ في روْع أسامة وسلوى أنّ أمّهم امرأة مختلفة، لا يجري عليها ما يجري على النساء، برغم أنّ عزّة لم يكنْ لها رغبة في مسألة الزواج، أو تفكّر فيها حتى ظهر حسام فتغير كلّ شيء حولها، وسقطت الأسوار، لتجد عزّة نفسَها في مواجهة نفسِها القديمة القوية المتوثّبة دائمًا، أو على وجه الحقيقة في مواجهة أمّها، ويبدو أيضًا أنها ستكون في مواجهة أسامة وسلوى.

حفظتْ عزّة وأولادُها تقريبًا كلّ كلامها الذي تقوله عن الرجال، وطمعهم في أموالها وشبابها، وأنّها قد أخذت حظّها من الزّواج، وأنّ أسامة وسلوى أوْلى بالرعاية والاهتمام، ولا تنسى دائمًا تذْكيرها بأنّها أخذت نفسَ

نصيبيها، وأنّها عاشت لتربيتهم، والاهتمام بهم، وأنّها ضحّت بجمالها وشبابِها من أجلهم، وأنّ الأرملة التي تتزوّج- في نظر الناس- امرأةٌ أنانية تبحث فقط عن احتياجاتها.

ظلّ عقل عزّة يدور ويعودُ من حيث ما بدأ، ما بين لوْم حسام على مفاجأته غير المتوقّعة، وما بين سعادتِها بكسر حواجزِه النفسيّة، الآن الخطوةُ التالية عندها؛ فانصرافُ حسام بهذا الشكل يعني أنّه لن يعود حتى يأتي الردّ من أمّها، ويمكن لأمّها أن تقتل الموضوع برُمّته.

أخذت سلوى من يدِها، ونادت على أسامة، الذي استجاب فورًا لندائها، ثمّ ذهبت إلى غرفة أمّها.

تناولت عزّة زمامَ المبادرة، لتكسرَ الصّمت المطبق عليهم، توجّهت بالحديث لأمّها:

- أمّي.

رفعت فاطمةُ وجهَها الخالي من أيّ تعبير، فأكملت:

- أظنّه ليس من اللائق أبدًا أنْ نستقبل الضيوف في بيتنا بهذه الطريقة.

استعرتْ جمّرة النار في قلبِ فاطمة بعد أن كادتْ تهدأ قبل دخولهم عليها:

- أولًا، لا يليق بضيفٍ غريب أن يطرقَ بابَ البيتِ دون سابق موعد، فضلًا عن أنّه رجل، ثانيًا.. واضح أنّكما رتّبتما معًا كلّ شيء قبل مجيئه..

وقبل أن تكمل فاطمة إطلاقَ قذائفها، قاطعتها عزّة:

- أرجوك لا تفعلي ذلك أمام الأولاد.

- لا تعلّميني متى أتكلّم ومتى أسكت، وفي حضور مَن! يجبُ أن تعلّمي أنّك ارتكبت خطأً كبيرًا وغير مُغتفر، أنت وذلك الرجل الذي جاء منذ قليل..

قاطعتها مرّة ثانية برجاء:

- أمّي، لا تذبحيني هكذا.

أسامة يقف متجمدًا في صمتٍ مذهول حائر، وسلوى بدأت في البكاء وقد التصقت بعزّة ترتعش من الخوف، وفيما كانت فاطمة تواصل موجتَها الغاضبة، انتبهت عزّة لابنتها فضمّتها، وأخذت تربتُ عليها بحنان لتطمئنَها، ثمّ لم تجدْ بدًّا مع ازدياد بكائها إلّا أن تسحبها خارج الغرفة.

تأزّم الموقف أكثر، واشتعلتْ نيرانُ الماضي في قلب فاطمة، فلحقت بالدّار كلّه.

في القاهرة

لم يستطعْ حسام الصّبر لليوم التالي فطَارَ إلى القاهرة، وفي الحسين، جلس الثلاثة وقد خيّم عليهم صمتٌ كئيب، بعد أنْ حكى لهم كلّ تفاصيل الزّيارة، حتى قطعه عمرو:

- بالتّأكيد أخطأت في طريقةِ الزّيارة من أوّلها لآخرها، لقد ناولتْ بسهولة لأمّها الخنجر الذي ستقتل الحكاية كلّها به، ثمّ تركتها وانصرفت.

وقبل أن يردّ حسام، أخذ وليد طرف الحديث:

- لا أظنّ أنَّ لوم حسام على كلّ ما حدث سيكون مجديًا الآن، دعونا نفكّر في الخطوة التالية، وبسرعة ونأخذ زمامَ المبادرة قبل أن تنهي هي الموضوع.

عادوا للصّمت، حتى قال عمرو:

- لقد غفلنا شخصًا مهمًّافي الحكاية كلّها، وله تأثير واضح على الجميع وإن لم يبدُ ظاهرًا في الصّورة، وهذا ما فهمته من حكايات عزّة معك.

ردّ وليد بسرعة:

- الخال رأفت.

عمرو:

- نعم هو، كيف فاتنا ذلك؟! كان يجب أن تكون البداية عنده أولًا، عليك مقابلته في أسرع وقت، أظنّه سيكون متفهّمًا للأمر أكثر، ويمكنه التأثير على أخته.

حسام:

- فعلًا، صدقتما، كيف فاتنا ذلك؟! إنّه مركزُ ثقل في العائلة هامّ جدًّا، ولكنّني لا أعرف كيف أصلُ إليه، وليس لديّ رقم هاتفٍ له.

- هذه سهلة.

عاد الصمتُ مرةً أخرى يُخيم على المجلس، حتى قطعه أصواتٌ عالية مجاورة لهم، كان الكثير من النّاس يقفون متحلّقين حول التلفاز، يتابعون أخبارًا جذبت انتباههم بشدّة، فقام الثلاثة وانضمّوا إليهم، كانت النشرة تتحدّث عن اضطرابات ومظاهرات شعبية واسعة في تونس، انطلقت شرارتُها من بلدةٍ صغيرة، وسرعان ما انتشرت في أرجاء البلاد، كانت الصورُ متوالية لحشود ضخمةٍ من الناس، وتصدّي الشّرطة لها بخراطيم المياه، طلقات الرّصاص المطاطي، ورغم ذلك كانت موجاتُ الغضب تزداد. نظر الثلاثة لبعضهم في اندهاشٍ كبير، وعادوا للجلوس مرّة أخرى، فقال وليد:

- هل سمع أحدٌ هذه الأخبار قبلًا؟

عمرو:

- عرفت أمس أنّ شابًّا تونسيًّا يسمّى بوعزيزي انتحر بسبب تلقّيه صفعة من ضابطة بالشّرطة في السوق وأمام الناس، ولكنّي لم أتوقّع أن يكون ردّ فعل الناس قويًّا هكذا في بلد مثل تونس محكومٌ بالحديد والنار منذ ما يقارب الأربعين سنة.

وليد:

- لو استمرّ الناس في الصمود لأيّامٍ قليلة، ستتراجع الشرطة أمامهم.

حسام:

- سيستدعي ابن علي الجيشَ، وهو أكثر قوّةً وفتكًا من الشرطة.

وليد:

- ولا قوّة في العالم تقف أمام غضب الشعوب، إنّها مثل الطوفان.

كان عمرو صامتًا متأملًا، فقال وليد ساخرًا:

- يجبُ عليهم أنْ يوقفوا المظاهرات حتى تزدادَ نسبة الوعي، أليس كذلك ياعمرو؟

ابتسم حسام، أمّا عمرو فقال:

- مَن قال لك إنّني أفكّر في ذلك؟ أنا أتساءل في نفسي، هل مُمكن أن يتكرّر ذلك الحدث عندنا!!؟ هل يمكن أن تتمدّد تلك الشرارة من تونس لمصر؟

وليد بحماس:

- كلّ الظروف عندنا أصبحت مهيّأة للتغيير.

حسام:

- نعمْ كلّ الظروف أصبحت مهيّأة للتغيير، ولكن لا أحد يستطيع أن يتنبأ إنْ كانت للأحسن، أمْ للأسوأ.

الخال رأفت

لم يتوقّع رأفت أن تكون هذه الليلة طويلةً إلى هذا الحدّ، فقد تلقّى اتّصالين متتاليين من فاطمة وعزّة، المرأتان لجأتا إليه، وعليه أن يتدبّر أمره في هذا التناقض والحيرة اللذيْن سيْطرا عليه بعد مكالمتهما.

فكّر في أن يذهب إليهما مباشرة، ولكنّه آثر أن يبقى للغد، ويترك لنفسِه فرصةً للتفكير في حلّ تلك المعْضلة، لاسيّما وأنّه يعرف طبيعة المرأتين، وقد أطلّ الماضي المؤلم بينهما، بعد أن ظنّ أنّ مياه الحياة بينهما قد استقرّت، ولكن الغد عاجَلَه بمفاجأةٍ أخرى، حين اتّصل عليه حسام وطلب مقابلتَه على وجْه السّرعة.

اضطرّ حسام للمبيت في القاهرة فقد تأخّر الوقت، ولم يتركه صديقاه يجازف بالعودة في الليل وقد بدا عليه الإرهاق واضحًا.

لم يستطعِ النّوم، حاول مرارًا وتكرارًا الاتّصال بعزّة، ولكنّها لم تكنْ في حالةٍ تسمح لها بالرّد، فهي لا تعرف إنْ كانت غاضبةً منْه، أمْ من أمّها، أم مِن الظروف التي لا تسمح لها أن تعيش كما تريد، حاول عدّة مرّات أخرى، ولكنّها لم تستجب، كتب لها رسالة طالبها بالرّد، ولكنّها لم تردّ كذلك، زاد ذلك من قلقِه ولوْمِه لنفسه، ثمّ طلب منها رقمَ تليفون خالها رأفت، شعرت بالرّاحة قليلًا عند قراءتها اسمَ خالها، وتوسّمت أن يأتي الفرج من خلاله، بل واستحسنتْ تفكير حسام في اللّجوء إليه، هذه المرّة استجابتْ وأرسلت له رقمَ هاتفه فقط، دون كلمة.

عرف حسام أنّ عزّة في مأزق، وبالتأكيد هو مَن وضعها فيه، ويجب عليه أن يسرع في إنقاذ الموقف بأيّ ثمن.

كان نومه متقطعًا، ولم ينمْ إلّا بعد صلاة الفجر، فقد هزمه الإرهاق وسلطان النوم، فنام ساعتين تقريبًا، ثمّ قام وأخذ طريقَ العودة، منتظرًا أن يصعد النّهار أكثر، حتى يكون الوقت ملائمًا للاتّصال بخالها.

قبل الظهر بقليل، اتّصل برأفت وعرّفَه بنفسه، ثمّ طلب مقابلته بإصرار، لم يستطعْ رأفت تأجيل الموعْد قليلًا حتى يقابل فاطمة وعزّة.

في منزل رأفت، كان حسام متوتّرًا، لا يعرف مِن أين يبدأ، وجلس رأفت بهدوء بادٍ، رغم أنّ العاصفة قد هبّت، ولكن سِنّه والأمراض التي تكالبت عليه تجبره أن يتعامل مع الموقف بهدوء.

لم يتحدّث حسام كثيرًا، ولكنّه أوجز الحكاية ليطلب من رأفت مساعدته في إقناع الحاجة فاطمة بالموافقة على الزواج.

أطرقَ رأفت رأسه، وقد تدافعت الذّكريات الأليمة، والتي ظنّ أنّها ماتت منذ سنوات طويلة، ولكنّه لم يدرِ أنّها ستعود بنفس قوتها وعنفوانها.

كان في الماضي أكثر شبابًا وقوّة لتحمّل ذلك، ولكنّه الآن شبهُ قعيدٍ لا يخرج من البيت إلّا للصلاة، وزوجتُه وأولاده يقومون على خدمته وقضاء حوائجه، عرف الآنَ سرّ الاتصالات الليلية من عزّة وفاطمة.

نظر طويلًا لحسام وقال:

- ليس الأمرُ بهذه السّهولة يا أستاذ حسام.

- أعرف يا حاجّ رأفت، ولذلك لجأت إليك.

- الجميع لجأ إليّ؛ عزّة وأمّها وأنت.

- أرجوك يا حاجّ رأفت...

وقبل أن يكمل حسام كلامَه، فوجئا بعزّة بينهما؛ فقد أتت تسبق أمّها إلى خالها، تبادلا نظرات متفاجئة، غمرها توتّر حائر، ودّت معه لو عادت طفلةً صغيرة وحملها خالُها على كتفه، بعيدًا هناك كما كان يفعل معها.

ظلَّوا في صمتٍ لبرهة حتى دعاها رأفت للجلوس، ثمّ قال:

- أرجوكما أن تنتبها للموقفِ العصيب الذي تعيشه أمّك، وسوف نحاول حلّ هذه المسألة ولكنْ بهدوء حتى لا تزيد عنادًا.

ردّت عزّة وقد فقدت السّيطرة على يديها، فبدأت ترتعش وتتعرّق:

- أعرف أمّي، لن تتراجع بسهولة، ولن تستسلم كما نتصوّر، وهي حتى الآن لم تستطع تجاوزَ المَرارات القديمة، لقد حاصرتني عمري كلّه، واستسلمت لها فلم يكنْ لي غيرها، لعلّها تتجاوز وتسامحني، ولكنْ يبدو أنّني كنت واهمة.

لاحظ حسام توتّرها، فقال لها مشفقًا:

- أرجوك يا عزّة اهدئي، وسوف نحلّ المشكلة.

رأفت:

- لا يطفئ النار يا ابنتي نارٌ مثلها، بل تزيدُها اشتعالًا وحريقًا، أرجوك تمالكي نفسك.

قالتْ ومازال انفعالُها لا تستطيع السيطرةَ عليه:

- كنتُ طفلة يا خالي عندما أخطأت، لا يمكن لأمّ أن تظلّ تحمل كلّ هذا الغلّ من فعْل طفلة!!

- لا تستهيني بما حدث لها، ولم تكوني طفلة بالمعنى المفهوم، كنت سابقة سنّك، نضجًا وعقلًا، وقادرة على استيعاب أشياءٍ كثيرة حولك، أنت الآن في نفس موقفها، اعْذريها يا ابنتي.

- لا يا خالي، لن أعذرَها، كنت طفلة لا تعي الكثير من معاني الحياة كما تتصوّرون، أمّا هي فأمّ، وتفهم الحياة وتدرك أبعادَ احتياجاتي.

- لن تفيدَ هذه الثورة في شيء سوى مزيدٍ من الجراح.

تدخّل حسام مشفقًا على عزّة:

- نحن الآنَ نبحث عن حلّ، ولا نصفّي مراراتٍ قديمة، وليس من الحكمة أن نبدأ من منطقة الماضي، أرجوك استمعي لكلام خالك بهدوء.

التفتت إليه غاضبة:

- أعرفُ أمّي، لن تتراجع مهْما فعلنا..

فوجئت عزّة بصوت أمّها خلفها، وبصوتٍ عال:

- نعمْ ياعزّة لن أتراجع، أنت تعرفيني كما أعرفُك، ولن تتزوّجي هذا الرجل ولا أيّ رجل، ستعيشين لتربية أولادك وحتى أحفادك كما فعلتُ أنا.

مثّلَ دخول فاطمة المفاجئ صاعقةً لهم، وتكهرب الجوّ أكثر، حاولت زوجة رأفت تهدئتها، أو أخذَها خارج الغرفة، ولكنّها جلستْ بإصرار لتكمل كلامَها وهي تنظر إلى حسام:

- لا أدري، كيف لرجلٍ في مثل سنّك يفكّر في أرملة لديها مسئوليّات وأولاد يحتاجون إلى رعاية!

- ابنتُك لم تجرم يا حاجّة فاطمة حين تفكّر في الزواج، ثمّ مَن قال إنّها ستترك أولادها وتتخلّى عنهم؟! الأمر فقط سيحتاج لترتيبٍ حتى توفي واجباتها.

أطلقتْ فاطمة مدفعيّتها الثقيلة، في محاولة لإهانةِ حسام إهانةً بالغة:

- رتّبتما كلّ شيء إذًا في الخفاء، والله أعلم ماذا حدث في الخفاء أيضًا.

وقفَ حسام وقد بدا عليه الغضبُ والعداء لهذه المرأة، وقبل أن يردّ؛ صرخ فيها رأفت:

- فاطمة، الزمي حدّك، هذا الضيف في بيتي، ولا يليقُ أن ترفعي صوتك هكذا، فضلًا عن سوءِ الأدب الذي تتكلّمين به، إذا كنت لا تستطيعين احترامَ وجودي واحترام ضيوفي فالزَمِي بيتَك، ولا تأتيني هنا.

انكسرت فاطمة لغضب أخيها فسكتتْ مُرغمة، بينما استأذن حسام في الانْصراف.

ظلّت عزّة صامتة، قابضةً على جمرة النار التي تتلوّى في فمها، احترامًا لحضرة خالها، وعقلها يموجُ بالأفكار والهواجس.

أسامة

وفي البيت، كان التوتّر العام هو سيّد الموقف، سلوى ملتصقة بأمّها، تعتقد أنها ستبتعدُ عنها لو تزوّجت، فتحتَمي بهذا القرب، فتضمّها وتقبّلها كلّما حانت الفرصة.

عزّة تشعر أنّها مكتوفة الأيدي أمام تحصينات أمّها التي فرضتها على البيت، وعليها أن تبادر بفعْل شيء تجاه هذا الأمر.

نامتْ سلوى، فتركتها متوجّهة لغرفة أسامة، الذي كان جالسًا أمام حاسوبه، جلست بجواره وتطلّعت إلى الشاشة في محاولةٍ لكسر حاجز التوتّر السائد، والالتفاف حول حديثٍ ما لتنظر لعينيه:

- ماذا تفعل يا أسامة؟

وهو يتحاشى النّظر لأمّه:

- أبدًا، أتابع مظاهراتٍ ضخمة في تونس، امتدّت كالنيران المشتعلة في كلّ أنحاء البلاد.

اقتربت منه ومرّرت يدَها على شعره مبتسمة:

- وماذا ستفعل المظاهرات في بلادنا.

ردّ بحماس:

- ستفعلُ الكثير بالتأكيد، ستغيّر من حالنا، ستجدّد الحياة كلّها بدلًا من التكلّس الذي نعيشه، الثورة تقضي على الفساد الذي يزكم الأنوف، والرّشاوى التي أصبحت لها قوانين تنافس الشّرف، والمحسوبية التي تطلّ ببجاحةٍ في كلّ مؤسسات الدولة، لسنا أقلّ من تونس، والشّعب عندنا قادرٌ على إحداث تغيير جذري.

- أسامة.

- نعم.

- تراني أخطأت؟

سكت وهو يشيح بوجهه..

- أرجوك يا أسامة، أنت ابني البكْر ورجُلي وحبيبي، وسندي في الحياة، ولا أستطيع أن أراكَ مبتعدًا عنّي هكذا، يجب أن نتحدّث معًا.

التفت لها:

- إذا كنت رجلَك وحبيبك وسندَك في الحياة، كما تقولين، لماذا تأتين برجلٍ آخر ليأخذك منّي!؟

- الأمرُ ليس هكذا يا حبيبي، ولن يأخذني منكم أحد.

- ما الذي ينقصك إذًا لتتزوّجي، وقد كبرتِ في السن، ماذا أقول لأصدقائي، كيف أرفع وجهي في وسط الناس حولنا!؟

بالرّغم من قسوة ابنها إلّا أنّ الصبر عليه واجب، ابتلعت مرارةَ كلماته وتجاوزتها بسرعة، فوقوفُ أسامة بجانبها يمكن أن يوقف أمّها:

- الزواج ليس عيبًا يا ابني.

- الزّواج عيبٌ في مثل سنّك، وأنا لا أستطيع أن أتخيّل أن يلمسك رجلٌ آخر غير أبي.

كان أسامة يتكلّم بلسانٍ كالسوط، يستخدمه بتعمّد وغضب، وبرغم القهر الذي أصابها من كلماته إلّا أنّ حبّها له غلبها، فطال صبرُها أكثر لعلّها تستطيع أن تقنعه:

- الزّواج في أيّ سنّ ليس عيبًا يا حبيبي، أنت الآن طالبٌ في الجامعة توشك أن تتخرّج، كبرتَ وخبرت أشياءَ كثيرة في الحياة، كان يجب عليك أن تفكّر في أمّك، ولا تفكّر في نفسك أو أصدقائك، أو المجتمع حولك، وبعد سنواتٍ قليلة ستتزوّج وتستقلّ بحياتك، وسلوى كذلك، ستتركاني أكمِلُ حياتي وحدي، والناس حولنا والمجتمع لا عمل له إلّا أن يلوكَ في سيرة الناس بالحقّ وبالباطل، وسيأتي على سيرتنا شئنا أمْ أبينا، تزوّجت أو لم أتزوّج، ثمّ يذهب لحال سبيله وينسى جريمة القتل التي يقترفها ليبحث عن ضحية أخرى ليتحدّث عنها.

- المجتمعُ حولنا مهمّ مهْما فعل، وأظنّ أننا لن نتركك وحدَك أبدًا، كلّنا حولك، أبناء وأحفاد إنْ شاء الله.

ابتسمت في محاولة لتلطيف الجوّ العام للحديث:

- أشتاقُ لأحفادي منك، هل مازلت مصرًّا على تلك الفتاة التي تريد أن تخطبها؟

- لا، لقد غيّرت رأيي، لن أخطبها.

- مع أنّك كنت تحبّها، ولا يتوقّف لسانك عن الحديث عنها.

سكتَ أسامة وقد نكّس رأسه، ثمّ رفعها:

- أرجوك يا أمّي، لا تفعلي هذا بي، أشعرُ بخزيٍ شديد كلّما تخيّلتك مع رجل آخر غير أبي، لا أدري ولا أفهم ما الذي ينقصك لتسمحي لرجلٍ غريب أن يلمسك.

سكتتْ عزّة وقد غلبَها الحياء، كيف تقول لابنها عن احتياجها لرجلٍ يحتضنُ عمرها، ويروي عطشَ وحدتها القاتلة، ويؤنسُ فراشها البارد، كيف تبوح لابنها وقد غدا رجلًا كاملًا، ويريد أن يتزوّج، وقد تصوّرت أنه سيتفهّم احتياجها دونَ الحاجة لأن تقف أمامَه الآن وروحُها ترتعش خجلًا وحياءً.

قامت فاحتضنتْه وقبّلته، وقلبُها ينزف ألمًا، ثمّ انصرفت.

فاطمة كانت أسرعَ في تحرّكها من عزّة، فبعد أن خوّفت سلوى من زواج أمّها، وألقت في روع أسامة أنّ أمّه فعلت ما لا يليقُ بامرأة في سنّها؛ اتّصلت بعماد وأسماء وطلبتهما على عجل، بعد وصلة بكاءٍ وقهر.

عماد وأسماء

صباح اليوم التالي في المدرسة، فوجئت بمديرةِ المدْرسة والوكيلة يطلبانها، ويخْتليان بها، لتتفاجأ بأنَّ أمّها قد اتّصلت بهما وتطلب منهما التحدّث معها، ويقنعاها بعدم الاستمرار في ما تريده.

وفي خلال ساعات عرفتِ المدْرسةُ كلّها بأنّ الأرملة التي ترهْبَنت عشْرَ سنوات، وعكفت على تربية أولادها، رافضةً كلّ عروض الزّواج؛ تريد الآن أن تتزوّج، وعاد إلى عزّة إحساسها المرير بالحصار، والنّظرات، والهمسات بين زميلاتها، ونظرات الرجال المبطّنة، بما تقول نفوسُهم حول الأرملة.

في طريقها للصّعود للبيت عند عودتها، أوقفتها أمّها بالرّضاعة، والدة أشجان، وأخذت تحدّثها عن المجتمع حولهم، وبماذا يتحدّث وسيتحدّث، وتحاول أن تثنيها عن فكرة الزّواج، وتكرّر سياط الوجع التي تتردّد على مسامعها، لقد كبرتِ في السنّ، وأخذتِ نصيبك من الرجَال، فلا تفعلي ما يسيء إليك وإلى أولادك.. تنظر إليها عزّة، وتقول:

– يا أمّي، هل قالوا لك إنّني سأرافق الرّجل في الحرام!!؟

فتضربُ الجارة على صدرها:

– أستغفرُ الله يا بنتي، ولكن أحيانًا نفعل حلالًا يشبه الحرامَ بالضبط.

علتِ الدّهشة وجهها، ثمّ أطرقت للأرض وتركت الجارةَ تكمل جلدها.

وفي البيت فوجئت بأختها أسماء، وما إنْ وقع نظرُها عليها، عرفت أنّ أمّها استدعتها على عجل، وليس لأحدٍ أن يقف أمام جبروتِ فاطمة.

ضمّتها أسماء إلى صدرها، وبعد الغداء اخْتلتْ بها وسألتها دون مقدّمات:

- هل ما سمعتُه عن تقدّم أحدهم للزّواج منك صحيح؟

عزّة بوجهٍ كالحديد:

- مَن قال لك إنّني سأتزوّج؟ ما سمعتيه خطأ، لا لن أتزوّج، ولكنّي سأرافق الرجل في الحرام، وتقدّم يطلب يدي للحرام لا للحلال.

بهتتْ أسماء قليلًا، ثمّ أطرقت رأسَها وقد احْمرّ وجهها:

- عزّة، لا يليق أن تتحدّثي هكذا، عيب.

بحدّة بادية:

- عيب!! تتحدّثون كلّكم عن العيب، والرّجل طلبني للحلال، وتتحدّثون إليّ، وكأنني سأرافقه في الحرام، ثمّ تقولين لي عيب، ألَا تخجلون من أنفسكم! ما الفرق الآن بين الحلال والحرام، وقد ساويتم بينهما؟!

- بعضُ الحلال في مجتمعنا يشبه الحرامَ يا عزّة، خاصّة والأعراف حولنا تنكرُه، والمجتمع ينظرُ له بريبة.

- سبحانَ الله العظيم، كأنّكم جميعًا تشربون من نفس منقوعِ الجهْل، حتّى المتعلمين منكم.

ثمّ نظرتْ لأختها، وبجرأة:

- أنت امرأةٌ متزوّجة، يعيش معك رجلٌ في البيت، وبالتالي لن تشعري باحتياجي لوجود رجلٍ يحبّني ويخاف عليّ، ولكنْ قولي لي يا أسماء إلى كمْ تصبرين على غياب زوجك عنك؟

احمرّ وجهُ أسماء:

- عيبٌ يا عزّة، ما هذا الكلام!؟

- دعْكِ من لفظ العيب الذي تردّدينه عليّ كلّما تكلّمت، وقولي.. نحن نساء مثل بعضنا البعض، لا تخجلي، إلى كمْ تصبرين على بُعْد زوجك عنك؟

- يبدو أنّه قد حصل بعقلك لوْثة، ويبدو كذلك أن أمّي عندها حقّ في منعك من الزواج.

- أقلْ لك يا أسماء، إلى كم تصبرين على غياب زوجك؟ ولا ليلةٍ واحدة، حتى لو كان لايقربْك كزوجة، ويمنحك حقّك الشرعي فيه، مجرّد وجوده في البيت يشعرك بالأنس والأمان، تسعدك أنفاسُه المنتظمة بجوارِك في الليل، حتى لو كانت شخيرًا، يملأ حياتك بصوتِه الأجشّ وهو يصرخ في وجهك إذا تأخّرت عليه في عملِ كأس شاي، تنتظرين قدومَه كلّ ليلة، وتقلقين إذا تأخّر قليلًا، تأتنسين بالحديث معه، حتى لو كان خلافًا على مصروفِ البيت، حبّك لأولادك شيء، ولزوجك شيء آخر، أنا يا أسماء، عشت عشرَ سنواتٍ كاملة في وحدتي، ساكتة وصابرة، والآن تستكثرينَ عليّ أن ينام بجواري رجلٌ يملأ ليلَ الوحدة ولو بشخيرٍ متواصل.

- هذا قدرُك، وكلّ إنسان يأخذ نصيبَه في الحياة، وعليك أن تصبري وتكملي المسيرة مع أبنائك، كما فعلت أمّك معنا.

- أمّك كانت ستتزوّج من عمّك إبراهيم، وقد استعدّت لذلك وزينتِها بيديك، هل نسيت!؟ أمّك كانت تفكّر مثلي الآن، لولا خطيئتي الكبرى معها لكان الحال قد تغيّر، وما كنت جلست تكلّميني بهذا الهراء عن العيب والحلال الذي يشبه الحرام، ولربّما كنت تزينينني بيديك مثلَها، لكنّه التّطفيف اللعين في الحقوق.

فجوةٌ هائلة اتّسعت بينهما، حدّدت فيها أسماء إلى بجوار مَن ستقف، وساد الصمتُ الغاضب بينهما، حتى قطعه دخولُ سلوى، فاستغلّت أسماء ذلك فانصرفتْ لأمّها دون حتى استئذان.

وفي المساء فاجأهم عماد قادمًا من السعودية، نظرت له عزّة، ثمّ التفتت لأمّها وهي تقول لنفسها: يا لجبروتك يا أمّي، أن تستعدي عليّ الجميع، انتقامًا لشبابك الذي ذهب، هل أنت أمّ؟ أم مجرّد امرأة تغارُ من امراة أخرى!؟

كان أخوها أكثرَ لطفًا معها، ولم يتحدّث مثل النّساء، ولكنّه كان يميل لأن يراعي أمّه في كبرها، وأنّ الأمهات في هذه المراحل السنيّة، يجب أن يعامَلْن برفق، وأن نحرص على إرضائهنّ لننال رضا الله.

ظلّت عزّة تسمعه لأكثرَ من نصف ساعة، ثمّ قالت له بنفس الرّفق:

- أليس من البرّ يا أخي أن تكلّمها هي الأخرى أن تترفّق بي، وأن تتجاوز وتسامح طفلتها على جريمتها التي لا تريدُ أن تنساها، فلا تجور عليها وتظلمها؟!

ابتسم عماد ابتسامة متردّدة، هي تعرف أنّه يقدّر أمّه تقديرًا كبيرًا، يجعله يخاف أن يراجعها حتى ولو كانت مخطئة:

- حاول أن تتشجّع مرّة واحدة في حياتك معها، وتحدّثها بما تراه صحيحًا، لا أقول لك تجرّأ أو تطاول عليها لا سمحَ الله، ولكنْ هناك طرقٌ كثيرة في الحديث بالإقناع بمثل ما تفعل معي.

- أنتِ أسهل عليّ منها، وأنت تعرفين ذلك.

ابتسمت وهي تختنق بالدّموع:

- تدوس على الأضعف لأنّك تخاف الأقوى، هذا ما علّمته لك لحيتُك التي تزيّن وجهك، وتضعك في مصاف المتديّنين، ألَا تخجل من الله.

طأطأ رأسَه:

- أنا آسف يا عزّة، أنت تطلبين شيئًا حلالًا بالزّواج، وهذا حقّك، ولكني لا أستطيع الوقوف في وجْه أمّك.

ثمّ قام محاولًا أن يُقبّل رأسها، ولكنّها ابتعدت عنه:

- تقتلني، وأنت تعرف أنَّ لي حقًّا، ثمّ تقبّلني مُعتذرًا!! أيّ رجولة هذه؟ وأيّ رجل أنت؟.

وعلى العشاء الأخير الذي جمعهم، لم تحاول فاطمة أن تُلملم أسرتَها، ولكنها قصدتْ أن تعرف عزّة أنها في معركةٍ خاسرة، وأنّها جيّشت العائلة ضدّها، وأنّهم يرفضون ما هي مُقدمَةٌ عليه، وفهمتْ عزّة الرسالة، من نظرات

أمّها واحتفائها بجيشها المقاتل، وبدأوا في تناول الطعام إلّا هيَ، لم تستطعْ تناول لقمةً واحدة، وغصّة تحاولُ أن تضرب قلبها، ولكنّها تقاومها بكلّ قوّة الحبّ الهادرة، وإرادتها في أنْ تحيا ككلّ امرأة في الحياة مع مَن تحبّ، لم يهتمّ بعدم أكلها أحد سوى سلوى ابنتها التي كانت تجلس بجوارها، فأخذت تقرّب لها الطعام، وتدعوها إليه برجاء، ولكن عزّة وقفتْ فجأة فانْتبهوا لها، فقالت بصوتٍ متهدّج، جمعت فيه كلّ غضبِها منهم، وتحدّيها لهم:

- على الجميع أن يعرف، أمّي وإخوتي وأبنائي، بأنّني سأتزوّج من هذا الرجل الذي تقدّم لي، وتعرفون أنّني أطلب حقًّا مشروعًا، ولن أتنازل عنه سوى بالموت، ولو اجتمع الكون كلّه على أن يمنعني ما امتنعت، ولتعلموا أنّني لن أقصّر في حقّ أحدٍ منكم، خاصّة أولادي، وكلّ محاولةٍ لتشويه صورتي لدى أولادي بالكذب والبهتان فإنّني سأحتسب ذلك عند ربّي، وأقول مردّدة، حسبي الله ونعم الوكيل.

قالت فاطمة بصوتٍ كأسنان منشارٍ حادّة:

- ستتزوّجيه رغمًا عنّا إذًا، ليس لك إلّا أن تتزوّجيه في السرّ بورقة عرفي، وتجلبي لنا العار!!

التفتت لها، وبنفس تحدّي أمّها:

- مَن قال ذلك يا حاجّة فاطمة؟ أنا بنت أصول، وبنات الأصول لا يتزوّجنَ في السّر، ولست كذلك مراهقة، ولا أفعل شيئًا يغضب الله، سأتزوّجه أمام الدّنيا كلّها، وسنعلن ذلك مباشرة.

- تطلبينَ رضا الله بغضب أمّك؟!

- غضبُك غيرُ مبرّر، ووضعي في هذا الموقف أمام أولادي وإخوتي سيحاسبك الله عليه حسابًا عسيرًا.

قام عماد محذّرًا عزّة من التّطاول على أمّه أكثرَ من ذلك، فانصرفت لغرفتها وأغلقتْها على نفسها بالمفتاح، تاركة الأسرةَ في حالة غضبٍ وصمتٍ تام.

استعاد البيت الماضي السّحيق، وخيّم عليه نفسُ الإحساس حين كانت عزّة تطلب، ولا رادّ لطلباتها، وكأنّ كلّ منهم يريد أن ينتقمَ من جبروتها القديم، بأن يرفضَ ويقاوم ما تطلبه، شيء ماتَ في لاشعورهم، أيقظته فاطمة، وكلٌّ يبرّر ما تفعله الأمّ بطريقته.

عزّة وحسام

اتّصلت بحسام، وقالت دون مقدّمات أوّل ما سرى صوته إليها:

- أتُحبّني؟

- نعم يا عزّة بالتأكيد.

- إلى أيّ حدّ؟

- لحدّ الموت.

- في الغدِ سنتزوّج، وليقتلونا بعدها إذا شاءوا.

- أرجوك فكّري قليلصا، لسنا صغارصا لنفعل ذلك، يجب أن نحاول ونحاول حتى ننالَ رضاهم.

- حسام، كنْ رجلي الذي أحتمي به، لا تخذلني أرجوك.

- لنْ أخذلك، لكن مثل هذه الأمور لا تسير هكذا.

- هذه الأمور لن تسير إلّا هكذا، أعرف أمّي كما تعرفني، لن تتراجع.. وأنا لن أتراجع، الوقتُ الذي سيمضي بعد ذلك أنا أعرف ماذا سيحدثُ فيه، سيضيع من عمرنا أكثرَ بلا فائدة.

- وأولادنا؟ ألا تفكّرين حتى في سلوى، وأمّها ستتزوج بهذه الطريقة، هل ستقبلين منها إن فعلتْ ذلك؟

- أيّ طريقة؟ أنا لست قاصرًا لأحتاج لوليّ ليزوّجني، أنا مالكة أمري، يمكنني أن أزوج نفسي شرعًا وقانونًا، وهُم يعلمون ذلك.

- وابنك أسامة؟

- أسامة سيتفهّم الأمر، ربّما هو في حيرة من أمره الآن بسبب كلام جدّته، ولكني متأكدة أنّه سيقبل بعد ذلك.

- فكّري أرجوك، ما سنفعله رهيبٌ، وكبير، وربّما تكون آثاره أسوأ ممّا نتصوّر، علينا أن نصبر حتى تهدأ تلك العاصفة، ثمّ نحاول مرّة أخرى.

- لقد دفعتَ من شبابك وعمرك سنواتٍ حتى لا تنكسر، والآن تريد أن تنحني، حين تأتيك الفرصة لترفع رأسَك وتواجه القهر، مازلت في تردّدك وخوفك، لماذا يا حسام؟ لماذا أسافر دائمًا إليك دون وصول؟ لماذا تفعل بي هكذا؟ أنا أقاتل بكلّ ما تبقّى فيّ من قوّة لأستعيد روحي، توشك حياتي كلّها على الانْهيار بسبب حبّي لك، أقذف بنفسي بكلّ قوتي في هوّة سحيقة

لتتلقّفني بين ذراعيك وقلبك وروحك، وأنت تتركني أهوي وأهوي بسبب خوفك وتردّدك.

سكتَ حسام، وقد احتقن صوتُها واختنق، ثمّ أغلقت هاتفها، وجلست صامتة، تاركةً لدموعها كاملَ الحرية في التدفّق، حتى حلّ عليها سكون كالموت.

لا تدري كمْ من الوقت مرَّ عليها، ولكنْ أيقظتها الدّموع الثخينة مرّةً أخرى ولكنّها كانت دموع بُشْرى، فابتسمتْ وقامت إلى هاتفها، واتّصلت بحسام:

- متى سنلتقي غدًا؟

مستسلمًا مبتسمًا:

- في الوقت الذي تحدّدينه.

- هل تعرف مأذونًا يعقد قراننا؟

خفق قلبُه بشدّة:

- الحقيقة، لا.. ولكن أبي بالتأكيد يعرف.

- تدري؟ بعد أن هاتفتك الليلة، وأغضبتني كما أغضبوني، أخذني النوم وأنا جالسة على الكرسي، ورأيت رؤيا عجيبة، فقلت لتكن أوّلَ مَن أبشرك بها.

ابتسم كأنّه يتعلّق برجاء ما، وأمل يتمنّى حدوثه:

- احكي يا عزّة.

- رأيت كأنّني في بلدٍ ما، أعرفه ولا أعرفه، نفس شوارع بلدتنا الميتة، ونفس البيوت الذابلة، ووجوه النّاس الكالحة، تحمل عيونًا مظلمة كأنّها بلاعيون، كانت الرياح ساكنة، وصمت كالحٌ يخيّم على الناس، وسحب رمادية كئيبة تتسارع وتتجمّع بكثافة، حجبت الشمس والسّماء، تمرّ على الموكب الكبير الطويل المتّشح بالسواد، الذي ينتظر حمْلَ كفني ليتّجه به نحو المقابر ليدفنوني، بينما انهمكتِ النّساء في غُسلي، وأنا بكلّ ضراعة أحاول أن أشرحَ لهنَّ أنّني مازلت أحيا، وأتنفّس، وأنّ قلبي يدقّ، حتى دموعي تسيل على خدي، لم تأبَه ولا واحدة منهنّ، ومسحت إحداهنّ الدّموع من خدّي بقسوة، كنّ يقمنَ بعملهن وكأنّهنّ آلاتٌ بلا روح، أو في مهمّةٍ اعْتدنَ على ممارستها، ثمّ خرجت البلدة كلّها عن بكرة أبيها، يحملون كفني، وقد علتْ وجوههم الكآبة، وجحظتْ عيونهم بالقسوة والبرود، يتهامسون لبعضهم البعض بكلماتٍ غير مفهومة، يهزّون رؤوسهم كأنّهم يؤكّدون على موتي، أرجوهم باكية، أقول لهم: لم أمتْ بعد، لم يأبهوا لكلماتي، ولم ينظروا حتى ناحيتي، أصرخ بملء صوتي، بكلّ جهدي وقوذتي، فيخرج صراخي بلا صوت، أبحث جاهدةً عن أمّي، فأجدُها وعماد وأسماء، منشغلةً عني، تتحدّث معهما، يتّفقون على شيء ما بشأني، وتُبْدي رضاها عمّا سيفعلوه، أناديها، وأرجوها ولا تلتفتُ لي، أبحث عن أولادي، فأجد أسامة وسلوى في ركنٍ قصيّ، مطأطئي الرّأس بانكسار كاليتامى، وكلّما اقترب الموكب من القبر يزداد خوفي، واليأسُ من الناس يهيمنُ عليّ، ولكنني أواصل الصّراخ الذي يضيع في الفراغ، السّماء تغيم أكثرَ وأكثر حتى وصلنا إلى القبر، نظرتُ

لفوّهته المخيفة، المفجعة، المظلمة، وأنا أنتحبُ على نفسي هلعًا ورعبًا، ثمّ تسابقوا لحملي لينزلوني القبر، وفجأة تبدّد الضّباب، وتنفّست الحياة، وتحرّك الهواء بنسماتٍ عليلة بدّدت الخوف، وبعثت في روحي الحياةَ والحقيقة، إذ انْشقّ الظلام، وانْجلى عن رجلٍ كالنور، مهيب الطلعة، فغمر المكانَ بهاؤه، وأشار بطولِ ذراعه اليمنى فمنع دخولي القبر، فتراجَعَ الجميع، وأخذني فاحتميت به، ووقفت وراءه، سندًا وقوّة، وقد لبستني السّكينة والرحمة، ثمّ قال في الناس بصوتٍ واضح الحروف، قويّ الكلمات: ألا تروْن؟ عزّة لم تمت، منذ متى عدتم للجاهليةَ الأولى فتدفنون البناتِ في التراب أحياءً كأنّهنّ عار؟ تلفّتوا لبعضهم البعض، والهمهمات تعلو بينهم، ثمّ التفتَ لي وابتسم ابتسامةً حانية، فأخذتني السعادة، وربتت على روحي، فبكيت.

سكتتْ عزّة هنيهة، ثمّ قالت:

- هل تدري مَن كان هذا الرجل؟

كان حسام غارقًا بشدّة في تفاصيل رؤياها، حتى أنّ جسده اقشعرّ وانتبه فجأةً على سؤالها، ورغم أنّ يقينًا بداخله كان يعرف الإجابة، إلّا أنّه تردّد وقال:

- لا.

قالت:

- كان النّبي محمّد صلى الله عليه وسلم.

همسَ وقلبُه يفيض رقّة ومحبّة:

- اللّهم صلّ وسلم عليك يا حبيبي يا رسول الله.

- أنا سعيدة جدًّا ياحسام لتلك البُشرى التي أتتْ في هذه اللحظة لتزيل الكربَ الذي ملأ قلبي.

- وأنا كذلك سعيد جدًّا لك يا عزّة، تلك بشارة طيبة.

قالت بإصرارِ الحياة:

- سنتزوّج غدًا إن شاء الله.

- نعم، سنتزوّج غدًا إن شاء الله.

لم يتّفقا على زمان أو مكان ليتقابلا فيه، ولم يرتّبا تلك الليلة لشيء سيحدث في الغد، سوى أنّهما اتّفقا على الزّواج في الغد.

استيقظت عزّة أبْكَر من موعدها الصّباحي المعتاد، عانقت الماءَ البارد المتدفّق على أرض الجسد المَوْعود بالفرح، منحت الماء وقتًا أطول، ودفئًا مخمليًّا يليق ببردِ يناير.. أمام المرآة، مشّطت شعرَها بعناية وتؤدَة، ووضعت كريمًا خفيفًا على وجنتيها، وصارت تدلّكها على مهل كأنّها تهيّئها لقُبُلات حالمة ستأتيها كزخّات مطرٍ خفيفة تُنْعش الجسد، تسبق انهماره المتدفّق، اقتربت من المرآة، تطلّعت إلى شفتيها، جافّتين وباردتين، مسحتْهما بأصابعها بقوّة، حتى احمرّتا واكتنزتا، وافترّتا عن كريزتين، على وعدٍ بقُبْلتين رواء، تزهر على أثَرهما شجيْرة ياسمين تملأ الحياة بالنّسيم والتدفّق والحبور.

وفي المدرسة، جلست في مكتبها ترتشف كأسَ الشاي بهدوءٍ مسترخٍ، لا تفكّر في اتّجاه محدّد، أو لا تريد أن تشغل رأسها بشيء، ودّت في تلك اللحظة

أن ترى حسام أمامها، بطَلّةِ رجولته النّاضجة، وعيونه العسلية، وبابتسامته التي تقطر شهدًا وتفيضُ حنانًا، يدخل عليها المكتب، ويقف قُبَالتها مبتسمًا ويقول:

- صباحُ الخير، جاءني خطاب اسْتدعاء وليّ أمر للمدرسة.

عزّة اعتبرت يقينًا أنّ وقوف حسام أمامها هو مجرّد جزءٍ من تخيّلها، أو حلم يقظةٍ عابر يمرّ عليها كما هو المعتاد مع خيالاتها.

ظلّ مبتسمًا لبُرهة، غيرَ مستوعبٍ ردَّ فعلها، التي لم تحرّك ساكنًا، سوى تلك الابتسامة التي رآها معلّقة على شفتيها من لحظةِ دخوله، وعيونها التي تسبح في اللاشيء، كأنّها نائمة تحلم فناداها منبّهًا:

- عزّة.

انتبهتْ فجأة على يقينِ وجوده أمامها، فوقفتْ مبهوتة، حائرةً متأرجحة بين الحلم والحقيقة، ثمّ اضطربتْ كأنّها تهزّ روحها لتستيقظ، ابتسمت منْبَهرة، ثمّ ضحكتْ، وقبل أن تتحرّك لتلقي نفسها في حضنِه بتلقائيّة الطفلة بداخلها، أنقذها القدَرُ بدخول أشجان عليهما.

جلسَ في نفس الكرسي المواجهِ لها، كأوّل مرّة تقابلا فيها، تبادلوا الترحيب والابتسام، وانطلقت أشجان لتُضيّفه بفنجانِ قهوة، بينما جلست عزّة وقد هدأت قليلًا من المفاجأة الصباحية الجميلة، وقال حسام:

- لم أتخيّل أن تقع مفاجأة قدومي عليك بهذا الشكل.

اتسعت ابتسامتُها:

– كنت أتمنّى، وأتخيّلك واقفًا أمامي، وحين دخلت اختلطَ عليّ حلمُ اليقظة بالحقيقة، ماذا تفعل بي يا رجل!؟ كأنّك تسمع ندائي، وتشعرُ بإحساسي إلى حدٍّ يجعلني أكادُ أجَن!!

– تصدّقينني لو قلت لك، إنّ أمنيتك أتتني ونادت عليّ؛ فلبّيت نداءك.

– أصدّقك، الذي يسمع شكوى النّخلة عزيزة؛ بالتّأكيد سيسمعني.

– هل أسبّب لكِ أيّ حرج بزيارتي تلك؟!

قالتْ مبتسمة:

– الكون كلّه تقريبًا عرف أنّني أريد الزّواج، ولكن حتى الآن مازال العريس شخصًا غير معْروف.

– بالرّغم من تردّدي ومخافتي عليك من زيارتي، ولكنّي لم أستطع أن أمنعَ نفسي من رؤيتك هذا اليوم، قبل سفري للقاهرة.

– ستسافر اليوم؟!

– يجب أن أرتّب كلّ شيء للزّواج، ووحدي سأرْتبك، سأحتاج مشورة أصدقائي ومساعدتهم.

تورّد وجهُها خجلًا، فهذه أوّل مرّة يتحدّثان عن زواجهما وجهًا لوجه، وواصل حسام:

– نحن في ظرفٍ استثنائي، وكلّ خطوة يجب أن تتمّ بحساب.

- بحساب نعم، بتردّد لا.

ابتسم لها:

- لم يعدْ هناك مجالٌ للتردّد.

حكتْ له عمّا حدث لها بالأمس في المدْرسة والجيرة، وأخواتها وأولادها، ونصَحَها بأن تحاول مع أولادها بشكل رئيسي مرّة أخرى؛ لأنّه يتمنّى أن يتمّ الزّواج بشكل طبيعي، وأمام الدنيا كلّها، ثمّ قال:

- أمرُ زواجنا أصبح محسومًا، ولكنْ علينا في ترتيب بعض الخطوات قبلها، فلن نقبل أنا وأنت أن نتزوّج في السّر، لا يليقُ بنا ذلك، ولأنّنا سنعلن ذلك؛ فعلينا أن نواجه صعابًا شتّى، بتعقّل وبُعد نظر، فليس في مصلحتنا خسارة الجميع هكذا.

- نعم، أنا كذلك مثلك لن أقبلَ أنْ أتزوّج في السّر، بل على العكس كنت أتمنّى أن يوافقوا، وأحيا قصّة حبّي في النور.

- في الأيام القادمة، سنحاول من جديدٍ معهم، أرجو أن تبدئي مرّة أخرى من عند خالك رأفت، أظنّ أنّ مكسبَه في صفّنا سيخفّف الحمل عليك، وكذلك حاولي أن تكسبي ثقة سلوى فهي مرتبطة بك، حاولي أن تزيدي عددَ أنصارك، ودونَ صدام، أمّا أنا فسأسافر لبضع أيّام قليلة.

- ستتأخّر عليّ كثيرًا وتتركني وحدي وتسافر!!؟

- لا يا عزّة لن أتركك وحدَك، ولكن بعد مشوار القاهرة سأذهب إلى والدي، أريد أن أرتّب عودتي للأرض.

– ألَا يمكن أن نؤجّل ذلك لبعد الزّواج؟

– بالعكس هذا وقتُه المناسب لنا، عودتي للأرض ستمدّني بقوّة هائلة، أحتاجها في الأيام القادمة، لقد قرّرت منذ مدّة فسخَ عقد الإيجار مع الشّركة الأجنبية التي تؤجرها منّا، وسأتسلّم الأرض في خلال وقتٍ قريب، لنبدأ حياة جديدة كاملة، لا تتصوّري سعادة الفلّاحين الذين يعملون في الأرض بعد معْرفتهم بنبأ عودتي لفلاحة أرضنا، اتّصل بي ناس كُثر لا أعرفهم، وطلبوا منّي الانضمامَ إليّ في زراعة الأرض، منهم طلاب في كلية الزّراعة، يعقدون عليّ أملًا كبيرًا.

– وأنا ، أين موقعي من ذلك كلّه؟

– أنت أصلُ الحكاية كلّها؛ من بدايتها لنهايتها، فلولاك ما وجدت نفسي، وما عدتُ بهذه الرّوح، وهذه القوّة.

ابتسمت بسعادةٍ بالغة، وواصل حسام:

– سنعيش هناك في بيتنا، المنزل واسعٌ جدًّا ومريح، ويكفينا، سأعيد تأثيثَه وتقسيمه، بحيث يكون لك جناحٌ مستقلّ، وللأولاد كذلك، حتى يكون كلّ أحبابنا معنا.

– ووالدُك سيوافق؟!

– هذا يوم مُناه، وأريد أن أحقّق له ما يتمنّاه.

– أنا مستريحة لتفكيرك هذا، وسأكون معكَ في أيّ مكان ترضاه للعيش معًا.

- عليّ الانصرافُ الآن، وسوف نكون على تواصل دائم.

- لا تغب عنّي كثيرًا أو تتأخر.

ابتسم:

- انتهى وقت الفراق يا عزّة، من الآن نحن معًا، وحتى آخر العمر إن شاء الله.

- إن شاء الله.

التفتَ لها وهو على باب المكتب يهمّ بالخروج، ونظر لها بودّ جارف:

- أمنية أدعو الله أن يحقّقها لنا، ولأبي قبل أن يموت.

نظرت إليه بعيونٍ متسائلة، فقال:

- أن يرى حفيدًا ذكرًا.

احمرّ وجهُها بخجل ممزوج بفرحة تكاد تقفزُ بها، وقالت مردّدة عبارتها الأخيرة ولكنْ في سرّها: إنْ شاء الله.

عزّة وأسامة

كسبت عزّة خالَها رأفت في صفّها تمامًا، وقال لها بعدَ مناقشة قصيرة:

- لن أتخلّى عنك، أمّك يغشى عقلَها ظلمةٌ كبيرة، ونسيتْ وهي في مثل سنّك عندما وقفتْ في وجهي بمنتهى الصّلابة تأمرني أنْ أقبل عمّك إبراهيم زوجًا لها دون مناقشة.

أمّا سلوى، فسرعان ما انْضوت تحت جناحها بعد أن طمأنتها على شكل الحياة الجديدة، وأنّها ستعيش معها في بيتٍ كبير، ولن تتخلّى عنها أبدًا مهما حدث.

انفردت عزّة بعماد، ثمّ لحقت بهما أسماء بثلاثة كؤوس من الشاي، وبعض البسكويت، في محاولة لإضفاء جوّ من الصّفاء والمحبّة بين الأشقاء، ربما يستطيع هذا الودّ إقناعها بالتخلّي عن فكرة الزّواج حتى لا تتمزّق العائلة وتجنب غضبَ الأمّ كذلك.

تعاملت عزّة مع هذا الودّ الملحوظ بودٍّ غالب في حديثها معهما، في محاولة- على الأقلّ- لتحييدهما.

بدا من الأحاديث المُتبادلة حرصَهم على عدم خسارتهم لبعضهم البعض، غير أنّهم لم يلتقوا في نقطةِ اتّفاق حول فكرة الزّواج، أسماء مازالت مصرّة على أن تستسلم لنصيبها في الحياة، وأخذت تعدّد لها الأمثلة من نساءٍ في محيطها رضيْنَ بقدر الله فيهنّ، وعزّة تستمع بإنصاتٍ ظاهر، وتتجنّب الخوض في جدالٍ تعرف أنّه لن يجدي نفعًا، أسماء تحكم على ظاهر الناس، ولم تدخل في تفاصيل إحساس أيّ امرأة تعاني من ضغط الاحتياج، والخوف من الفراغ المظلم الذي يحيطها، والذي لا يملؤه إلّا رجل، ولكنْ هيهات لأسماء أن تدرك ذلك.

عماد مازال يرى- ويؤكّد- أنّ غضب الأمّ ربما يؤثّر على بركة هذا الزّواج لأنّ رضا الله من رضا الأمّ، ما الذي حدث لعماد!! هل أثّرت إقامته الطويلة في الخليج على تفكيره إلى هذا الحدّ!؟ كان منذ سنوات- وقبل سفره- إنسانًا منفتحًا، يناقش ويجادل ويسهُل إقناعُه، تحوّل فجأة لمجرّد كتابٍ ناطق، أجزم أنّ هذا الرجل لا يشعر بزوجته، بالتّأكيد هي تدور في فلك إرادته هو لا

إرادتِها، عزّة تهزّ رأسها موافقة دون الدّخول في جدل عقيم، كان يكفيها أن يعود الودّ بينهم ويستمرّ، ربما ينفعهم في يوم يلتئم فيه شملهم.

بقي أكبر حَجَريْ عثرةٍ في الحكاية؛ أمّها فاطمة، وابنها أسامة.. بدأت بأسامة، طرقت الباب، فلم يجبْ، مرّتين وثلاثة، ثمّ فتحت الباب، فوجدتْه مستغرقًا أمام شاشة الحاسوب يتابع شيئًا بلهفة بادية.

انتبه– أخيرًا– أسامة لوجود أمّه، فوقف من فوْره، فقالت بتعجّب:

– أسامة، ما الذي يجعلك مستغرقًا لهذا الحدّ، الذي لا تسمع فيه طرقي على الباب ومناداتي لك!؟

قال وجسده كلّه يرتعش:

– لقد هربَ بن علي من تونس.

وقفت مندهشة، لا تعي ما يقول.

– يا أمّي، رئيس تونس بن علي، خطب في الشعب منذ قليل، ثمّ ترك البلاد وهرب.

أخرجها ابنُها من محيط حكايتها لحكايةٍ أخرى، فجلست على الكرسي المقابل:

– أنا لا أفهم شيئًا ممّا تقول، لماذا هرب؟!

ردّ بحماسٍ كبير:

– لم يستطعِ الرئيس التونسي مواجهةَ الاحتجاجات الشعبية التي حدّثتك عنّها منذ أيام، والتي قاومتها الشرطة بعنف، فلم يزدْها ذلك إلّا اشتعالًا

وقوّة، بل وامتدت شرارتها لكلّ تونس، واليوم لم يتحمّل بن علي هذا الضغط الشّعبي الهائل؛ فقرّر الهرب وتركَ تونس للثورة.

كانت تستمع لأسامة، وعقلُها يمور بالأفكار، هي تريد أن تحدّثه في موضوع زواجها، والولد في عالمٍ آخر، قالت:

- وما لنا وتونس يا أسامة، ما الذي يجعلك سعيدًا إلى هذا الحدّ؟!!

وقفَ وحماسُه يزداد:

- كيف يا أمّي تقولين ذلك!! ألسنا نعيش في وطنٍ عربي واحد، أنتِ مَن كنت تعلّمينا ذلك منذُ صغرنا، وكنت تأخذينا إلى مظاهراتٍ تندّد بالعدو الصهيوني في اعتدائه على غزّة ومحاصرتها.

- نعم، لكنّ هذا الأمر يختلف كثيرًا.

- لا يا أمّي، هذا الأمر ربّما يكون بنفس الأهمية، بل يزيد.

- كيف؟!!

- الشعوب مازالت حيّة، وقلبُها ينبض عطشًا للحرية، تونس كانت من أكثر الدّول ديكتاتوريّة وبطشًا بالمعارضين، اليومَ استطاع الشّعب إزاحةَ هذا الديكتاتور في غضون شهرٍ واحد من الاحتجاجات.

شبّكت أصابَعها وقد بدأت تدركُ ما سيذهب إليه ابنها:

- وماذا يعني ذلك؟!

- يعني أنّنا قادرون على القيام بثورةٍ وإزاحة مبارك.

قالت ساخرة له:

- وهل ستتطوّع بإحراق نفسك لتنطلق شرارة الثورة!!

- لسنا في حاجة لأن ينتحرَ أحد، الشّرارة الصغيرة التي أشعلها بوعزيزي تكفي لإشعال ثوراتٍ عظيمة في الوطن العربي كلّه.

سكتتْ، لا تدري كيف تنقل ابنها من اهتمامه لاهتمامها، فكّرت أن تغيّر الموضوع، ولكنّه كان كالنّهر المتدفّق:

- هناك دعواتٌ منتشرة على مواقع التّواصل الاجتماعي للبدء في تظاهرات ضخمة بحلول عيدِ الشرطة يوم ٢٥ يناير القادم، وهذه الدّعوات تلقى استجابةً ضخمة من طوائف كثيرة من المجتمع.

لأوّل مرّة يسري الخوفُ في قلبها على ابنها:

- أسامة، أجهزة الأمن عندنا لا تلعب، وسوف تواجهُ ذلك بضراوة.

- الدعوة للمظاهرات كلّها سلمية، وليس في نيّة أحدٍ مواجهة الشرطة، فقط نريد أن يتحقّق ميزانُ العدل، وتتّسع مساحة الحرية والعدالة الاجتماعية، نحن بعد حكم ثلاثين عامًا نقبع في ذيْل التّصنيفات العالمية في التعليم والصّحة والأمن وحقوق الإنسان، ونحتلّ المراكز المتقدّمة في الفساد وسحق الإنسان، إلى متى سنظلّ صامتين!!؟

- ولماذا اخترتُم عيد الشرطة بالذات لتقوم المظاهرات فيه؟!!

- منذ عدّة أشهر، قتلت الشرطة شابًّا في ريعان شبابه اسمُه خالد سعيد بالإسكندرية، ثمّ لفّقوا له قضيّة مخدرات ليداروا فعلتَهم الشّنعاء، يجب أن ينصلح حالُ هذه الأجهزة القمعية، وتتحوّل لفرض الأمن لا لترويع النّاس، يجب أن تتطهّر كلّ أجهزة الدولة من الفساد الذي أصبح علنيًّا، ويعاني النّاس منه، اخترنا ذلك اليوم لنذكّر الشرطة بأنّ الشعب كيان قوي وله إرادة يجب أن يُرضخ لها.

- وإذا لم تستجبِ الدولة لطلباتكم؟!

- سنستمرّ في التّظاهرات حتى تخضع الدولة لمطالب الناس، وظيفة الحكومات يا أمّي أن تكون خادمةً للشعب، لا أن يكون الشعب خادمًا لها.

وقفتْ عزّة فجأة، وبتلقائيّة منسجمة مع حماس ابنها:

- وأنا كذلك يا ولدي سأقوم بثورةٍ على التيبّس الفكري، والتخلّف الاجتماعي، والأعراف الوثنيّة التي تقضي بموت المرأة بوفاة زوْجها.

ذُهلَ أسامة من ردّ فعل والدته غير المتوقّع، ولم يحرْ جوابًا، بينما هي قد اتّجهت للباب وفتحته وقبل أن تخرج التفتت إليه:

- أظنّ لا أحد سيستطيع منْعك من الاشتراك في هذه التّظاهرات.

أومأ برأسه إيماءةً خفيفة بالموافقة، فابتسمت:

- وأنا كذلك لن يستطيع أحدٌ منعي من القيام بثورتي.

اعتدلت وواجهتْه، وبحروف حاسمة:

- في خلال الأيّام القادمة سأتزوّج، وسأعلن التوقيت والمكان، وأتمنّى من الله أن يكون ميزانُ العدل الاجتماعي الذي تتحدّث عنه بهذا الحماس ماثلًا أمام عينيك، وأن تكون بجواري؛ رجلي ووكيلي في عقد الزّواج.

حسام ووالداه

توجّه حسام لوالديه بعد زيارةِ القاهرة، واجتمع مع أبيه بعد صلاة العصر يرتشفان الشّاي، التفت الحاجّ محمود لحسام:

- لقد خاطبت الشّركة مستأجرةَ الأرض منذ فترة بعد أن أبديت رغبتك في ذلك، وقد أبلغتها بعدم موافقتي على تجديد العقد معهم.

- وماذا كان ردّهم؟

- صدّعوا رأسي بكلام كثير، لا أولَ له ولا آخر، وكلّ يوم أتلقّى اتّصالات من شخصيات في الشّركة تطلب تمديدَ العقد، ورفعَتِ الإيجار للضّعف، فقلت لهم دعوني أفكّر.

- عجيبٌ ما تفعله هذه الشّركة، قيمة الإيجار أصلًا مرتفعة، والآن يعرضون مضاعفة الإيجار!!

- فعلًا، شيء محيّر يا ولدي.

- بالنسبة لموقفنا القانوني، هل هو سليم؟

– نعمْ، سليمٌ جدًّا، أتابع مع المحامي الذي أخبرني أنّ موعد تجديد العقد يبدأ في أوّل مارس، وقد أبلغهم بفترةٍ كافية على حسب ما هو منصوصٌ بالعقد المبرم بيننا.

– وماذا كان ردّهم النهائي؟

– خاطبوني اليوم، وطلبوا عقدَ لقاءٍ معي، وسوف يأتون صباحَ الغد.

– جميل، سأكون حاضرًا معك.

– هذا بالتأكيد سيسعدني يا ولدي، قل لي الآن.. ما الجديد عندك بالنسبة لزواجك؟

حكى حسام لوالده كلّ التفاصيل، وعزْمَه على إتمام عقد الزّواج خلال الأيام القليلة القادمة، وفكرتَه بعد العقد في إعادة تأثيث البيت ليتناسب مع الظروف الجديدة، كان الحاجّ محمود يستمع بإنصاتٍ وهو في غاية السّعادة لعودة الرّوح الوثّابة لابنه، تاركًا له الأمر كلّه ليتولّاه بمعرفته، وقال له بعد أنْ أنهى حسام كلامه:

– أستطيعُ الآن يا ولدي أن أستريح في أيّامي الأخيرة في الحياة، لقد استجاب الله لدعائي.

قبّل حسام كلتا يديْ والده:

– بارك الله في عمرك، ومتّعك الله بالصّحة والعافية أنت وأمّي، سندًا لي في الحياة بعد الله.

تنهّد الحاجّ محمود باستقرارٍ نفسي لطالما حلمَ به لسنوات طويلة:

– يقدّرُ الله لكما الخيرَ يا ولدي، أودّ ألّا تتأخّر في عقد الزواج، أنا وأمّك نتمنّى أن نسعد بك، ولم يعدْ في العمر متسعٌ للانتظار، تزوّج يا ولدي، ثمّ إعادة تأثيث البيت وترتيبه أمرٌ يسير.

– في خلال أيّام قليلة سيتمّ العقد إن شاء الله.

***

مرّت أيّام العمر طويلةً رتيبة ومملّة، جعلت للعيش فيها مذاقًا مرًّا، ما أسوأ أن تعيش فقط لتنتظر الموت، بل وتتمنّاه في كلّ لحظة، أيّام الحزن طويلة ومتشابهة، سوداء قاتمة، يتسلّل شعاع نور خافتٌ من حيث لا ندري، ثمّ يندفع ويتدفّق فيُحيل الظّلام فجأة لشروقٍ بهيّ، تتفتح له الحياة مرّة أخرى من قبْو العدم، ما هو السّرّ الإلهي التي يضع كلّ هذه القوّة الجبارة في أضعف الأشياء حوْلنا!!؟ فتجعلها تُفجّر كلّ هذه الطاقة فينا بتسلسلٍ سريع لتنشأ حياةً جديدة في محيط واسع المدى، ذلك الذي حدث لي مع عزّة بالضبط؛ نسمةٌ حانية عبرت بيننا ذلك الصّباح في المدرسة، في أوّل لقاءٍ بيننا، لتتوالى من ورائها قوى الحبّ خفية، ظلّت تتصاعد ناسفةً وراءها كلّ تلال الحزن، ممهّدةً وراءها أرضًا خصبة لبذرة الودّ بيننا، حطّمت كلّ السدود فتدفّق النهر الذي أوشك أنْ يأسَن، اندفع مغتسلًا بنور الصّبح الجديد، ويمشط خيوطَ الشّمس المشرقة بالفرح، آه يا عزّة، أينَ كنت طوالَ الأعوام الماضية!!؟ لماذا غبت عنّي هكذا؟!! بعدما كنت أحسبُ الأيام وأستصرخُها لتجري، أصبحت كذلك أعدّ الأيام، وأرجوها ألّا تمضي، وددتُ يا عزّتي لو اختليت

بكِ الآن قبلَ الغد؛ فالأرض قد استوتْ وتهيّأت، والنهر يمور بالخيرِ والنّماء، يريد أن يندفع في شقوق الأرض العطشى، للحبّ والبذر والزرع والاهتمام.

كان ذلك آخرَ ما حدّث به حسام نفسَه قبل أن تسدل ستائرُ عينيه، ولم يستيقظ إلّا على صوت أبيه:

– هيّا يا ولدي، الله ينادي علينا، فلا تردّ نداء الصلاة.

***

في العاشرةِ صباحًا، كانت المضْيَفةُ الفسيحة تضمّ أربعَ شخصيات والحاجّ محمود خامسُهم، يتبادلون عباراتِ التّرحيب وكلمات مختلطة لم يتبيّنها، فيما تسلّل إليه صوتُ امرأة من بين الحضور.

فتح باب المضيفة ودخل مبتسمًا مرحّبًا، فوقف الجميع للتّرحاب به، فكانت المفاجأة المذهلة، التقتْ عيناهما، لقاءٌ أشبه بالْتقاء سلكيْ كهرباء لتنطلق شرارةٌ صغيرة عنيدةٌ توشك أن تشعلَ كلّ شيء بالنّار.

تمالَك نفسَه، وابتسم ابتسامةً خفيفة، بينما كانت تبتسمُ له ابتسامةً واثقة وثابتة.

تردّد قليلًا في أن يتجاهلها كأنّه لا يعرفها، ولكنّه موقنٌ أنّها ستقتحمه كما كانت تفعل في الماضي، وقبل أن تبادره بادرَها، مبتسمًا لها بتحدٍّ، وبمجرّد أن جلسوا قال:

– إذًا.. نحن نتعامل مع شركة يهودية؟!!

ابتسمت سارة وهي تضع ساقًا على ساق:

- مازلت كما أنتَ يا دكتور حسام؛ لم تتغيّر، برغم سنوات العمر التي تركت آثارها على وجْهك.

- وما الذي يجعلني أتغيّر!! ولا شيء حولي يتغيّر، حلَّ السّلام الزائف، وتوقّفت الحرب، وتغيّر كلّ شيء في الوطن، ولكنْ للأسوأ.

- لا تريد أن تفهم بعدَ هذه السنوات أنَّ الدنيا قد تغيّرت بالفعل، والسياسة تتقلّب وتدور مع المَصالح، فيصير الأعداءُ أصدقاء في لحظة، ولولا عقلك المتحجّر لكانَ لك شأنٌ ملء السّمع والبصر في العالم.

الحاجّ محمود في حالةِ ذهولٍ من الحوار المفاجئ والصّادم، وباقي الجلوس كذلك مندهشون، فيما كان حسام يبتسمُ بأسى:

- الآنَ عرفت سرّ استئجار أرضنا بالذّات بهذا الإيجار المبالَغ فيه، ومدى الإصرار على تجديد عقد الإيجار.

- حسام...

انتبه على نداء أبيه، فالتفتَ له فوجد في عينيه سؤالًا يريد له جوابًا، ماذا يدور في المضْيَفة!!؟ فقال له وقد أشار بيدِه لها:

- هذه سارة، زميلةٌ قديمة، كانت في فريقي البحثي أثناء بعثتي لأمريكا، وهي يهودية وصهيونيّة متعصّبة، تنتمي لدولةٍ لقيطة تسمّى إسرائيل،

وهؤلاء لا أعرفهم، ولكني أستطيعُ التّخمين أنّ الثلاثة عرب من دولٍ مختلفة، أحدُهم من مصر بالتّأكيد لزوم الشراكة حسبَ قوانين الاستثمار، وربّما الآخر من دولةٍ خليجية، والثالث.. لا أدري، ولكنّه بالتأكيد من مكانٍ ما، من المحيط الأطلسي، إلى الخليج العربي.

ردّ الثالث بوجْهٍ متجهّم:

- اسمُه الخليج الفارسي.

ابتسم حسام:

- والثّالث بالتأكيد ليس عربيًّا كما كُنتُ متصوّرًا، ولكنّه إيراني.

الحاجّ محمود في حالةٍ من الصّمت المذْهول، لا يعرف ماذا يقول، ولا كيف يقول؛ فاعتصم بالصّمت وهو يحوقل ويحدّث نفسه: ألا لعنةُ الله عليكم أجمعين، تاركًا لابنه الحديث.

قالتْ سارة وعلى شفتيها ابتسامةٌ باردة:

- بغضّ النّظر عن تلميحاتك المُهينة لدولةٍ كبيرة ونظيفة ومتقدّمة وديمقراطية مثل إسرائيل، التي تقدّمت وتفوّقت بالرغم من بحْرِ الكراهية والعَداء الذي تعيش فيه، الذي استأجر أرضَكم شركةٌ عالمية، لها فروعٌ في كلّ مكان في العالم، عابرة للقارّات، ميزانيتها تفوق ميزانية عدّة دولٍ مجتمعة من عالمكم الثّالث المتخلّف، وبدأتْ أولى فروعها في مصر بعد توقيع معاهدة

السّلام، وقد قدّمنا لمصر خدماتٍ جليلة في المجال الزراعي، ونحن نعمل في مناطقَ جغرافيةٍ كثيرة على مستوى القطر المصري، التجارة العالمية الآن تدير كلّ شيء.

ردّ حسام ساخرًا:

– نودّ أن نشكركم على الستّ جليلة، فقد صرْنا من الدول المتقدمة في التعليم والصحة والزّراعة.

ابتسمت:

– بالمناسبة، سنسلّمك الأرض في موعدها، ولو أحببت أن تتسلّمها الآن يمكننا التنازل عن الشّهور المتبقيّة لنا فيها، بالمحاصيل الزراعية التي عليها، ولكنّك ستدور في فلكِنا شئتَ أم أبيْت؛ البذور، والسّماد، والكيماويات، وكلّ ما يتعلّق بالزراعة في مصر، حتى نوعيّة المحاصيل، وكمّياتها، ونحن مَن يتحكّم في أسعارها، وقريبًا جدًّا ستكون المياه، لن تستطيع حتّى ريّ أرضك من النيل إلّا إذا سمحنا لك بذلك.

كانت سارة تتكلّم بثقةٍ مُفرطة، وقوّة متمكّنة، وهي تهزّ ساقها بفستانها القصير، كأنّها سلاح، يشهرُهُ المغتصبُ في وجْه الضحية.

– نعم، هكذا إذًا تُدار اللعبة، ولكنْ إلى كمْ سيستمرّ ذلك!!؟ كلّ شيءٍ مهما طال بقاؤه، فلا بدّ أن يتغيّر في وقتٍ ما، في لحظة واحدةٍ لا تخطرْ على بال أحدٍ يرتفع فيضانث الغضب ليغرق كلّ شيء.

– حتّى هذه نتحسّب لها، وكلّ البدائل المحْتملة نُصب أعيننا، ولدينا القدرة الفائقة على تحويل كلّ أزمةٍ نواجهها لفرصةٍ ثمينة، لدينا البدائل، والأجهزة، والمخطّطات، والعملاء، ومليارات الدّولارات، التي نسيطر بها على الجميع، حتى على مجرى النّهر نفسه حين يفيضُ بالغضب.

بُهتَ حسام، وأنفاسُه تلهث كأنّه يجري في مضمارِ سباق، لا يرى له نهايةً وشيكة، آه يا سارة، مازلتِ كما أنت برغم مرور السنين علينا.

– فكّرْ قليلًا، ربّما تعيد حساباتك، وتفكّر في تجديد العقد معنا، يمكننا مضاعفةُ الإيجار.

– لا، لن أجدّد العقد، حتى لو تركتُ الأرض للبوار.

ضحكتْ سارة ضحكةً مجلجِلة، تردّد صداها في الدار، حتى أنّ أمّ حسام انتبهت لها من الخارج، فقطبت جبينَها وهي تستعيذُ بالله من الشيطان الرجيم.

– من النادر أن تتكرّر نفس الفرص الكبيرة في حياةِ إنسان، وقد عادت لتتكرّر معك.

في عناد:

– في الموعد المحدّد لتسليم أرضي سآخذها حتى ولو سالتْ دمائي عليها.

عادت سارة للضّحك:

– مازلت تردّد الشّعارات الوطنية البالية، لم يعدْ هناك شيء اسمه وطن، صار العالم كلّه بلا حدود، الوطن هو ما تربحه، هو ما يُدخِلُ لك السّعادة والراحة، والأمان.

– وإسرائيل كذلك لم تعدْ وطنًا؟ هل أصبحت مشاعًا هي الأخرى للجميع؟!!.

نظرتْ إليه بتحدٍّ:

– إسرائيل هي الوطن الأمّ الذي يحكم العالم، هي مركزُ الثقل الذي يُديرُ كلّ ذلك؛ التجارة العالمية، شبكات الإعلام والإعلان، البترول، السّلاح، وكلّ ما يدير الرؤوس، العالم كلّه يدورُ في فلكها، فكّر يا حسام، انفض التّراب والغشاوة من عقلك، وانسَ الماضي اللعين، ودعْنا نفتح صفحةً جديدة، دعِ الأيام تمضي هادئة ليتيسّر لك الزّواج من حبيبة القلب عزّة.

كانت تقول كلماتِها الأخيرة وهي تسدّد نظراتها بقوّة إليه، كآخر أملٍ لها في إثنائه عن قراره.

ارتجفَ من داخله، نفسُ المشاعر المؤلمة تحاول اجتياح حصونِه التي رمّمتها عزّة وجعلتها قويّة صلبة كما كانت، ولكنّه تمالَك نفسَه، وتجاهل ما قالته سارة، وقال متجاوزًا خوفَه بالمواجهة الحتميّة:

– انتهى النقاشُ بيننا.

ثمّ قام كأنّه ينهي الزيارة، فبادره المصري:

– دكتور حسام، نحن ضيوفُك، إنّنا لم نشربِ الشاي حتّى!! ثمّ نحن لم نتكلّم معك بعد، هناك تفاصيلُ كثيرة يجب أن نتناقش فيها.

فيما كان الإيراني يميل برأسِه لسارة ويتهامسان، وقف الخليجي وربتَ على كتف حسام:

– نحنُ ضيوفك يا رجل، ومهْما كان بيننا من خلافات، علينا أن نتجاوزها، وقد جئنا إليك ومعنا عرضٌ جديد لك، الأرض أمرُها سهل، وطالما أنّك تريد استعادتها فلا مانع لدينا، فكّر فقط فيما سنعرضه عليك.

أخيرًا، تكلّم الحاجّ محمود:

– اجلسْ يا ولدي، واهدأ قليلًا، هؤلاء ضيوفٌ عندنا، ولهم حقّ وواجب علينا.

ثمّ استأذن في الانصراف استعدادًا لصلاة الظهر، فيما دخلت الخادم بالفطير المشلتت الساخن الذي طلبه الضيوفُ بالأمس، ومعه عسلُ النحل، والزّبد والجبن القديم، ومُدّت أمامهم المائدة عامرةً بروائح زكيّة، وأقبل الضيوف يلتهمون الطعام.

كان حسام يختلس النظراتِ لسارة، يا لها من امرأةٍ كالحرباء، يمكنها التلوّن وارتداء ما يحلو لها من الألوان، حتى اللّغة العربية، لم تتركها وتعلّمتها لتتحدّث بها كأنّها عربية أصيلة، لم تزل ناضرةً وجميلة ومُغرية كما كانت، رغم تقدّم السنّ بها، ولكنّه لم يزدْ أنوثتها إلّا ضراوة، نظر للرّجال حولها، وقال في نفسه: تُرى هل تذوّقوا من سمّها الحلو؟ بالتأكيد، فلا يمكنها التحكّم بهؤلاء إلّا بشهوات الرّجال اللعينة؛ الجنس والسلطة والمال، لطالما كنتِ يا سارة تلتفّين بهدوء ناعمٍ وقوي حول فريستك، ثمّ تخنقينها وتبتلعينها.

نظرتْ إليه سارة، وقالت برقّة:

- طعامُكم رائع، ألا يمكن أن يكون العيشُ والملح بيننا وسيلةً للتقارب؟!!

وقبل أن يردّ عاجله العربي:

- نحن نطمعُ أن تدخلَ في شراكتنا لنستفيد بخبرتِك في مجال أعمالنا، لقد علمتُ من سارة، كم كنتَ عبقريًّا في مجالك.

- بالفعل، كنت عبقريًّا، وغبيًّا في الوقت ذاته.

ضحكَ المصري بصوتٍ عالٍ:

- نأمل أنّك بعد هذا العمر أن تكون قد تجاوزت غباءك، وتدرك ما فاتك من خلال شراكتنا.

- نعمْ بالتأكيد سأتداركُ غبائي الذي أوصلني إلى ما أنا فيه.

فهمتْ سارة مرادَه، وواصلت مضغَ الطّعام مبتسمة، فقال موجّهًا حديثه لها:

- بالمناسبة، هل استفدتُم من الأفكار والمعلومات التي أخذتموها منّي في المعتقل؟

ابتسمت:

- لقد كانت أعظمَ هديةٍ أتت لنا من أصدقائنا المصريّين، محبّي السّلام.

- ولكن يبقى السّؤالُ الأهمّ.. هل طبّقتها شركاتكم عابرةُ القارات في الدول النامية.

- بالطبع لا، مشاريعك مُكلّفة، ولا ينتج عنها توابع نفعيّة لشركاتنا الأخرى، لقد استفدنا بها في بعض المناطق في العالم، لأولئك الذين يدفعون أكثر.

- تلك كانت النّقطة الفاصلة بيننا، كيف نفهم فكرة السّلام، كيف نوفّر الدّماء لمزيدٍ من الاسْتهلاك، والأمراض، لتدارَ تجاراتكم العالمية في كلّ شيء.

- تفهمُ أكثر ممّا ينبغي، كان هذا عيبَك القاتل دائمًا.

- كيف عرفتم بشأن عزّة؟

- هذا سؤالٌ ساذج، لا يليق بذكائك، ولكنْ اعْلمْ أنّنا لا ننام، ولا نغفل لحظة، لقد وعينا دروسَ التّاريخ، وقرأنا الجغرافيا بعمق، ونرقب كلّ التّفاصيل الصغيرة بنفس الاهتمام حين نتابع الكبيرة، ونعمل بعيونٍ مفتوحة على اتّساعها ضدّ كلّ ما يهدّد وجودنا، حتى ولو كان طفلًا صغيرًا يهتف ضدّنا في مظاهرة.

فاطمة وعزّة

في المساء، كان حسام قد حلَّ ضيفًا على الخال رأفت في زيارةٍ مفاجئة، وطلب منه- بإصرار- أن يتمّ عقد قرانه على عزّة يومَ الغد، وبعد جدال قصير، وافق الخال رأفت على أن يُعقد القران في الغدِ بعد صلاة المغرب في منزله، وأنْ يعلَن ذلك لفاطمة وأخوة عزّة وأولادها، مع دعوتهم لحضور عقد القران.

كان يريدُ أن يتحرّك بشكلٍ أسرع، يعرف أنّه يسابق شيئًا ما يخاف منه، خاصّة بعد زيارة سارة وشركائها، يريد أن يشعرَ بأنّه انتصرَ حتّى ولو كان الثمنُ حياته، يريد أن يستعيد تلك القوة الدّافعة لإحداث أثرٍ في الحياة، كأيّ نبتة في الوجود تشقّ- بكلّ ضعفها- التربةَ القويّة لتقابل نورَ الشّمس، فتبتهج الحياةُ لمطلعها، حتى ولو صارتْ في النهاية طعامًا لحيوانٍ يحرث الأرض.

يتصارعُ في قلب عزّة الحزنُ والفرح، حزنُها يغلب كلّما تذكّرت أمّها، وفرحُها يعلو كلّما تخيلت أنّها ستكون لحسام، وستكون بهجة مغلفة بالشّجن.

اتّصل بها حسام بعد الظهر، وفاجأها:

- عزّة، الوقت المتبقّي لدينا قليل، أنا في الطريق لخالك رأفت، سأطلب منه أن نعقدَ قراننا غدًا إن شاء الله.

- بهذه السّرعة؟!! أنا لم أتجهّز لشيء.

- عجبتُ لك، تندفعين نحْوي كالطوفان، متّهمة إيّاي بالخوف والتردّد، وحين أفتح أبوابي كلّها على مصراعيها، تقولين مندهشة، أنا لم أتجهّز لشيء!!

قال جُملتَه الأخيرة وهو يقلّد طريقتها؛ ممّا جعلها تضحك، ثمّ قالت:

- كما تحبّ يا سيّدي وتأمر، اذهبْ لخالي رأفت، وما ستتّفقان عليه سأنفّذه دون تردّد.

أغلقتِ الهاتف مع حسام واتّصلت بأشجان وطلبتْ أن تأتيها على الفور.. جاءت، ودخلت على عزّة غرفتَها متساءلة، فالتفتتْ لها وقالت وعيونُها مُغْرورقة بالدّموع:

- أشجان، تعالي احْضنيني، احضنيني بقوّة.

ضمّتها وقالت:

– تعالي يا توأمَ الرّوح.

وفي حِضْنها:

– أشجان، سأتزوّج غدًا، وسيحملني حسامُ إلى بيته، وعليك أن تجهّزيني للزّواج، أنا مرتبكة جدًّا، وأشعر أنّني بنت بكْر، ولأوّل مرّة سأتزوّج، هل سيكفي الوقت؟!!

– سيكفي يا عروسة، وبالمرّة.. أقولُ لك ماذا تفعلينَ في ليلة الدّخلة مع زوجك!!

قالت جُملتها الأخيرة وهي تغمزُها بيدها في خصْرها، وتضحك بلؤمٍ نسائي، فقالت لها عزّة:

– قلّة أدبك.. هذه عادتك، أم ستشترينها؟!!

اتّصل حسام بوليد وعمرو، وأخبرهما بنيّته على عقد القران، وطلبَ منهما الحضور في الغد باكرًا؛ لأنّه سيحتاجُهما في أمورٍ كثيرة قبْلَ عقد القران.

وعاد حسام لوالديه، وأخبرَهما بنيّته عقد القران في الغد، وعليهما أن يتجهّزا للذهاب معه، فقالت أمّه:

– ولكنّي لم أرَ العروس حتى الآن، ولا أعرف عنها شيئًا سوى ما تحدّث لي به أبوك، وبعض الكلمات التي أقتنصُها مِن فمِك بصعوبة، كالثمار في النخل العالي.

ابتسم الأبُ لحسام:

- ردّ على أمّك إن استطعتْ.

فبادله الابتسام، وقال التّكنولوجيا الحديثة تكفّلت بذلك، وأخرج لها صورةً من هاتفه، وما إنْ رأتها حتّى استبشر وجهُها، وضحكت:

- حلوة، ولكنّك بالطبع أحْلى منها، أين ستجدُ امرأةٌ عريسًا مثلك!!

وتبادل الرّجلان ضحكاتٍ سعيدة.

اختلى الأبُ بابنه، وقد تحدّث الحاجّ محمود بما لا يستطيع التحدّث به أمام أمّه:

- أشعرُ يا ولدي أنّك دخلت مضمارَ سباق، وتريد أن يتمّ كلّ شيء بسرعة، خاصّة بعد لقائك مع الشّركة.

تجنّب الحديث عن تهديداتِ سارة له، مخافة أنْ يتراجع أبوه:

- أشعرُ أنّ انتظارنا لا طائلَ منه، سنعقد القران غدًا، ثمّ نشرع في تجهيز ما سنحتاج له، أريدُ أن تكونَ عزّة بجواري هذه الفترة، أنتَ لا تعرف يا أبي كم تمدّني هذه المرأة بتلك القوّة الهائلة التي تجعلني قادرًا على مواجهة الدنيا.

ابتسم الحاجّ محمود:

- يبدو أنك مُقدم على مواجهة صعبة.

سكت حسام، بينما تنهّد الأب:

- أنا معك في كلّ ما تنتوي الإقدامَ عليه، وسأكون سندَك، ولن أدعوكَ للتّراجع، يبدو أنّ الله تعالى قد منحنَا فرصةً أخرى لنحيا بكرامة، ونرفعَ رؤوسنا كما كُنّا في الماضي.

مازال الحاجّ محمود يملك مفاتيحَ ابنه، ويعرف جيدًا ما يفكّر فيه، ومدى الصعاب التي قد تواجهه، ابتسم له ليطمئنه:

- لو أحببتَ أن تحمل عروسك بعد العقد للبيت فلا مانع، فقد جهّزت لك الغرفة الشرقية بالدّور العلوي، فهي جناحٌ منعزل تقريبًا عن باقي الدار، واشتريتُ لك غرفةَ نوم جديدة، وجدّدت الحمّام، وقلتُ أجعلها لك مفاجأة، من لحظة ما كلّمتني وبدأتُ مباشرةً في ترتيب كلّ شيء، تزوّج ثمّ ترتيب البيت للأولاد جميعًا سيكون سهلًا هيّنًا إن شاء الله.

انكبَّ حسام على يدي أبيه فقبّلهما، ثمّ عانق أباه بعمق، ممتنًّا شاكرًا له معروفه، دفعه الأب:

- لا أريدك أن تشكرني يا ولدي، فقط سامحني.

في المساء، طرقت عزّة بَابَ أمّها فلم تُجب، فأدارت مشقْود الباب ودخلت عليها، فوجدتها وقد تمدّدت في سريرها، وقد أخذتها غفوةٌ من النوم، ووضعت كفّيها على صدرها تحتضن صورة، ظلّت عزّة واقفة، ثمّ تنحنحت؛ فاستيقظتْ فاطمة منتبهةً فاعتدلت جالسة، وسحبت الصورة،

ووضعتْها تحت وسادتها حتى لا تراها، ثمّ رفعت رأسَها فوجدت ابنتَها ماثلة في وقفتها كطفلةٍ صغيرة ارتكبتْ جُرمًا، وأتت لترضّى أمّها:

– أمّي، بالتأكيد أخطأت في حقّك، ربّما كنت طفلة، أو مراهقة، أو عقلي يسبق سنّي كما كنت تقولين لتبرّري جريمتي، ومع ذلك.. أنا لا أملك إلّا أن أعترف بخطئي، وأريد الاعتذار منْك، وطلبَ رضاك، هذا ما أملكه، لا أحد يملك إعادة الأيّام للوراءِ وإصلاح خطاياه، ولذلك جعل الله الندمَ الصّادق يساوي إعادة الأيّام للوراء ليستقبل خطيئة عبده بالرحمة والمغفرة.

خفضتْ فاطمة رأسَها، ومازالت بوجهها الجامد، بلا أيّ ردّ فعل، بينما تواصل عزّة الاقتراب منها، فجلست على طرف السرير:

– وأنت أمّ، ولا يوجد أمّ مهْما كانت غاضبة أو قاسية، أو فعل أولادها بها ما يسوؤها؛ إلّا والغفرانُ والرضا يكونان أقربَ لها من الغضب، حتى ولو تملّكها وسيطر عليها.

طأطأتْ رأسَها وانخفضَ صوتها، وانسالت دمعةٌ على خدّها:

– سيُعقد قراني غدًا يا أمّي، ويعزّ عليّ ويهزّ كياني ألّا تكوني معي، أرجوك، لا تجعليني أقفُ وحدي هذا الموقف، لو جاءتني الدّنيا كلّها غدًا، فلنْ تغنيني عن وجودك بجواري.

ثمّ قامت فقبّلت يديها ورأسَها وانصرفت، وما أنْ أغلقت عزّة الباب خلفها إلّا ومدّت فاطمة يدها، فأخرجت صورةَ زوجها الشّهيد حسن النشّار فقبّلتها، وضمّتها لصدرها، وبكتْ بحرقة.

صباح يوم عقد القران

اجتمع الأصدقاءُ الثّلاثة في منزل حسام منذ الصّباح الباكر، فما كانا ليتأخّرا عن صديق العمر أبدًا، ظلّ حسام طوالَ حياتهما هو القدرَ الذي يجمعهما، نقطة الالتقاء، ولولاه ربّما كان وليد وعمرو قد افترقا منذ زمنٍ بعيد، جمعتْهما الطفولةُ البريئة، ولهوُ الأطفال، والأرض، وجني القطن، وعشق غيطان القمح، وصيد البلطي والقراميط من مصرف الأرز، وتفرّقا في مرحلة الشّباب، وما كان يجمعهما إلّا حسام، حتى أزماته الكبرى جعلتهما دائمًا متواجدين، قريبين، يعتمد عليهما الحاجّ محمود ليسندا "حسام" قبل لحظات من انْهياراته المتعددة..

بعد أنِ انتهى حسام من سردِ حكاية زيارة سارة والشركة العالمية، ساد صمتٌ غاضب، تنهّد عمرو وهو يتطلّع لنظرة وليد الشّاردة المتوجسة ممّا تحمله الأيام القادمة، وقال:

– ماذا يا وليد!! إلى أين ذهبت؟

– إلى ما تذهب إليه ياعمرو.

تدخّل حسام وقد جلس بجلبابه الفضفاض، متكئًا براحة ودعة:

– ليست لغزًا، ستذهبان معي لحضور عقد زواجي.

ملأتْ قهقهات الأصدقاء الأجْواء، ثمّ قال عمرو:

– كلٌّ يغنّي على ليلاه.

وليد بمكرٍ هامس:

- هل استعدّ العريس جيدًا لتلك الليلة!!؟

عمرو:

- لديّ وصفةٌ لا تخيب.

- دعْك من وصفات مولانا الشّيخ حفظه الله، الحبّة الزرقاء جَبّتْ كلّ الوصفات، وأنقذت جنس الرّجال من الانهيار.

اعتدل حسام:

- صديقُكما لا يحتاج لكلّ ذلك، لا وصفات، ولا حبوب زرقاء ولا حتى حمراء، النهر يزوم بغضب، والسّدود الصامدة منذ سنواتٍ طويلة أصبحت متهالكة، وستنهار حتماً اللّيلة.

وعلتِ الضحكات، حتى سمعت صداها أمّ حسام، والتي رفعت رأسَها للسماء، وبرجاء حارق: اللّهم اجْعله خير يارب.

عمرو:

- سبحان الله، فيما يظنّ الواحد منّا أنّ الحياة تتحرّك من حولنا ونحن ثابتون في مواقعنا، إلّا أنّنا نكتشف كلّ يوم أنّ حركتنا هي الحقيقة التي تُحرّك العالم.

كعادته عمرو، يبدأ حديثَه من دائرة واسعة، تجعل حسام يفكّر فيما يقصد، بينما وليد يلتفت مبتسماً لأنّه بالتأكيد يفهم ماذا يقصد عمرو، فقال:

- بينما أنت غارقٌ في حكايتك تقوم ثورةٌ في تونس قويّة تطيح بنظام بن علي، فيتمدّد أثرها في أرجاء الوطن العربي لدرجة أنك تشعر بذلك النهر

الذي يزوم بغضبٍ، وتوشك السّدود التي صمدتْ طويلًا أن تنهار أمام حركة الشعوب في الوطن العربي.

وقبل أن يردّ حسام عليهما مبتسمًا من مقابلةِ كلمات وليد مع كلماته، التقط عمرو طرفَ الخيط:

– وفيمَ أنت تتحرّك كفردٍ لاستعادة أرضك تتحرك شركةٌ عالمية عابرة للقارات لك، هل تظنّ أنّ مطالبتك بأرضك أمرٌ سهْل عليها!! هذه المطالبة هي نسبةٌ وعي زائدةٌ عن الحدّ المطلوب.

– ثمّ ماذا؟!!

– لا أظنّ هذا العام، ونحنُ مازلنا في بدايته، سيمرّ هكذا عليلًا كليلًا كالسنوات الماضية، ما يبدو في الأفق يُنذرُ بتغيرات جذرية.

– هناك تحرّك واسعٌ للشباب على شبكات التّواصل، قويّ جدًّا ومستمرّ، وأظنّه لن يهدأ قبل حدوثِ شيء كبير.

– سبحان الله، أولادي جميعهم وأولادُ وليد، في حالة نضجٍ سياسي وانفتاح غير مسبوق، لدرجةِ أنّنا لا نستطيع السيطرة عليهم، أو منعهم.

– ومريم كذلك وأسامة ابنُ عزّة، ومحيط كبير من الشباب حولنا.

– لم يعدْ يفصلنا غير أيام قليلة على يوم ٢٥ يناير.

– ترى كيف ستواجه الأجهزةُ الأمنية ذلك؟

– للأسف هذه الأجهزة لا تعرف في عالمنا المتخلّف غير لغة البطش، وهي تأتي لهم بنتائج مدهشة.

دخلت فجأة أمّ حسام:

- الطعامُ جاهزٌ يا أولادي، الوقت ضيّق وأنتم غارقون في الكلام عن المدعوّة السياسة.

تبسّموا لها مرحّبين بها، ثمّ قاموا جميعًا لينضمّوا للحاجّ محمود على وليمة كبيرة من الحَمَام.

***

الجوّ العام في منزل الخال رأفت مُريح، وبه سكينةٌ ووقار تستعدّان للابْتسام السعيد، وزغاريد معلّقة على أفواه النساء تنتظر الانتهاء من عقد القران.

ينظر الحاجّ محمود إلى ولده، ويشعر أنّ الزمن عادَ به للوراء، وأنّ ابنه عاد شابًّا صغيرًا، في حلّته السّوداء وقميصِه الشّاهق البياض، وشعره المنمّق بعناية، ووجهِه الودود، ملأت الراحة قلبَه، وظلّ يردّد بعض الذّكر لكي يسيطر على السّعادة التي تريد أن تقفز بقلبه ليطير إلى الفضاء الرّحيب.

مريم تجلس بجوار جدّها، ملتصقةً به، تداري فيه اضطرابها، صحيح أنّه طمأنَها، وأجاب على كلّ أسئلتها بالمنطق، ولكنْ منذ متى كان المنطقُ يريح المرأة، ولكنّها تتكئ على قوّة جدّها وحبّها لأبيها، رأت عزّة حين دخلت مع جدّتها حرمَ النّساء، خافت أكثر، بالرّغم من الاستقبال الحميم من عزّة، ومن سلوى ابنتها، وكل النّساء بالبيت، رأتها امرأةً جميلة، ويمكن أن تأخذ أباها منها، لم تحتملِ الجلوس مع النّساء، تصنّعت بعض الابتسام، ثمّ تسلّلت أثناء

انشغال الجميع وخرجت لتجلسَ بجوار جدّها، ناداها حسام وقد قرأ كلّ التفاصيل التي تمور بداخلها وقبّلها مبتسماً، وهمس لها:

- ما الذي أتى بالجميلة لتجلس وسطَ الرّجال!! هل تبحث عن عريس؟

ابتسمت لمازحته وقبّلته، وبنفس الهمس:

- لا عريس يملأ عيني، وأنت هنا.

ثمّ انفلتت عائدة لجدّها ملتصقة به.

أدخلوا أمّ حسام إلى مضيفة النّساء، وحينما رأتها عزّة أقْبلت عليها، وضمّتها، فانحنت وقبّلت يدَها، وكذلك فعلتْ باقي النّساء، والأمّ في فرطٍ من البهجة والسعادة، رأت عزّة جميلة الجميلات، وأجلسوها وتحلّقنَ حولها، مرحّبات بها، ثمّ أقبل خالها رأفت فجأة، ضمّها وقبّلها في جبينها وقال:

- لقد أتى المأذون.

خفق قلبُ عزّة، وابتسمت لتداري اضطرابها:

- وهل جئت لأوكلك بالموافقة؟

- نعم.

- هل يمكنني أن أحضر العقد، وتضع يدَك في يد حسام، وحينما يسأل المأذون عن موافقتي أجيبُ أنا؟

- نعم يُمكنك.

تعلّقت برقبته كالأطفال وأمطرته بالقُبَل:

- لطالما كنتَ حبيبي وصديقي، وأبي وأمّي.

تحلّق الجميع حول المأذون، وزالتِ الحواجز وانْقسمت الصّالة الفسيحة لقسمين بين الرجال والنّساء، نظرت عزّة لحسام نظرةً ملأت عينيها وكيانها كلّه منه، هذا الرّجل سيكون ملكي أخيرًا بعد بضعِ دقائق.

أمّا حسام، فلم يكنْ يرَ شيئًا برغم التفاف الجميع حولهم، حاول أن يتطلّع ليرى عزّة، ولكنّه لفرط اضطرابه لم يرَها، برغم مرور عينيه على الحضور كلّهم، أحسّت عزّة بأنّ عيون حسام تبحث عنها، فرفعت يدَها ملوّحة له، فانتبه للتّلويح، ورآها.. فأشرق وجهه بابتسامة مطمئنة.

بدأ المأذون في إلقاء مقدّمة خطبة الزّواج بصوتٍ فصيح، نديّ جميل، وحلّت الملائكة، ومعها قدرٌ من الخشوع والسّكينة الطيبة مع تلاوة آيات الله، وأحاديث النبي- صلى الله عليه وسلم- في فضل الزّواج والتحبيب فيه.

جوّ من الرحمة يغشى الحضور، قطعته أشجان حين مالتْ إلى عزّة، وبهمسٍ سريع:

- عزّة، أمّك هنا.

التفتت عزّة بسرعةٍ ناحية الباب، فوجدت أمّها تتوسّط أسامة وأخويْها، وقد أقبلتْ مبتسمة متدفّقة بالحنان، فاتحةً ذراعيْها، فصرخت بسعادة:

- أمّي....

وجرتْ ناحيتها، أحدثت حركتُها جلبةً قويّة، جعلت المأذون يتوقّف، والتفت الجميعُ ناحية عزّة التي ارْتمت في حضن أمّها، وانسالت الدّموع من العيون، وفاطمة تضمّها وتربتُ على خدّيها، وتقبّلها:

- ألفُ مبروك يا حبيبتي.

وأقبل أسامة على أمّه فضمّها وقبّل يديها، وكذلك عماد وأسماء، وعزّة لا تصدق تلك السعادة التي ازْدادت واتّسعت فجأة بأبعد ممّا حلمتْ وتمنّت، ثمّ أقبلت الأمّ على حسام فسلّمت عليه وباركت له، والتفتت للمأذون:

- أكملْ يا مولانا، أنا أمّ العروس، أعتذر إنْ أتيت متأخّرة، ولكنِ الحمد لله، أدركنا الوقت برحمةِ الله وفضله.

ثمّ جلست بجوار رأفت الذي قبّل رأسها وباركَ لها، وعادوا للتحلّق، وعادت السكينة والرّحمات، تملأ المجلس، نظرَ المأذون إلى عزّة، وقال بصوتٍ بشوش مبتسم:

- عزّة بنت حسن سعد النّشار، هل تقبلين الزّواج من حسام محمود عبد اللطيف المصري، على سُنّة الله ورسوله، وعلى مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان؟

وقفتْ عزّة، كأنّها في اختبار العام النّهائي للحزن، وقالت بطربٍ سعيد:

- نعمْ يا سيدي، أقبَلُ الزّواج من حسام محمود عبد اللطيف المصري على سُنّة الله ورسوله، وعلى مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان؟

نظرَ المأذون لحسام:

- حسام محمود عبد اللطيف، هل قبشلْت؟

وقفَ حسام كذلك وواجه عزّة مبتسمًا:

- نعمْ يا سيّدي قبلتُ، ومَن لا يقبل بنتَ الحسبِ والنّسب والأصول، ست النّساء عزّة بنت الشّهيد حسن سعد النشار.

قال المأذون بصوتٍ جَهْوري:

- إذًا، نُعلِنُ أَمامَ مَن شهدوا هذا العقدَ الطيب المبارك زواجكما، بارك الله لكما وبارك عليكما وجمع بينكما في خير.

وانطلقت الزّغاريد والأغاني المبهجة من مكبّر صوت صغير داخل البيت، تبادل حسام وعزّة الكثيرَ من النّظرات التي تترجم كلّ الأشواق المخبوءة، ووزّع الشربات، وانهالت التبريكات والدّعوات والقُبُلات، وفي غمرة السّعادة والأحاديث المبهجة، مالت فاطمة إلى عزّة وربتت على خدّها:

- سامحيني يا عزّة.

وضعت يدَها على فم أمّها مداعبة:

- سأسامحك إذا عرفت صورةَ مَن التي كنت تخبئينها منّي.

ابتسمت فاطمة:

- لا تفوّتين شيئًا أبدًا؟

وأخرجتِ الصورة من حقيبتها، فأخذتها عزّة، وابتسمت دامعة وقبّلتها:

- رحمَه الله، كنت أعرفُ أنّها صورته.

- جاءني في المنام ليلةَ أمس، ونظر إليَّ معاتبًا على غير عادته عندما يأتيني، وقال: لا تتركي عزّة وحدَها، يكفي أنني لستُ معها.

استدارت دمعةٌ رقيقة على خدّ عزّة، فمسحتها:

- لا دموع الليلة، انتبهي لزوجك؛ فهو رجلٌ مُحترم، ضَعيه في عينيك.

ليلة الزّفاف

ترتسمُ الخيالات دائمًا في عقول كلّ مَن يحضرون ليالي الزفاف، ويتخيّلون بخدرٍ لذيذ، وشهوات خفيّة ما يحدثُ ليلة الدخلة بين العريس والعروس، وتنطلق الآهاتُ من صدور العزّاب، والمتزوّجين؛ الرّجال والنساء على حدّ سواء، آهات التمنّي بتكرار بهجة تلك الليلة، حتى وليد وعمرو، تحدّثا وهُما عائدَيْن للقاهرة في الطريق بابتسام ذكوري عن شوقهما لإحياء تلك الليلة مرّةً أخرى برغم تجاوزهما الخمسينَ، وقال عمرو متبسّمًا بالكلمات:

- كان على الذي اخترع المثل.. "يموت الزمّار وأصابعه تلعب"؛ أن يقول.. "يموت الرجال وقلوبُهم تتشهّى".

فيتجاوب معه وليد:

- ومَن سمعك؟!

يتدثّر الجميعُ بالخيالات اللّذيذة إلّا حسام وعزّة، فقد كانا في يقين الحقيقة حين اختليا أخيرًا ببعضهما.

لا أحد سيصدّق تلك الصورة التي كانا عليها مهْما تخيّلَوا أو تحدّثوا همسًا في مجالس الخلوات.

على سريرهما الواسع الرّحيب، متواجهان، بينهما مسافةٌ قريبة جدًّا، تجعل أنفاس الحبّ بينهما حائرة، يتبادلان صمتًا دافئًا، ونظراتٍ مرتخيةً وادعة، واطمئنانٌ بالقرب يغمرهما، لم يتلامسا بعد، هل لأنّهما لا يصدّقان أنّهما تزوّجا؟! أو ربما يغلب عليهما ظنّ الأحلام فيخافا أن يستيقظا على حقيقةٍ أخرى، من المحتمل أنّهما يستمتعان بالهمس المقتربِ على غيمات اللهفة، كلّ الاحتمالات واردة، وقد جمعهما غِطاءٌ واحدٌ وصل لمنتصفِهما، تتبادل العيون كلامًا كثيرًا، همستْ عزّة:

- حسام..

- ماذا؟!!

- السّعادة اليوم لا توصَف، فأحداثها كُلها حلوة.

- كانَ كلّ شيءٍ جميلًا، سواء ما رتّبنا له، وكذلك كلّ ما أتانا به القدرُ السّعيد، وصار أجمل بحضور أمِّكِ، كانت مفاجأتُها مدهشة.

- مازلت حتى الآن لا أصدّق أنها جاءت.

- الحمدُ لله، اكتمل الفرح بقدومها.

- حسام..

- ماذا؟!!

- لا أخافُ في هذه الحياة أكثر ما أخاف من اكتمال الأشياء.

ابتسم:

- اطمئنّي، لم تكتمل السّعادة بعد، مازال الطريقُ فيها طويلًا حتى تكتمل، وساعتها سنجلس لنخاف معًا.

اتّسعت الابتسامة على وجه الحبّ:

- محترفٌ أنتَ في طمأنتي.

بادلها بابتسامة واثقة، ثمّ عادت تناديه:

- حسام..

تنهّدَ وقال:

- ماذا؟!!

- لم تقلْ لي ولا مرّة أحبّك منذ أن تعارفنا.

- نعمْ هذا حقيقي.

- وتعترف؟!!

- نعم أعترف.

- بهذه البساطة!!

- بهذه البساطة.

قالتْ بدلال:

- ما دفاعك إذًا قبل أن أغضب.

- لأنّ كلمة أحبّك أصغرُ بكثيرٍ من حبّي لك.

- ولكنّي أحبّ أن أسمعها منك.

ابتسم:

- ظننتُ أنّك مختلفة عن كلّ النّساء.

- ولماذا أكون مختلفة!!؟ أنا في النهاية امرأة، وأحبّ ما تحبّ النّساء.

- لا يا عزّة، أنت امرأةٌ نعم، ولكنّك مختلفة في عيني عن كلّ نساء الدنيا.

- وما وجه اختلافي؟

- كأنّني ميت، وجئت أنت كنفخةِ الرّوح الإلهية فأحيتني.

- وأنت كذلك يا حبيبي، كأنّك قَمَرٌ مخفيٌّ خلف غمام الأحزان، فجئت بالنور لتنير دربي وحياتي، وتزيل كلّ همومي.

ابتسم لها برضا، قالت بصوتٍ حالم:

- هناك حكاية لم تكملها لي بعد.

قطب جبينه:

- بعد كلّ هذا بقيت حكاية!!؟

- نعمْ بقيت حكاية.

- أيّ حكاية؟

- عزيزة، أريد أنْ أعرف كيف كانت تبوح لك بأسرارها؟

وضعَ أصبعه على شفتيه، وبهمس:

- ششش.. هذه أسرار.

- ليست على عزّة!!

- سأقول لك باقي القصّة فقط، ستدهشك أكثر.

- احْكِ.

- كان يا ما كان، يا سادة ياكرام، ولا يحلو الكلام إلّا بذكر النبي عليه الصلاة وأزكى السلام.

ابتسمت الطفلةُ مردّدة:

- عليه الصّلاة وأزكى السّلام.

- بعد أن ضحكوا من الطفل حسام، ولم يصدّقوا دعواه بأنّ عزيزة مالتْ إليه وأسرّت له بحبّها وعشقها ليونس، وأنّه يؤلمها أن تتلقّح من فحلِ نخل آخر، وقالت إنّها لن تنجبَ ثمارًا العامَ المقبل؛ طيّب أبوه خاطره، وطبطبً

عليه وهو غير مصدّق، ونسي الجميع الأمرَ حتى استدارَ العام وفي موسم الثمار، لم تنبتْ عزيزة سوى ثمارٍ صغيرة سوداء مُرّة، وتذكّروا كلام الشّاطر حسام وتعجّبوا، ومن يومها آمنوا بحقيقة محبّة عزيزة ليونس، فأعلنوا الزّواج الأبديّ بين النخلتين عزيزة ويونس، ونطعَمُ منها كلّ عام أجملَ الثمار في البلدة كلّها، يومها عانقه عمّ درديري، وحمله على رأسه، ودار به في البلد، كأنّه وليٌّ من أولياء الله، وأحضر له حلوى كثيرةً وقال لأبيه: لهذا الولد سرّ، حماه الله وحفظه من كلّ عينِ حاسد، وتوتة توتة.. فرغتِ الحدّوتة، حلوة، واللّا ملتوتة؟!!

بعيون ناعسةٍ حالمة:

- حلوة مثل كلّ شيء فيك.

تبادلا ابتسامًا هانئًا، ثمّ همست:

- حسام..

- عيون حسام.

- تدري ماذا أريدُ منك الليلة؟!!

- أدري.

اتّسعت ابتسامتُها:

- أحبّ تلك الثّقة الكبيرة، أتمنّى أن تكون إجابتك على نفس مستوى هذه الثقة.

- ستكون.

- أجب إذًا، ماذا تريد عزّة من حسام هذه الليلة؟

- ولي جائزة؟

- أجبْ فقط.

- تريدُ عزّة أن تنامَ الليلة في حضْني، لا شيء غير ذلك، ويغلبها النّعاس في صدري، على صوتِ دقّات قلبي، وأن ترفّ روحي مع روحها بين نجوم الليل، وتسبحان في الفضاء كالأفْلاك، ثمّ يعودا قبل أن يؤذّن ديكُ الصباح، بعد أن تكون عزّة قد شبعتْ من حضن حسام.

- تُدهشني كلّما اقتربتُ منك أكثر.

- إجابتي صحيحة؟

- تستحقّ درجة الإبهار مع مرْتبة الشّرف.

مدّ ذراعه، فرفعت جسدَها وانضمّت بتلقائية إلى صدره الرّحيب، وضمّها بذراعيه، وقبّل جبينها قبلةً أودع فيها كلّ حنانه، وضمّته عزّة والتصقت به، وفي ثوانٍ معدودة، انتظمتْ أنفاسها، فيما ابتسم ابتسامةً تملؤها الرّضا والراحة، واستسلم هو الآخر للنوم.

ما هذه الرّحمة التي يُحدثها صدرُ هذا الرجل؟!! وما هذا البراح الدافئ الذي تألقت روحها فيه حين ضمّها بذراعيه الحانيتين، فجعلها تنامُ ملء جفنيها راضيةً مطمئنّة؟ منذ متى لم تنمْ هكذا؟!!

حسام، يهيم عاشقًا في الأرض، تتدلّى الصّفصافة مرحّبة، تنظر إليه أمّ الشعور بغوايتها الشهيرة، تبتسمُ له الجميزة العتيقة بحبورٍ وقور، يتنقلُ هدهد حولَه مِن غصن إلى غصن، يحمل له رسالة انتظار من مليكة القلب، تسمعها العصافيرُ خلسة، فتنتشر وتغطّي السّماء بسرعة ونزق، تملأ الفضاءَ الرّحب بالزّقزقة، وحسام يبتسمُ لها، ويضع أصبعَه على فمِه، يرجوها أن تحفظ السرّ، تضحك عزيزة، قائلة: مَن يستطيع أن يخفي لواعجَ الهوى!!

مسافةٌ طويلة قطعها الحبيبان سائريْن في أنحاء الأرض، كانت تملأ رئتيها بالخضرة الزاهية، تستمعُ إليه وهو يحدّثها عن كلّ تفاصيل طموحاته، وعن كلّ آماله، ومخاوفه، وعن أمانيه، عن سرّه الدّفين الذي لا يعرفه أحد؛ أنّه يحتفظ ببذورٍ مصريّة أصيلة، نقيّة من الأمراض والعفن لمزروعات كثيرة في مكان آمن لا يعرفه أحد، ستحتاجها الأرضُ في يوم ما وتتهيأ لها، يشير لعزّة قائلًا: هُنا كانت الأرض ترتدي ثوبَ عُرسها الأبيض كلّ عام وقتَ جني القطن، وهنا الأرز، وهناك القمح، في البرّ الغربي، تضحكُ ملء فيها وهو يحكي عن أمنيته بأن يدفَنَ هناك دونَ كفن، والتي أضحكتْ أصحابه، وتندّروا عليه ومازالوا، أمّا هنا فقد حكى لأبيه عن سرّ يونس وعزيزة.

حين ألقى إليها باستحياءٍ عن أمنيته أنْ تأتي بولدٍ منه كفرعٍ من العبقرية ليبدأ مع الأرض مواسم جديدةً للحصاد الكريم؛ ابتسمت عزّة ابتسامةً تفتّحت لها الزهور في الأرض استعدادًا لأن تتحوّل لثمارٍ، وتضرج وجهها، فلفّهما نسيمٌ عابث، نَزِق، داعب قلبيْهما، واشتعلَ الحلم بلقاء يتجاوز أحضان الأمان لغراس الأمل.

نظرتْ إليه أمّه بغضب، حين دلفا من الباب:

- لا يليقُ في صباح العرس أنْ تخرجا هكذا، ماذا يقول الناس؟!!

ابتسم الحاجّ محمود:

- دعيهما يا أمّ حسام.

ثمّ التفت إليهما مرحّبًا مبتهجًا، فيما أقبلا عليه، فقبّلا رأسَه ويده، ثمّ ذهبت عزّة إلى أمّه وضمّتها وقبّلتها قبلتين عميقتين، نسويّتين على خدّيها.

بعد الإفطار، جلس حسام وعزّة على المصطبة خارجَ الدار يتناولان الشّاي، في حين مالت أمّه تهمس في أذن أبيه:

- يا حاجّ محمود، ابنك لم يدخل بعدُ بزوْجته.

بعلامتيْ تعجّب على عينيه:

- وما أدراك يا ستّ الدّار؟!!

- مِن ضمّتها وقُبْلتيْها لي.

اتّسعت ابتسامةُ الحاج محمود:

- يا خبيرة، دعيهما في حالهما، واسألي الله لهما دوام الحبّ والرحمة.

منذ أن همسَ إليها حسام وهُما يجوّلان في الأرض برغبته في أن تنجب له ولدًا، تفتحت مسامّها، وغلّف إحساسها اشتياقٌ ورغبةٌ جارفة، جعلت كلّ تصرّفاتها مضطربة، انتقل ذلك الإحساس لحسام حينما بدأت عزّة-

بشكلٍ لا إرادي- تقترب منه أكثر، تلامس يدَه، تمدّ يدها على كتفه كأنما تنظّفُ قميصه من شيء علقَ به، تتحسّس رأسَه ووجهه، تقترب أكثر لتشمّه بعمق جارف، ودّت لو خاصرها، وضمّها، وأنزل غيثَ قبُلاته على الأرض العطشى للارتواء.

مُتجاوران، يرتشفان الشّاي بهدوء مضطرب، وصمت يصرخُ بالرغبة، حتى قطعه:

- تذكرين أوّل مرة تناولنا فيها الشّاي في المنتزة؟

- ومَن ينسى يا حبيبي!!

- كان طعمُ الشّاي يومَها مثل شروق الشمس على يومٍ جديد.

وضعتْ ظاهر كفّها على فمِها وهي تضحك:

- كنت يومها أبدّل كأسي الشّاي بيننا لأشرب من موضع ما شربْت.

- فعلتِ ذلك؟!

- فعلتُها عدّة مرّات.

اقترب منها أكثر:

- وهل اختلف طعمُ الشاي وقتها؟

التفتتْ إليه وفي عينيها كلّ رجاء الهوى، وفي شفتيها ارتعاشةٌ نزقة، وبصوتٍ أقربَ للنداء الهامس:

- كان يُحيي كلّ شيءٍ ماتَ فيّ.

وقبلَ أن يميل عليها بما رغبت، تناهَى إليهما جلبةٌ بالخارج، وأصوات أناس قادمين، كانت عائلتها كلّها قد أتت.

طارتْ عزّة لغرفتها، واستبدلتْ ثيابها، ثمّ سمعت طرقًا على الباب، وهي تمشط شعرها، فأذنت بالدّخول، فوجئت بأشجان وسلوى، أسرعت إليها ابنتُها فضمّتها لحضنها، وتبادلا قُبُلات متناثرة، فيما تجوّلت أشجان بعينيها في الحجرة الفَسيحة، تتأمّل الفرش والوسائد، والسرير الرحيب، مبتسمةً بسعادةٍ للدفء العام وفخامة الحجرة، ثمّ ضمّت عزّة وقبّلتها، تبارك لها:

– هيّا، الحاجة فاطمة وأمّي وباقي القبيلة في انتظارك.

همستْ لها عزّة بغيظٍ مكتوم:

– أهذا وقت زيارة؟

وضعتْ أشجان يدَها على فمِها لتكتم ضحكةً كادت تسمعها البلدة كلّها، وقالت هامسة:

– هذه هي العادات، نسيت؟ وستجلس أمّك معك لتطمئنّ عليك.

تحلّق الجميع في المضيفة، وحين أقبلتْ عزّة تطلّعت إليها أمّها بسرور صادق، فقد غلب جَمالها كلّ شيء، شعرت فاطمة وهي تحضن ابنتها بعمقٍ أنّ الحبّ بينهما والذي ظلّ متردّدًا لسنوات طويلة؛ قد ملأ قلبَها بصفاء، ودّت ساعتها لو عادتْ عزّة طفلة رضيعة،لتبدأ معها من جديد.

كان المجلس عامرًا بالودّ والمحبة، وأقسم عليهم الحاجّ محمود حين استأذنوا في الانصراف بأنْ يبقوا للغداء، وأكملَ عليهم بمفاجأة سارّة، بقدومِ الخال رأفت؛ فقد أرسل له الحاجّ محمود سيّارة مخصوص لتأتي به.

بعد الغداء استأذن أسامة وانصرف، وبقيت العائلة كلّها مجتمعة في جلسة طيبة.

الحبيبان يسترقان نظراتٍ لا تحملُ سوى معنى واحدٍ، لقد فاض الشوقُ ولم يبق سوى الاستسلام لهذا الطوفان.. ولكنْ متى؟!!

حلّ مساء يناير سريعًا، واقترحت أمّ حسام أن يبيتوا في دارها، وأنّها قد رتّبت الدار لذلك، وبعد شدّ وجذب استجابوا لقضاء سهرةٍ دافئة والمبيت في الدّار حتى الصباح.

اقترب الليلُ من منتصفه، وحلّ الهدوء العام على الدار، وتفرّق الجمع إلى وسائدهم، والنوم يداعبُ جفونهم، إلّا الساهرين على أرصفة الشّوق.

سبقت عزّة إلى غرفتها، تغسّلت، وتزيّنت، ومسّت جسدَها بعطرٍ سكران، ثمّ تهيّأت بقميص ورديّ حالم، وحين أمسكت بأحْمر الشفاه تريد أن تلوّن شفتيها، تفاجأتْ بصورة حسام مُنعكسة في المرآة واقفًا يملأ عينيه منها، استدارت وقالت له بدلالٍ أخّاذ:

- ألَا يجب عليك الاستئذان قبل الدخول عليّ؟

قال لها وهو يتقدّم بتؤدة ناحيتها متجاهلًا سؤالها:

– مَن قال لك إنّني أحبّ أحمر الشفاه؟!

تراجعتْ للخلف، فيما واصل التقدّم:

– ألم أقلْ لك إنّني أحبّ تناول الفاكهة طازجة دون أيّ إضافات؟!!

دوّخها كلامُه، ومع ذلك تراجعت أكثرَ بعنادٍ أنثويّ راغِب:

– كُلّ الرّجالِ يحبّون أحمر الشفاه.

تقدّم بإصرارٍ لا مفرّ منه:

– هؤلاء الأغبياء لا يجيدون سوى المشاهدةِ فقط، أمّا أنا فألتَهِم الثّمار طازجةً من غصنها، بعد أن تغتسلَ بالنّدى.

ارتجّ جسدُها واستسلم، فلم تعدْ تستطيع التحرّك، وانكسرت عيناها، وتردّدت خلجاتٌ وارتعاشات على انتظار الاكتمال.

اقترب حسام أكثرَ فأكثر، حتى لفحتْها أنفاسُه العطشى، فامتلأ جسدُها بالرغبة، ضمّها برومانسية حانية، حتى تماهيا في الحضْن، فأشرق القمرُ متهيئًا لدورة الاكتمال، وإرخاء سترِ السّحر عليهما، وحين تفتّحت زهور الشفاه متهيّئة للرّيّ، تناهى فجأة إلى سمعهما جلبةٌ غريبة كأنّها داخل الدار، مالبثت أن تصاعدتْ مع وقعِ أقدام عنيف، ارتجّ جسدُها وتشنّج فضمّته بخوف، فضمّها أكثر ليطمئنَها، فيما يغزوه الاضطراب، علتْ أصواتٌ مُتداخلة

وصراخٌ متواصل، إنّها أُمّه، ما بالها تصرخُ هكذا؟!! وقبل أن يتحرّك، كان بابُ غرفتهما قد انفتحَ بقوّة على مصراعيه، وامتلأت فجأة بحشدٍ من الرّجال الملثمين، يتقدّمهم ضابط، وبصوتٍ جَهْوري:

- أنت حسام عبد اللطيف؟!

وقبلَ أن يجيب، كانت عزّة ترتجفُ من هوْل المفاجأة، وقد ضمّت نفسها تداري كتفيْها العاريتين وصدرَها، ثمّ صرخت:

- حسام، قلبي يا حسام، قلبي يؤلمني، قلبي.. يؤلمني، لا تتركني يا حسام، لا تتركني.

ثمّ صرخت صرخةً مدوّية قطعت نياطَ قلبه، وشهقت شهقةً مُفْجعة، وقد جحظت عيناها، وهي تسقطُ من بين يديه إلى الأرض.

مساء ٢٥ يناير ٢٠١١

في تلك اللحظة، توقّف حسام عن الكلام، وافترش الزّنزانة سكونٌ عارم متّشح بالحزن والألم، بدأتْ دموعُه تتهيأ للتدفّق، فحاول منعها بأنْ يواصل الحديثَ فاختنق بالبكاء، وتهدّجَ صوته، ولم يستطعْ أن يُكمل كلماتِه المتعثّرة على شوارع الشّجن، صَمَتَ رافعًا رأسه للأعلى هاربًا بعينيه الدّامعة من وجوه الشّباب المتطلّعة إليه، ولكنّه لم يتمالك نفسه ففرّت الدّموع من عينيه ثخينةً حارقة.

خَيّمَ صمتٌ مُطبقٌ على الزّنزانة، دار حسام بعينيه التي غطّتها الدّموع في وجوه الشباب المتحلّقين حوله، كان الحزن قد حفَرَ خريطتَه بالبكاء على بعض الوجوه، طالَ الصمتُ حائرًا بينهم ، حتى قطعه أكبرُهم:

– رحمها الله رحمة واسعة.

فردّد الباقي وراءَه الدّعاء لها بالرحمة، ثمّ سأله أحدُهم متنهّدًا، وقد غلب على وجهه الإحباط:

– بعدَ كلّ ما حكيتَه لنا، برأيك.. مازال هناك أملٌ في هذا الوطن يستحقّ أن نكون هنا من أجله؟

تنفّس حسام بعمق، وقد هزّ السؤال وجدانه:

– مكثتُ ثلاثةَ أيّام في هذه الزنزانة، دخلتُها واعتبرتُ أنّني دخلت قبّري، فبعد رحلتي الطويلة والتي انتهت بموْت عزّة، اهتزّ كلّ أملٍ بداخلي

وانْتحر، وحلّت جيوشُ اليأسِ بقلبي، فما عادَ في العمر منزعٌ لشيء، ولا أمل أو طموح أسعى جاهدًا إليه، سوى أن تتَسارع أيّامي لألحقَ بها، حتى أتيتُم، فما أنْ وقعت عيني عليكم، إلّا وامتدّ حبلُ أملٍ جديدٍ، قويّ فارغُ الحياة، وظللتُ أتامّل البُشْريات على وجوهكم الضّاحكة، المستهزئة بالصعاب، شبابٌ لديه هذا الكمّ من الوعي، جديرٌ بوطنٍ مثل مصر، نعم هذا الوطن يستحقّ، فلا تخذلوه، المشوار للحصولِ عليه طويلٌ وشاق، فلا تبخلوا عليه، ولا تيْأسوا، ولا تتوقّفوا أبدًا مهْما كانت التّضحيات.

في الصّباح الباكر، سِيقَ الشّبابُ ومعهم حسام في عددٍ من عربات التّرحيلات، وبعد رحلةٍ شاقّةٍ، طويلةٍ وقاسيةٍ، وغير آدميّة، وقفوا طابورًا طويلًا في ساحةِ سجنٍ عموميّ كبير، تسلّمهم مأمور السّجن بالعدد، ثمّ قسّمهم على عدّة زنازين، وأودعوا السّجن، وأغلقت الزنازين.

حسام مع مجموعةٍ من الشّباب وضعوا في زنزانة بعض الجنائيّين، الذين استقبلوهم بترْحاب، ووضعوا لهم طعامًا وشايًا، وأخذوا يسألون بلهفةٍ عمّا يحدث بالخارج.

في غمرة الأحداث، جاءت دفعاتٌ أخرى من الشباب في اليوم التالي؛ في الصّباح وفي المساء، وقد بدا من أحاديث القادمين أنَّ الأمورَ تتطوّر بسرعةٍ رهيبة، وأعداد الناس في المظاهرات في ازديادٍ غير متوقّع.

أيقن حسام أنَّ في مصر ثورةً حقيقية، ومن خلال متابعته لأحاديث القادمين بدأ يشعر برياح التّغيير وقد بدأت تهبّ أخيرًا على الوطن، وأنَّ الحلم الذي طال انتظاره قد أطلّ بوجهه، ولكن كيف يأتي الآن، وقد فارقته عزّة؟!! لكلّ إنسان في هذا الوطن حكايةٌ عاجزة عن التصديق، أقربها هؤلاء الأطفال زهرة شبابِ أيّ أمّة، ينامون في زنازين الوطن.

قلوبُهم نارٌ حارقة، لا تهمّهم تلك الجدران، لا يخافون من شيء، الموت عندهم بلا قيمة، فقط يحيون أحرارًا، روحٌ صاخبة تهزّ أحاديثهم، قال لنفسه: حين أخرجُ لن أفعلَ شيئًا، هؤلاء مَن سيفعلون، لم تعدْ بي قوّة ولا طاقة دون عزّة، ولا إرادة للتحرّك نحو فعل شيء، أحلامي كلها التي استيقظتْ معها؛ ماتت مع شهقةِ خروجِ روحها، يكفي الوطن هؤلاء، سأعتزل الحياةَ حتى يأتيني الموت.

اليومُ الثالث يهلُّ على السّجن مضطربًا، ولا أحد قادرٌ داخل السّجون على التنبؤ بشيء، ولا أخبار جديدة، الحراسات مشدّدة، في أقصى استعدادٍ لها، وفي حركةٍ غريبة بدأت تلك الحراسات المدجّجة بالانسحاب من ساحة السجن، وأخذ الأمناءُ والرقباءُ في فتح أبواب الزنازين، وأصدروا الأوامرَ للمُعتقلين والمساجين بالخروج، إلى أين؟ كان ذلك هو السؤالَ المنطقي، والإجابة كانت خارجَ المنطق، أبوابُ السّجن كلّها مفتّحة، وعلى الجميع الرّحيل، ومَن سيبقى سنضربه بالنار.

سكونٌ مرتاب حلَّ على المَساجين، ثمّ بدأت أصواتُ هرج ومرج، حين تحرّكت مجموعة تجرّأت بالحركة للخروج فأصابت العدوى الباقي، وبدأوا في التّزاحم للخروج من الزنازين، ليجدوا جميع الأبوابِ العموميّة مفتوحة على مصراعيها، ولا أحد من حراسات السّجن موجود، ومن ثمّ تدفّقوا خارجًا.

بعد مسافةٍ طويلة، وصل المئاتُ إلى الطريقِ العام، وحسام يسير بين الجموع كالميت، كأنّه في حلم من الأحلام المستحيلة، كان الشبابُ يتسارعون، أمّا هو فقد كان يمشي باستسلام، إلى مَن سيعود!! ولماذا سيعود؟

لا يعرف أين هو، ولا في أيّ اتّجاه عليه أن يسير، لم تكنْ هناك حتى سيارات عابرة تبدو في الأفق، الكثيرُ أعياه التّعب من كثرة المسير، فجلسوا يلتقطون أنفاسهم، يشربون بعض الماء القليل المتبقّي مع بعضهم، يقتسمونه بينهم.

بعد قليل، بدت في الأفق بضعُ سيّارات، وحين اقتربتْ فوجئوا أنّها عربات الترحيلات، لم يأبهوا، حتى لو كانت العودة للمعتقل، فالسيرُ في الصحراء قاتل.

توقّفت عدّة عربات أمامهم، فوجئوا بأنّ بعض المساجين عادوا للسّجن الخالي، واستطاعوا تشغيل هذه السّيارات، وقرّروا الذهاب بها للقاهرة، هجموا على السيارات الثلاثِ وتعلّقوا بها، كانت بالنّسبة لهم السبيلَ الوحيد للعودة أحياء.

كانوا في حالةٍ من السعادة الغامرة، الجنائيّون الذين قضوا سنواتٍ طويلةً في السجن، جاءهم فرح مدهشٌ دفعةً واحدة، أخذ كلّ منهم يحلم بمفاجأة أهله، الشباب.. كانت تغمرهم سعادة أكبر، يحلمون بالعودة للميدان، هذه الحركة من الشّرطة معناها أنَّ الأمر أصبح خارجَ سيطرتها، حسام، ساكن، ساكت، لا يفكّر في شيء، فالذي يحدث حوله كلّه أكبرُ من محيط تفكيرِ عقله، فجلس مستسلمًا للصمت.

الطريقُ طويلٌ وخالٍ تمامًا من الكمائن، بعد عدّة ساعات وعند مدخل القاهرة، بدت سيارات قليلة مسرعة في اتّجاهات كثيرة، وصمتٌ مُطبق يبدو في الأفق.

نزل وهو لا يدري إلى أين المسير، تحلّق الشباب بالقرب منه يتشاورون في أمر، اقترب منهم فقالوا له غنّهم عازمون على الذّهاب لميدان التحرير، وعرضوا عليه أن يذهب معهم، فقبل من بابِ الفضول، بعد قليل توقّفت عدّة باصات ينادون: التحرير، التحرير، تبادل الشباب الابتسام، ثمّ قفزوا جميعًا في سعادةٍ كأنّهم ذاهبون إلى حفل زفاف.

إذًا.. كان ما يراه الآن وعاشَه في الأيام القليلة الماضية هو حقيقيّ، فقد تهاوت أعتى الأحلام أمام قوّة الحقيقة التي يحياها ويراها الآن، وقف وسطَ أمواج البشر في الميدان، يتأمّل هذه القوة الهادرة وفي إصرارٍ ضارٍ لتحويل مجرى الحياة، وتلْوينها بمستقبل مختلفٍ يحلم به هؤلاء الثوار المحتشدون،

الحياة التي ظلّت تسير- لعقودٍ طويلة- برتابةٍ قاتلة، حتى ثقل حمل تغييرها، رائحة الميدانِ رطبة مُنعشة، دافئة وطاهرة، الهتافاتُ تحمله لعنانِ السماء، هذه القوّة الإنسانية لديها القدرةُ- بالتأكيد- في توحّدها وانْصهارها على تحطيم كلّ الأصنام الزّائفة، والتي عبدها الناس بالقهر والعوز.

تاهَ من الشباب وسطَ الميدان، ولكنّه وجدَ ذاته، ظلّ يدور في كلّ جنباته، ويستمع لأحاديث الناس هنا وهناك، فجيعةُ موتِ عزّة لم تزل تهزّ كيانه، والميدان يرمّمه.

جذبَه المكان بشكلٍ لم يستطعْ مقاومته بالرّغم من أنّه يفكّر في الذهاب لأبيه وأمّه ومريم ليطمئنهم عليه، ولكنّه يشعر بأنّه أصبحَ من مجاذيب الثورة، يدور طولَ النهار، يستمع للتجمعات والحوارات، والتطلّعات، والطموحات والآمال، ويشاهد شخصياتٍ شهيرة، يستمع لتحليلاتها، وتصوّراتها عمّا سيحدث، يتلقّى زجاجاتٍ من المياه والعصير، الطعام ينهالُ عليه من كلّ جانب وقتَ الغداء، الجميع يتقاسم كلّ شيء فيما بينهم.

بعدَ عدّة أيام، بدا له ألّا يتأخّر على أبيه وأمّه وابنته أكثرَ من ذلك، فقرّر أن يسافر لبلدتهم، ليطمئنَهم، مجرّد ليلة واحدة ويعود إلى الميدان، الذي شعر فيه أن يستردّ جزءًا من روحه الضّائعة.

في الطريق، فكّر لو استطاع الوصول لأمّ عزّة وعائلتها ليعزّيهم في وفاتها، ولكنّه يخشى من مقابلتهم.

حلّ المساء على الدار هادئًا، أبوه عادَ من صلاة العشاء، وجلس يتناول بعض الذّكر على مسبحتِه، والأمّ مشغولة بترتيب بعض الملابس، ومريم عاكفةٌ على تلمّس الأخبار، بعدما منعها جدّها من الخروج هذه الأيّام، حين طرق الباب..شهقت الأمّ شهقةً خفيفة:

– بسم الله الرحمن الرحيم، هذه طرقةُ حسام على الباب.

قام الحاجّ محمود من فوْره وهو يقول:

– فعلًا هذه طرقتُه، اللّهم اجعله خيرًا يا ربّ.

وكان الخير الذي جعل الحاجّ محمود ينفجرُ بالبكاء هكذا لأوّل مرّة في حياته أمام أهله جميعًا من روْعة المفاجأة.. ضمّه حسام وأخذ يربتُ عليه، والأمّ تلهج بالحمدِ وتتحسّس ولدَها، قفزت مريم من الدّور العلوي لترتمي في حضنِ أبيها.

تحلّقت الأسرة على كاسات الشّاي وبعض الحلوى، واستمعوا إلى حكاية حسام في الأيام الماضية حتى عادَ إليهم، كانت أمّه– طول حديثِه– تُطعمه بيدِها، وتربتُ عليه، وتقبّله، ومريم تضع رأسها على كتفِهِ ملتصقةً به، والحاجّ محمود مستندًا على عكّازه، يستمع باهتمامٍ ثمّ قال بعد أن أنهى حسام كلامَه:

– الحمدُ لله على سلامتك يا ولدي، سيأتي الخير إنْ شاء الله، فلا تقلق.

حسام:

- لمْ تقولوا لي ماذا حدث بعد خروجي من الدار؟

أمّه:

- لقد كان مشهدًا صعبًا يا ولدي، رحم الله عزّة.

انسالت الدّموع على وجنتيه:

- ينتقمُ الله منهم، لقد قهروني طولَ حياتي، لم يدعوني أعيشُ في وطني لحظة هانئة.

مسحَ دموعَه بيده وقد رقّت أمّه له رقةً شديدة، وأخذت تربتُ على كتفه وتصبّره، رفع رأسه وقال:

- ولكنْ احْكِ لي ما حدث.

- كانت المرحومة مُمدّدة على الأرض وقد قطعتِ النّفس، وأمّها فوقها تصرخ ونحن في عويلٍ وصراخٍ مستمر، تحرّك والدك واتّصل بالإسعاف، الذي حضر بسرعة بعد توصية قويّةٍ من أحد المعارف، وحملوها وانصرفوا.

- ثمّ؟!!

- لا ندري بعد ذلك ماذا حدث، فقد انشغل أبوك بالاتّصالات ليعرف أين أنت، ولم يفلح في الوصول لأيّ طرف خيط، وفي غمرة انشغالنا بك، قلتُ للحاج.. الواجب أن نذهب لعزاء أهلِها، ثمّ قامت الأحداثُ التي تعرفها، وانقطعت الاتّصالات، ولم نعد نستطيع التحرّك.

- أفكّر في الذّهاب إليهم في الغد، قبل عودتي لميدان التحرير.

قفزتْ مريم:

- لن أتركك، قدمي على قدمك، أينما ذهبت.

هدأ البيت وسكن باطمئنان، تحرّك حسام فتحمّم وارتدى ثيابًا نظيفة ودافئة، ثمّ صعد بتلقائية للغرفةِ التي جمعته بعزّة منذ أيّام قليلة، في الممرّ المؤدّي إليها، أصابه فجأة التردّد، توقّف قليلًا يستجمعُ نفسه، ثمّ اقترب بتؤدةٍ حتى وقف أمام الباب، أمسك بالمقبض، أغمض عينيه وتنفّس بعُمق، حاول أن يتغلّب على نفسه فلم يستطعْ فتحَ الباب، فقرّر الرجوع، تنهّد واستدارَ عائدًا، فإذا بصوتٍ يناديه:

- حسام.

ارْتعدت أطرافه، واقشعرّ بدنُه، ووقف مكانه ليتأكّد أنَّ ما يسمعه من أوهام خياله، هل هذا صوتها؟!! إنّه هوَ، تحرّك خطوة أخرى، سمع صوتَها بشكل أوضح:

- حسام..

إنّه صوت عزّة، مِن أين يأتي؟ استدار وعادَ إلى باب الحجرة، أمسك مقبضه متردّدًا، فأتاه صوتها مجدّدًا:

- حسام..

فتح البابَ بسرعة، ودلف إلى الحجرة، دارَ بعينيه في أنحائها التي ضمّت مشهدهما الأخير، يبحث عنها حتى فوجئ بها جالسةً على كرسي التّسريحة بكامل زينتها الأخيرة، ابتسمت له وقالت:

- أيصحّ أن تترك فاكهتَك الطازجة، المبلّلة بالندى كلّ هذا الوقت؟!!

اقتربَ منها:

- عزّة، أنت هنا!!؟

- نعمْ يا حبيبي، أنا هنا.. وفي انتظارك.

- قالوا إنّك متّ!!

- وصدّقتَهم!؟

- نعم صدّقتُهم؛ فقد متّ بين يدي.

قطبت جبينها:

- لم أتصوّر أنّ إحساسك بي سيخونك أبدًا.

اقترب أكثر:

- اعذريني يا حبيبتي، فقد مررتُ بأحداث صعبة.

استدارت عنه متغاضبة:

- خاصمتك.

- لا، أرجوك يا مُنيةَ الرّوح، أنا الذي متّ، وأحيتني رؤيتك الآن.

- ستتأخّر عليّ ثانية؟!

- عنْك يا عمري، لن أتأخّر أبدًا.

قفز حسامُ فوق السّلالم الداخلية للدار، محدثًا ضجيجًا أيقظَ أباه، فهُرِع على عكّازه خارجًا من حجرته، فوجد ابنه الذي عاجله:

- أبي، عزّة لم تمت، سأذهب إليها، إنّها تحتاجني، لو تأخّرت عليها ربّما لا أدركها للأبد.

تعجّب العجوز فلاحقه وهو يتّجه نحو الباب الخارجي:

- وكيف عرفتَ يا ولدي؟!!

قال بارتباكٍ متسرّع:

- منها يا أبي، أقصد كانت معي الآن، أقصدُ رأيتها.

وقفَ حسام لبرهةٍ وهو حائرٌ مُرْتبك، أخذ نفسًا عميقًا، ثمّ التفتَ إلى أبيه مبتسمًا:

- عزيزة أخبرتني.

ابتسم الحاجّ محمود:

- أسرعْ يا ولدي، لا تتأخّر عليها، ولا تنسانا، اجْعلنا نطمئن.

***

الصمتُ الذي يلفّ المستشفى، هوَ هوَ نفسُ الصّمت الذي يسكن المقابر، كأنّهما على وعدٍ واتّصال، غير أنّنا في صمتِ المستشفى نتمسّك بكلّ أطراف

الأمل ولو كان مجرّد قشّة يطيّرها الهواء، رجاءَ أن نعود بمريضنا إلى البيت لا إلى القبر.

كسرَ حدّة الصّمت قدومُ الدكتور وسام من غرفة العناية الفائقة، والتي ترقد فيها عزّة.

وقفَ الجميع لقدومه، متعلّقة عيونهم بأيّ أمل يُطلّ من وجهه، كان وجهه حزينًا حائرًا، وقال:

– عزّة في حالة خطيرة جدّصا، ليس لدينا سوى الأمل في معجزة مِن الله ليعيدها إلينا.

انْهارت فاطمة على مقعدها فيما أجهشتِ النّساء بالبكاء، وأسرع أسامة خلفَه ليستوضح أكثر، فقال له الدّكتور وسام وهو يواصلُ سيْره:

– أمّك يا ولدي ليس لها رغبة في مواصلة الحياة، حين أتتْ للمستشفى كان نبضُها ضعيفًا جدًّا، ونحن نجري لها الفحْص فوجئنا بتوقّف قلبها، أجريْنا عليه عدّة صدمات كهربائية، حتّى عاد للعمل، كلّ التحاليل والأشعّات التي أجريناها تقول إنّه ليس بقلبها مشكلة عضويّة، هيَ هي نفسُ المشكلة القديمة، متلازمة القلب المنكسر، لا نستطيع أن نتدخّل جراحيًّا، لا شيء في قلبها ولا شرايينها يستحقّ ذلك، كلّها أمامنا سليمة، المشكلة التي نواجهُها الآن أنّها لا تستجيب للأدوية التي نحقنُها بها، وكلّ أجهزتها الحيوية آخذةٌ في الانْهيار لدرجة أنّني أتوقّع توقّف قلبها بين لحظة وأخرى.

لم يتمالكْ أسامة نفسَه أمام كلمات الدكتور وسام، فأجهشَ في البكاء، ربتَ على كتفه بأبوّة، وأخذه من يدِه إلى غرفته، ثمّ استدعى أمّه وباقي العائلة، جلسوا والوجومُ مرسومٌ على الوجوه، وفاطمة منكسرةٌ حزينة، لم يرقأ لها جفنٌ منذ دخول عزّة للمستشفى، تنهّد الدكتور وسام:

– يؤسفني أن أقول لكم، إنّه لم يعدْ لديّ كطبيب شيء أقدّمه لها، وليس لديّ أمل سوى أن يعيدَها الله للحياةِ سليمةً معافاة، فادْعو الله جميعًا لعلّه يستجيب لأحدٍ منّا.

رفعت فاطمة رأسها:

– أظنّ أنّ لدينا أملًا وحيدًا باقيًا، ولكنّه يبدو مستحيلًا، ولن يأتي إلّا بمعجزة من الله، وهو أن نجدَ "حسام" أمامنا الآن.

وقبل أن يعلّق أحدٌ على كلام فاطمة، طرقتْ الممرضةُ طرقاتٍ متواليةً على باب المكتب، ثمّ دخلتْ، وبلهفة:

– دكتور وسام، أرجوكْ تعالى بسرعة، أجهزة عزّة الحيويّة عاودت العمل مرّة أخرى.

انتفضوا جميعًا وأسرعوا إلى غرفة العناية الفائقة، حيث ترقدُ عزّة، وقد مُدت الخراطيم إلى جسدِها، ووقفوا جميعًا بالخارج ينظرون من خلف الزجاج، بينما فتح الدكتور بابَ الغرفة ليجدَ رجلًا لا يعرفه، جاثيًا على ركبتيه، ممسكًا بيدها يقبّلها ويقول:

– ها أنا عُدتُ يا عزّة، لم أتأخّر كما وعدتك، أرجوك ردّي عليّ.

همسَ الدكتور للمرضة:

- مَن هذا؟!!

- هذا الرّجل جاءَ قبل دقائق، في حالةِ لهفةٍ شديدة، سأل عن عزّة، حاولنا منعه من الدخول، فسبقَنا إليها، وجثا على ركبتيْه كما ترى، وأخذ ينادي عليها، وقبل أن نكلّمه فوجئنا بأن الأجهزةَ التي كانت تصدرُ أصواتَها الرتيبة تُطلق بعض الصّافرات، في إشارة مفاجئة إلى تدفّق الحياة فيها مرّة أخرى، فتركته وأسرعتُ إليك لأخبرك.

مدّ الدكتور وسام يدَه إلى كتف حسام، ربتَ عليه، فالتفتَ والدّموع تُغرقُ عينيه:

- أرجوك يا دكتور، طمنّي عليها.

ابتسم له الدكتور وسام، وقد امتلأ قلبه بالاطمئنان:

- الآن فقط، ستعود عزّة للحياة.

القاهرة

٢٠١٨/٥/٢٤